تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ [الآية: ٧٦] نزلت حين جاء رسولَ الله ﷺ وَفْدُ ثَقيف، وحين قالتِ اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الآية: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ الآية [٦٠]. وقال مقاتل: وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ الآية [١٠٧]. وقال ابن مسعود ﷺ في بني إسرائيل والكهف: إنهنَّ من العِتاق الأول، وهُنَّ مِن تِلادي؛ يريد: من قديم كسبه[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

فيه ثمان[٢] مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾ «سبحان»: اسمٌ موضوعٌ موضِعَ المصدر، وهو غير مُتمكِّن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يَجْرِ منه فِعْلٌ، ولم ينصرفْ؛ لأنَّ في آخره زائدتين، تقول: سبَّحتُ تسبيحاً وسُبحاناً، مثل: كفَّرتُ اليمين تكفيراً وكُفراناً[٣]. ومعناه: التنزيهُ والبراءة لله عزَّ وجلَّ من كلِّ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٤ ، وأثر ابن مسعود أخرجه البخاري (٤٧٣٩) وفيه زيادة: ومريم وطه والأنبياء.

(٢) كذا في جميع النسخ، والملاحظ أن المسائل ست.

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٥ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٤٥ .

نقص. فهو ذكرُ تعظيمٍ[١] لله تعالى لا يصلح لغيره؛ فأمَّا قول الشاعر:

أقــول لــمَّــا جــاءنــي فَــخْــرُهُ سبـحـانَ مِـن عَـلْـقَـمـةَ الـفـاخِـرِ

فإنما ذكره على طريق النادر[٢]. وقد روى طلحة بنُ عبيد الله الفَيَّاض أحدُ العشرة أنه قال للنبيِّ ﷺ: ما معنى سبحانَ الله؟ فقال: «تنزيهُ اللهِ من كلِّ سوء»، والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذي من معناه لا من لفظه، إذ لم يَجْرِ من لفظه فِعْلٌ، وذلك مثل: قَعَدَ القُرْفُصاءَ، واشتملَ الصَّمَّاء، فالتقدير عنده: أُنزِّهُ اللهَ تنزيهاً، فوقع «سبحان الله» مكانَ قولِكَ: تنزيهاً[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ «أسرى» فيه لغتان: سرى وأسرى[٤]، كسقى وأسقى، كما تقدّم[٥]. قال:

أسْـرتْ عـلـيـه مـن الـجَـوْزاء سـارِيَـةٌ تُـزْجِـي الـشَّـمـالَ عـلـيـه جـامِـدَ الـبَـرَدِ

وقال آخر:

حَـيِّ الـنَّـضِـيـرةَ ربَّـةَ الـخِـدْرِ أسْـرَتْ إلـيَّ ولـم تـكـن تَـسْـري

فجمع بين اللغتين في البيتين[٦]. والإسراء: سير الليل؛ يقال: سَرَيت مَسْرًى وسُرًى، وأسريتُ إسراءً؛ قال الشاعر:

ولـيـلـةٍ ذاتِ نَـدًى سَـرَيْـتُ ولـم يَـلِـتْـنـي مـن سُـراهـا لَـيْـتُ[٧]

---

(١) في جميع النسخ: عظيم، والتصويب من النكت والعيون.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٢٣ ، والبيت قائله الأعشى الكبير، وقد سلف ١/ ٤١٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٥ ، والحديث سلف ١/ ٤١٢ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣١ .

(٥) ٢/ ١٣٥ .

(٦) سلف هذا الكلام ١١/ ١٨٢ ، والبيت الأول قائله النابغة الذبياني، والبيت الثاني قائله حسان بن ثابت.

(٧) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٢٤ ، والبيت نسبه ابن السكيت في إصلاح المنطق ص١٥٣ إلى رؤبة بن العجاج، ولم نقف عليه في ديوانه، ونسبه أبو علي القالي في أماليه ٢/ ٢٤٤ إلى ابن الأعرابي.

وقيل: أسرى: سار من أوّل الليل، وسرى: سار من آخره، والأوّل أعرف[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ قال العلماء: لو كان للنبيِّ ﷺ اسمٌ أشرفُ منه لسمَّاه به في تلك الحالة العلِيَّة. وفي معناه أنشدوا:

يـا قـومِ قـلـبـي عـنـد زهـراءِ ... يـعـرِفُـه الـسـامـعُ والـرَّائـي
لا تَـدْعُـنـي إلَّا بـيـا عـبـدَهـا ... فـإنَّـه أشـرفُ أسـمـائـي

وقد تقدَّم[٢]. قال القُشَيْرِيُّ: لمَّا رفعه الله تعالى إلى حضرته السَّنيَّة، وأرقاه فوق الكواكب العلوية، ألزمه اسمَ العبودية تواضعاً للأمة.

الرابعة: ثبت الإسراء في جميع مصنَّفات الحديث، ورُوي عن الصحابة في كلِّ أقطار الإسلام، فهو من المتواتر بهذا الوجه، وذكر النقَّاش ممن رواه عشرين صحابياً[٣]. روى الصحيح عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أُتيتُ بالبُراقِ وهو دابَّةٌ أبيَضُ [طويلٌ] فوق الحمار ودون البغل، يضع حافِرَه عند منتهى طَرْفِه ـ قال ـ فركبتُه حتى أتيتُ بيت المقدس ـ قال ـ فربطتُه بالحَلْقةِ التي تَرْبط بها الأنبياء ـ قال ـ ثم دخلتُ المسجدَ فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ، فجاءني جبريلُ عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ، فاخترتُ اللَّبنَ، فقال جبريل: اخترتَ الفِطْرَة ـ قال ـ ثم عَرَجَ بنا إلى السماء...» وذكر الحديث[٤]. ومما ليس في الصحيحين ما خرَّجه الآجُرِّيُّ والسَّمَرْقَنْديُّ[٥]، قال الآجُرِّيُّ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ في قوله تعالى:

---

(١) سلف هذا الكلام ١١/ ١٨٢ .

(٢) ١/ ٣٤٩ من غير نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٤ .

(٤) صحيح مسلم (١٦٢) (٢٥٩) وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أحمد (١٢٥٠٥).

(٥) الآجري في الشريعة (١٠٢٧)، وأبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢/ ٢٥٨ ، ولم يذكر إسناده، أما الآجري فرواه من طريق أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري؛ به. أبو هارون العبدي: اسمه عمارة بن جُوين، وهو متروك، ومنهم من كذَّبه. تهذيب التهذيب ٣/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ قال أبو سعيد: حدثنا رسول الله ﷺ عن ليلةَ أُسْرِيَ به، قال النبيُّ ﷺ: «أُتِيتُ بدابَّةٍ هي أشبَهُ الدوابِّ بالبغل، له أُذُنانِ مضطربتان[1]، وهو البُراق الذي كانتِ الأنبياءُ تركبُه قبلُ، فركبتُه، فانطلقَ تقَعُ يداه عند منتهى بصَرِه، فسمعتُ نداءً عن يميني: يا محمد، على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ عليه، ثم سمعتُ نداءً عن يساري: يا محمد، على رِسْلِكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ عليه، ثم استقبلَتْني امرأةٌ عليها من كلِّ زينة الدنيا، رافعةً يدَيها تقول: على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ، ثم أتيتُ بيت المقدس الأقصى، فنزلتُ عن الدابة، فأوثقتُه في الحَلْقة التي كانتِ الأنبياء تُوثِقُ بها، ثم دخلتُ المسجدَ وصلَّيتُ فيه، فقال لي جبريل عليه السلام: ما سمعتَ يا محمد؟ فقلتُ: سمعتُ نداءً عن يميني: يا محمد، على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ، فقال: ذلك داعي اليهود، ولو وقفتَ لتهوَّدَتْ أمَّتُكَ ـ قال ـ ثم سمعتُ نداءً عن يساري: على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّج عليه، فقال: ذلك داعي النصارى، أمَا إنَّكَ لو وقفتَ لتنصَّرتْ أمَّتُكَ ـ قال ـ ثم استقبلَتْني امرأةٌ عليها من كلِّ زينة الدنيا، رافعةً يدَيها تقول: على رِسْلِكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ عليها، فقال: تلكَ الدنيا لو وقفتَ لاخترتَ الدنيا على الآخرة ـ قال ـ ثم أُتِيتُ بإناءين أحدُهما فيه لبنٌ والآخرُ فيه خمرٌ، فقيل لي: خُذْ فاشرَبْ أيَّهما شئتَ، فأخذتُ اللبنَ فشرِبْتُه، فقال لي جبريل: أصبْتَ الفِطْرة، ولو أنَّكَ أخذْتَ الخمرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ، ثم جاء بالمعراج الذي تعرُجُ فيه أرواح بني آدم فإذا هو أحسنُ ما رأيتُ، ألم[2] تروا إلى الميت كيف يُحِدُّ بصرَه إليه؟ فعُرِجَ بنا حتى انتهينا إلى[3] باب السماء الدنيا، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومَنْ معك؟

---

(١) في النسخ الخطية: يخطرفان، وفي (م): يضطربان، والمثبت من الشريعة للآجري.

(٢) في (م): أو لم.

(٣) في (م): أتينا، وفي النسخ الخطية سقطت كلمة إلى، والمثبت من الشريعة.

قال: محمد. قيل[١]: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. ففتحوا لي، وسلَّموا عليَّ، وإذا مَلَكٌ يحرسُ السماءَ يُقال له: إسماعيل، معه سبعون ألف مَلَك، مع كلِّ مَلَكٍ مئة ألف ـ قال ـ ﴿وما يعلم جُنُودَ رَبِّك إلا هو...﴾ [المدثر: ٣١] ـ وذكر الحديث إلى أن قال ـ ثم مضينا إلى السماء الخامسة، فإذا أنا بهارون بن عمران المُحَبِّ في قومه، وحولَه تَبَعٌ كثيرٌ من أمته ـ فوصفَه النبيُّ ﷺ وقال ـ طويلُ اللِّحية، تكاد لِحيتُه تضرِبُ في سُرَّته، ثم مضينا إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى، فسلم عليَّ ورحَّب بي ـ فوصفه النبيُّ ﷺ فقال ـ رجلٌ كثير الشعر لو[٢] كان عليه قميصان خرجَ شعرُه منهما...» الحديث.

وروى البزَّار[٣] أنَّ رسول الله ﷺ أُتِيَ بفرسٍ فحملَ عليه، كلُّ خُطوةٍ منه أقصى بَصرِه... وذكر الحديث.

وقد جاء في صفة البُراق من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائمٌ في الحِجْر إذ أتاني آتٍ فحرَّكني برِجْلِه، فأتبعتُ الشخصَ فإذا هو جبريل عليه السلام قائمٌ على باب المسجد معه دابَّةٌ دون البغل وفوق الحمار، وجهُها وجهُ إنسان، وخُفُّها خُفُّ حافر، وذَنَبُها ذنبُ ثور، وعُرْفُها عُرْفُ الفرس، فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرَتْ ونفشَتْ عُرْفَها، فمسحها جبريل عليه السلام وقال: يا بُرْقةُ، لا تَنْفِري من محمد، فوالله ما ركبَكِ مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ أفضلُ من محمدٍ ﷺ ولا أكرمُ على الله منه. قالت: قد علمتُ أنه كذلك، وأنه صاحبُ الشفاعة، وإني أُحِبُّ أن أكون في شفاعته. فقلت: أنتِ في شفاعتي إن شاء الله تعالى...» الحديث[٤].

---

(١) في (م): قالوا، وفي النسخ الخطية: قال، والمثبت من الشريعة.

(٢) في (م): ولو.

(٣) كما في «كشف الأستار» (٥٥) من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره، عن أبي هريرة، مرفوعاً. أبو جعفر الرازي سيئ الحفظ. تهذيب التهذيب ٤/ ٥٠٣. ثم إن الربيع رواه على الشك، فيحتمل أن يكون عن رجلٍ مبهم.

(٤) ذكر الطبرسي في مجمع البيان ١٦/ ٩ بعضه، وذكر صاحب السيرة الحلبية ٢/ ٧٨ بأن الثعلبي رواه في تفسيره بسند ضعيف.

وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد النَّيْسابوري[١] عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: لمَّا مرَّ النبيُّ ﷺ بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال: «مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح الذي وُعِدْنا أن نراه فلم نَرَهُ إلَّا الليلة ـ قال ـ فإذا فيها مريمُ بنت عمران لها سبعون قصراً من لؤلؤ، ولِأُمِّ موسى بن عمران سبعون قصراً من مرجانةٍ حمراءَ مُكلَّلةٍ باللؤلؤ، أبوابُها وأسِرَّتُها من عِرْقٍ واحد، فلما عرَجَ المعراج إلى السماء الخامسة ـ وتسبيحُ أهلها: سُبحانَ مَنْ جمَعَ بين الثلج والنار، من قالها مرةً واحدةً كان له مثلُ ثوابِهم ـ استفتحَ البابَ جبريلُ عليه السلام، ففُتِحَ له، فإذا هو بكهلٍ لم يُرَ قَطُّ كَهْلٌ أجملَ منه، عظيمُ العينين، تضرِبُ لحيتُه قريباً من سُرَّته، قد كاد أن تكون شَمْطةً[٢]، وحوله قومٌ جلوسٌ يقصُّ عليهم، فقلتُ: يا جبريل، من هذا؟ قال: هارون المُحَبُّ في قومه...» وذكر الحديث.

فهذه نبذةٌ مختصرةٌ من أحاديث الإسراء خارجةٌ عن الصحيحين، ذكرها أبو الربيع سليمان بن سَبُع بكمالها في كتاب «شفاء الصدور»[٣] له. ولا خلافَ بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنما فُرِضَتْ على النبيِّ ﷺ بمكةَ في حين الإسراء حين عُرِجَ به إلى السماء. واختلفوا في تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراءً بروحه أو جسده، فهذه ثلاث مسائل تتعلَّق بالآية، وهي مما ينبغي الوقوف عليها والبحث عنها، وهي أهمُّ من سَرْد تلك الأحاديث، وأنا أذكر ما وقفتُ عليه فيها من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعون الله تعالى:

فأما **المسألة الأولى**: وهي هل كان إسراءً بروحه أو جسده؛ اختَلفَ في ذلك

---

(١) هو أبو سعيد الواعظ الحافظ، صاحب كتاب «شرف المصطفى»، توفي سنة ٤٠٦هـ. كشف الظنون ٢/ ١٠٤٥.

(٢) من الشَّمَط: وهو بياض شعر الرأس يخالطه سواده. الصحاح (شمط).

(٣) قال صاحب مشارع الأشواق: وقفت عليه ـ يعني كتاب «شفاء الصدور» ـ في نحو أربعة أسفار، يشتمل على أحاديث في فضائل الأعمال، وضع فيه مؤلفه من عجائب الغرائب أصولاً وفروعاً، جمع فيه وادَّعى، وأودع أحاديث عريةً عن الإسناد. كشف الظنون ٢/ ١٠٥٠.

السلفُ والخلف، فذهبت طائفةٌ إلى أنه إسراءٌ بالروح، ولم يفارِقْ شخصُه مضجَعَه، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الأنبياء حقٌّ. ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحُكيَ عن الحسن وابن إسحاق. وقالت طائفة: كان الإسراء بالجسد يقظةً إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ فجعل المسجدَ الأقصى غايةَ الإسراء. قالوا: ولو كانوا الإسراء بجسده إلى زائدٍ على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغَ في المدح. وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراءً بالجسد وفي اليقظة، وأنه ركب البراقَ بمكة، ووصل إلى بيت المقدس وصلَّى فيه ثم أُسْرِيَ بجسده. وعلى هذا تدلُّ الأخبارُ التي أشرنا إليها والآية. وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعدَلُ عن الظاهرِ والحقيقةِ إلى التأويلِ إلا عند الاستحالة، ولو كان مناماً لقال: بروح عبده، ولم يقُلْ: بعبده. وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] يدلُّ على ذلك، ولو كان مناماً لما كانت فيه آيةٌ ولا معجزة، ولَما قالت له أمُّ هانئ: لا تُحدِّثِ الناسَ فيُكذِّبوك، ولا فُضِّلَ أبو بكر بالتصديق، ولَما أمكنَ قريشاً التشنيعُ والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى ارتدَّ أقوامٌ كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر[1]، وقد قال له المشركون: إن كنتَ صادقاً فخبِّرنا عن عِيرنا أين لقِيتَها؟ قال: «بمكان كذا وكذا مررتُ عليها، ففزِعَ فلانٌ، فقيل له: ما رأيتَ يا فلان؟ قال: ما رأيتُ شيئاً، غيرَ أنَّ الإبل قد نفرت». قالوا: فأخبِرْنا متى تأتنا العير؟ قال: «تأتيكم يومَ كذا وكذا». قالوا: أيَّةَ ساعة؟ قال: «ما أدري، طلوعُ الشمس من هاهنا أسرع أم طلوعُ العِيرِ من ها هنا». فقال رجلٌ: ذلك اليوم، هذه الشمس قد طلعت. وقال رجلٌ: هذه عِيركم قد طلعت. واستخبروا النبيَّ ﷺ عن صفة بيت المقدس، فوصفَه لهم، ولم يكن رآه قبل ذلك[2]. روى الصحيح عن أبي هريرة قال: قال

(١) الشفا للقاضي عياض ١/ ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٦٢ و ٣٦٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٤ - ٤٣٥ مع تقديم وتأخير وإدخال كلام بعضهما في بعض. وقول أم هانئ أخرجه ابن سعد ١/ ٢١٥ .

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٧١٤٢)، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٣٥٥-٣٥٧ من حديث شداد بن أوس، وقال: إسناده صحيح.

رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُني في الحِجْرِ وقريشٌ تسألني عن مَسْرايَ، فسألَتْني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثْبِتْها، فكُرِبْتُ كَرْباً ما كُرِبتُ مثلَه قطُّ ـ قال ـ فرفعه اللهُ لي أنظرُ إليه، فما سألوني عن شيءٍ إلا أنبأتُهم به» الحديث[١]. وقد اعتُرِضَ قولُ عائشة ومعاوية: «إنما أُسرِيَ بنَفْس رسول الله ﷺ» بأنها كانت صغيرةً لم تُشاهِد، ولا حدَّثَتْ عن النبيِّ ﷺ. وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت غيرَ مشاهدٍ للحال، ولم يُحدِّث عن النبيِّ ﷺ[٢]. ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على كتاب «الشفاء»[٣] للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء. وقد احتجَّ لعائشة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الآية ٦٠ من هذه السورة] فسمَّاها رؤيا. وهذا يردُّه قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ ولا يُقال في النوم: أسرى[٤]. وأيضاً فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانُه في هذه السورة. وفي نصوص الأخبار الثابتة دِلالةٌ واضحةٌ على أنَّ الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبرُ بشيءٍ هو مُجوَّزٌ في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريقَ إلى الإنكار، ولا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبيِّ ﷺ معارجُ، فلا يبعُدُ أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يُحمل قوله عليه الصلاة والسلام في الصحيح: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان» الحديث[٥]. ويَحتمِلُ أن يُرَدَّ من الإسراء إلى نوم. والله أعلم.

المسألة الثانية: في تاريخ الإسراء، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضاً، واختُلِفَ في ذلك على ابن شهاب؛ فروى عنه موسى بن عُقبة أنَّه أُسرِيَ به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. وروى عنه يونس عن عروة عن عائشة قالت: تُوفِّيت

---

(١) صحيح مسلم (١٧٢).

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٥ .

(٣) ١/ ٣٤٣ - ٣٧٤ .

(٤) الشفاء ١/ ٣٦٨ .

(٥) صحيح البخاري (٣٢٠٧)، وصحيح مسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة، وأخرجه أحمد (١٧٨٣٣).

خديجةُ قبل أن تُفرَضَ الصلاة. قال ابن شهاب: وذلك بعد مبعث النبيِّ ﷺ بسبعة أعوام. وروى عنه الوَقَّاصيُّ قال: أُسْرِيَ به بعد مبعثه بخمس سنين[١]. قال ابن شهاب: وفُرِضَ الصيام بالمدينة قبل بدر، وفُرِضَتِ الزكاةُ والحجُّ بالمدينة، وحُرِّمتِ الخمرُ بعد أُحُد. وقال ابن إسحاق: أُسريَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، وقد فشا الإسلام بمكة وفي[٢] القبائل. وروى عنه يونس ابن بكير قال: صلَّتْ خديجةُ مع النبيِّ ﷺ[٣]. وسيأتي. قال أبو عمر[٤]: وهذا يدلُّكَ على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام؛ لأنَّ خديجةَ قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بثلاث، وقيل: بأربع. وقول ابن إسحاق مخالفٌ لقول ابن شهاب، على أنَّ ابن شهاب قد اختُلِفَ عنه كما تقدَّم.

وقال الحَرْبِيُّ: أُسرِيَ به ليلة سبعٍ وعشرين من[٥] ربيع الأول[٦] قبل الهجرة بسنة[٧]. وقال أبو بكر محمد بن عليّ بن القاسم الذهبي في تاريخه: أُسريَ به من مكة إلى بيت المقدس، وعُرِجَ به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً. قال أبو عمر[٨]: لا أعلم أحداً من أهل السير قال ما حكاه الذهبي، ولم يُسْنِدْ قولَه إلى أحدٍ ممَّن يُضافُ إليه هذا العِلمُ منهم، ولا رَفعه إلى من يُحتَجُّ به عليهم.

---

(١) التمهيد لابن عبد البر ٨/ ٥٠ - ٥١ ، وقد أسند رواية موسى بن عقبة، وأما رواية يونس فقد تابعه عليها معمر بن راشد فيما أخرجه ابن سعد ٨/ ١٨ .

(٢) في (م) و(د)و(ز): في.

(٣) التمهيد ٨/ ٥١ - ٥٢ ، وأسند قول الزهري.

(٤) في التمهيد ٨/ ٥٢ - ٥٣ .

(٥) بعدها في (م) كلمة شهر، وهي ليست في النسخ الخطية.

(٦) في (م): الآخرة، وفي (د) و(ز) و(ف): الآخر، والمثبت من (ظ) ومن التمهيد، وينظر طبقات ابن سعد ١/ ٢١٤ .

(٧) التمهيد ٨/ ٤٩ .

(٨) في التمهيد ٨/ ٤٨ .

المسألة الثالثة: وأما فرض الصلاة وهيئتُها حين فرضت، فلا خلافَ بين أهل العلم وجماعةِ أهل السِّيَر أنَّ الصلاة إنما فُرِضتْ بمكةَ ليلةَ الإسراء حين عُرِجَ به إلى السماء، وذلك منصوصٌ في الصحيح وغيره، وإنما اختلفوا في هيئتها حين فُرِضَتْ؛ فرُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها أنها فُرِضَتْ ركعتين ركعتين، ثم زِيدَ في صلاة الحضر فأُكمِلَتْ أربعاً، وأُقِرَّتْ صلاةُ السفر على ركعتين. وبذلك قال الشَّعْبِيُّ وميمون ابن مِهْران ومحمد بن إسحاق[١].

قال الشَّعبيُّ: إلا المغرب[٢].

قال يونس بن بكير: وقال ابن إسحاق: ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبيَّ ﷺ حين فُرِضَتْ عليه الصلاةُ ـ يعني في الإسراء ـ فهمزَ له بعقِبه في ناحية الوادي فانفجرت عينُ ماءٍ، فتوضَّأ جبريلُ ومحمدٌ ينظر عليهما السلام، فوَضَّأ وجهَه، واستنشقَ، وتمضمض، ومسح برأسه وأُذنيه ورجليه إلى الكعبين، ونضحَ فرجَه، ثم قام يُصلِّي ركعتين بأربع سجدات، فرجع رسول الله ﷺ وقد أقرَّ اللهُ عينَه، وطابَتْ نفسُه، وجاءه ما يُحِبُّ من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة، ثم أتى بها العين، فتوضأ كما توضَّأ جبريل، ثم ركع ركعتين وأربع سجداتٍ هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يُصلِّيان سواء[٣].

ورُوِيَ عن ابن عباس أنها فُرِضَتْ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين. وكذلك قال نافع بن جُبَير والحسن بن أبي الحسن البصري، وهو قولُ ابنِ جُرَيج، ورويَ عن النبيِّ ﷺ ما يوافِقُ ذلك[٤]. ولم يختلفوا في أنَّ جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة

---

(١) التمهيد ٨/ ٣٣ ، وحديث عائشة أخرجه بنحوه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥).

(٢) التمهيد ٨/ ٤٧ .

(٣) التمهيد ٨/ ٥٢ .

(٤) وهو قوله ﷺ: «إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة» وأخرجه أحمد (١٩٠٤٧)، والترمذي (٧١٥) واللفظ له، وابن ماجه (١٦٦٧) من حديث أنس بن مالك رجل من بني عبد الله بن كعب.

الإسراء عند الزوال، فعلَّم النبيَّ ﷺ الصلاة ومواقيتها[١].

وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المُهاجِر قال: سمعتُ ميمون بن مِهْرانَ يقول: كان أوَّل الصلاة مثنى، ثم صلَّى رسول الله ﷺ أربعاً فصارت سُنَّة، وأُقِرَّتِ الصلاةُ للمسافر، وهي تمام. قال أبو عمر[٢]: وهذا إسنادٌ لا يُحتَجُّ بمثله، وقوله: «فصارت سُنَّة» قولٌ منكر، وكذلك استثناءُ الشعبيِّ المغربَ وحدَها ولم يذكُرِ الصبح قولٌ لا معنى له. وقد أجمعَ المسلمون أنَّ فرض الصلاة في الحضر أربعٌ إلا المغربَ والصُّبحَ، ولا يَعرِفون غيرَ ذلك عملاً ونقلاً مستفيضاً، ولا يضرُّهمُ الاختلافُ فيما كان أصلُ فرضِها.

الخامسة: قد مضى الكلام في الأذان في «المائدة»[٣] والحمد لله. ومضى في «آل عمران»[٤] أنَّ أوَّلَ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض المسجدُ الحرام، ثم المسجدُ الأقصى، وأنَّ بينهما أربعين عاماً من حديث أبي ذَرّ، وبناءُ سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو، ووجهُ الجمع في ذلك، فتأمَّلْه هناك فلا معنى للإعادة. ونذكر هنا قوله ﷺ: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجد: إلى المسجد الحرام، وإلى مسجدي هذا، وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس». خرَّجه مالك من حديث أبي هريرة[٥]. وفيه ما يدلُّ على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذرَ صلاةً في مسجد لا يصِلُ إليه إلا برحلةٍ وراحلةٍ فلا يفعل، ويصلِّي في مسجده، إلا في الثلاثة المساجد المذكورة، فإنه من نذرَ صلاةً

---

(١) التمهيد ٨/ ٣٣ - ٣٤.

(٢) في التمهيد ٨/ ٤٧ - ٤٨ بعد أن ذكر تلك الرواية.

(٣) ٨/ ٥٩ - ٧٤.

(٤) ٥/ ٢٠٦ وما بعدها.

(٥) الموطأ ١/ ١٠٨ - ١٠٩، وأخرجه من طريقه أحمد (٢٣٨٤٨)، ولفظه: «لا تُعمَلُ المَطيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد»، ووقع في رواية مالك هذه أن أبا هريرة رواه عن بصرة بن أبي بصرة الغِفاري، فتعقَّبها ابن عبد البر في الاستيعاب ٢/ ٣٩ - ٤٠ فقال: إنما الحديث لأبي هريرة، وأظنُّ الوهم جاء فيه من يزيد بن الهاد - يعني شيخ مالك - والله أعلم.

فيها خرج إليها. وقد قال مالك وجماعةٌ من أهل العلم فيمن نذر رِباطا في ثَغْرٍ يَسُدُّه: فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط؛ لأنه طاعةٌ لله عزَّ وجلَّ[١]. وقد زاد أبو البَخْتَرِيِّ في هذا الحديث: مسجد الجند، ولا يصِحُّ وهو موضوع[٢]، وقد تقدَّم في مقدِّمة الكتاب[٣].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ سُمِّيَ الأقصى لِبُعْدِ ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعدَ مسجدٍ عن أهل مكة في الأرض يُعظَّمُ بالزيارة، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار. وقيل: بمن دُفِنَ حولَه من الأنبياء والصالحين؛ وبهذا جعله مقدَّساً. وروى معاذ بن جبل عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: يا شامُ، أنتِ صفْوَتي من بلادي، وأنا سائقٌ إليكِ صفوتي من عبادي»[٤]. ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ هذا من باب تلوين الخطاب. والآيات التي أراه الله من العجائب التي أخبر بها الناس، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلةٍ وهو مسيرة شهر، وعروجُه إلى السماء، ووصفُه الأنبياء واحداً واحداً[٥]، حسبما ثبت في «صحيح مسلم» وغيره[٦]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقدم[٧].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾

أي: كَرَّمْنا محمداً ﷺ بالمعراج، وأكرَمْنا موسى بالكتاب: وهو التوراة[٨].

---

(١) الاستذكار ٢/ ٤١ .

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ٣٨ وليس في إسناده أبو البختري، وإنما فيه محمد بن خالد الجندي والمثنى بن الصباح، ثم قال ابن عبد البر: هذا حديث منكر لا أصل له، ومحمد بن خالد الجندي والمثنى بن الصباح متروكان، ولا يثبت من جهة النقل.

(٣) ١/ ١٢٥ - ١٢٦ ، والذي تقدم ليس الحديث، وإنما الكلام على أبي البختري.

(٤) أخرجه الديلمي في فردوس الأخبار (٨١٢٥).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٦) وقد تقدم في أول السورة.

(٧) ٢/ ٢٦٢ و ٣٩٦ .

(٨) الوسيط ٣/ ٩٦ ، وزاد المسير ٥/ ٦ .

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: ذلك الكتاب. وقيل: موسى[١]. وقيل: معنى الكلام: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً وآتى موسى الكتاب، فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جلَّ وعزَّ[٢]. وقيل: إنَّ معنى سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً، معناه: أسرينا، يدلُّ عليه ما بعده من قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ فحمل ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ على المعنى. ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ قرأ أبو عمرو: «يتخذوا» بالياء. الباقون بالتاء[٣]. فيكون من باب تلوين الخطاب. ﴿وَكِيلًا﴾ أي: شريكاً. عن مجاهد. وقيل: كفيلاً بأمورهم. حكاه الفراء. وقيل: ربًّا يتوكَّلون عليه في أمورهم. قاله الكلبي[٤]. وقال الفراء[٥]: كافياً. والتقدير: عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكيلاً. وقيل: التقدير: لئلا تتَّخذوا[٦]. والوكيل: من يُوكَل إليه الأمر[٧].

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾

أي: يا ذرية من حملنا، على النداء. قاله مجاهد، ورواه عنه ابن أبي نَجيح[٨]. والمراد بالذرية كلُّ من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع مَن على الأرض؛ ذكره المهدوِيُّ. وقال المَاوَرْدِيُّ[٩]: يعني: موسى وقومه من بني إسرائيل. والمعنى: يا ذريةَ من حملنا مع نوحٍ لا تُشركوا. وذكر نوحاً ليذكِّرهم نِعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم[١٠].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٢٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٦ .

(٢) ينظر الوسيط ٣/ ٩٦ ، وزاد المسير ٥/ ٦ .

(٣) السبعة ص٣٧٨ ، والتيسير ص١٣٩ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٢٧ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٠ .

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ١١٦ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٤ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٢٤ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٢٠ .

(٩) في النكت والعيون ٣/ ٢٢٨ .

(١٠) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٠ .

وروى سفيان، عن حُميد، عن مجاهد أنه قرأ: «ذَرِّيَّة» بفتح الذال وتشديد الراء والياء. وروى هذه القراءة عامر بن عبد الواحد، عن زيد بن ثابت. ورُوي عن زيد بن ثابت أيضاً «ذِرِّية» بكسر الذال وشَدِّ الراء[١].

ثم بيَّن أن نوحاً كان عبداً شكوراً يشكر الله على نعمه، ولا يرى الخير إلا من عنده. قال قتادة: كان إذا لبِسَ ثوباً قال: بسم الله، فإذا نزعه قال: الحمد لله. كذا روى عنه معمر[٢]. وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال: شُكْرُهُ إذا أكلَ قال: بسم الله، فإذا فرغَ من الأكل قال: الحمد لله[٣]. قال سلمان الفارسي: لأنه كان يحمَدُ الله على طعامه[٤]. وقال عمران بن سليم[٥]: إنما سُمِّي نوحاً عبداً شكوراً؛ لأنه كان إذا أكل قال: الحمدُ لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني ولو شاء لأحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسه فيّ[٦]. ومقصود الآية: إنكم من ذرية نوحٍ وقد كان عبداً شكوراً، فأنتم أحقُّ بالاقتداء به دون آبائكم الجُهَّال. وقيل: المعنى: أنَّ موسى كان عبداً شكوراً إذْ جعلَه اللهُ تعالى من ذرية نوح[٧]. وقيل: يجوز أن يكون «ذرية» مفعولاً ثانياً لـ «تتخذوا»، ويكون قولُه: «وكيلاً» يُرادُ به الجمعُ، فيسوغُ ذلك في القراءتين جميعاً، أعني الياءَ والتاءَ في «تتخذوا». ويجوز أيضاً في القراءتين جميعاً أن يكون «ذريةً» بدلاً من قوله: «وكيلاً»؛ لأنه بمعنى

---

(١) سلف ٢/ ٣٦٨ من قراءتي زيد بن ثابت، ووقع هنا في (م): عامر بن الواحد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٣ - ٣٧٤ ، والطبري ١٤/ ٤٥٤ ، وعندهما: «أخلقه» بدل «نزعه».

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد ص٦١ .

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٢ - ٤٥٣ ، والحاكم ٢/ ٣٦٠ ، والبيهقي في الشعب (٤٤٧١).

(٥) هو قاضٍ من قضاة حمص، قال فيه مكحول الشامي: ما نزل الشام قاضٍ مثله. التاريخ الكبير ٦/ ٤١٢ .

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٢٨ .

الجمع، فكأنه قال: لا تتَّخِذوا ذريةَ من حملنا مع نوح. ويجوزُ نصبُها بإضمار أعني وأمدَحُ، والعرب قد تنصِبُ على المدحِ والذَّمِّ. ويجوز رفعُها على البدل من المضمر في «تتَّخذوا» في قراءة من قرأ بالياء، ولا يحسُنُ ذلك لمن قرأ بالتاء؛ لأنَّ المخاطبَ لا يُبدَلُ منه الغائب[١]. ويجوزُ جَرُّها على البدل من بني إسرائيل في الوجهين. فأما «أنْ» من قوله: «ألا تتخذوا» فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضعِ نصبٍ بحذف الجار، التقدير: هديناهم لئلَّا يتَّخذوا. ويصلُحُ على قراءة التاء أن تكون زائدةً، والقولُ مضمَرٌ كما تقدَّم. ويصلُحُ أن تكون مفسِّرةً بمعنى أي، لا موضع لها من الإعراب، وتكون «لا» للنهي، فيكون خروجاً من الخبر إلى النهي[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ وقرأ سعيد بن جُبير وأبو العالية: «فِي الكتب» على لفظ الجمع[٣]. وقد يرِدُ لفظ الواحد ويكون معناه الجمع، فتكون القراءتان بمعنًى واحد. ومعنى «قَضَينا»: أعلمنا وأخبرنا. قاله ابن عباس[٤]. وقال قتادة: حكمنا[٥]. وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه[٦]. وقيل: قضينا أوحينا[٧]؛ ولذلك قال: «إلى بني إسرائيل». وعلى قول قتادة يكون «إلى» بمعنى

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٤ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٧-٤٢٨ ، والبيان ٢/ ٨٦ ، وزادوا وجهاً آخر، وهو النصب على النداء لمن قرأ: «تتخذوا» بالتاء.

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٨ - ٤٢٩ ، وزاد وجهاً ثالثاً لمن قرأ: «تتخذوا» بالتاء، وهو أن تكون (أن) في موضع نصب، و(لا) زائدة، والمعنى: كراهة أن تتخذوا.

(٣) القراءات الشاذة ص٧٤ - ٧٥ .

(٤) زاد المسير ٥/ ٧ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٢٨ .

(٦) ينظر تهذيب اللغة ٩/ ٢١٣ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٧ ، والوسيط ٣/ ٩٧ .

على، أي: قضينا عليهم وحكمنا. وقاله ابن عباس أيضاً. والمعنِيُّ بالكتاب: اللوحُ المحفوظُ[١].

﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ وقرأ ابن عباس: «لَتُفْسَدُنَّ». عيسى الثَّقفي: «لَتَفْسُدُنَّ». والمعنى في القراءتين قريب؛ لأنَّهم إذا أُفسِدوا فسدوا[٢]. والمراد بالفساد: مخالفةُ أحكام التوراة[٣]. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريدُ أرضَ الشام وبيتَ المقدس وما والاها[٤]. ﴿مَّرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ﴾ اللام في «لتُفسِدُنَّ ولتَعْلُنَّ» لام قسمٍ مُضمَرٍ كما تقدَّم[٥]. ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أراد التكبرَ والبَغْيَ والطغيانَ والاستطالةَ والغَلبَةَ والعدوان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أُولَى المرَّتين من فسادهم[٦]. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: هم أهل بابل، وكان عليهم بُخْتَنَصَّر في المرة الأولى حين كذَّبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه. قاله ابن عباس وغيره[٧]. وقال قتادة: أرسلَ عليهم جالوتَ فقتلهم، فهو وقومُه أولو بأسٍ شديد[٨]. وقال مجاهد: جاءهم جندٌ من فارس يتجسَّسون أخبارهم ومعهم بُخْتَنَصَّر، فوَعَى حديثَهم من بين أصحابه، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهذا في المرة الأولى[٩]، فكان منهم جَوْسٌ

---

(١) زاد المسير ٥/ ٧ .

(٢) المحتسب ٢/ ١٤ . وهما قراءتان شاذتان.

(٣) الوسيط ٣/ ٩٧ ، وزاد المسير ٥/ ٧ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٠٦ .

(٥) ١٢/ ١١٦ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٢٩ .

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٤٧٢ - ٤٧٥ من رواية سعيد بن جبير.

(٨) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٤٧٢ .

(٩) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٧٦ .

خلال الديار لا قتل. ذكره القشيريُّ أبو نصر. وذكر المهدويُّ عن مجاهد أنه جاءهم بُخْتَنَصَّر فهزمه بنو إسرائيل، ثم جاءهم ثانيةً فقتلهم ودمَّرهم تدميراً. ورواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد. ذكره النحاس[١]. وقال محمد بن إسحاق في خبرٍ فيه طول: إنَّ المهزوم سَنْحَاريب ملك بابل، جاء ومعه ستُّ مئة ألف راية، تحت كلِّ رايةٍ مئة ألف فارس، فنزل حول بيت المقدس، فهزمه الله تعالى، وأماتَ جميعهم إلا سَنْحاريب وخمسةَ نفَرٍ من كُتَّابِه، وبعثَ ملكُ بني إسرائيل ـ واسمه صِدِّيقة ـ في طلب سَنْحاريب، فأُخِذ مع الخمسة، أحدُهم بُخْتَنَصَّر، فطرحَ في رقابهم الجوامع، وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيلياء، ويرزقهم كلَّ يومٍ خُبزتينِ من شعيرٍ لكلِّ رجلٍ منهم، ثم أطلقَهم، فرجعوا إلى بابل، ثم مات سَنْحاريب بعد سبع سنين، واستُخلِفَ بُخْتَنَصَّر، وعظُمتِ الأحداثُ في بني إسرائيل، واستَحلُّوا المحارمَ، وقتلوا نبيَّهم شَعْيَا، فجاءهم بُخْتَنَصَّر ودخل هو وجنوده بيت المقدس، وقتلَ بني إسرائيل حتى أفناهم[٢]. وقال ابن عباس وابن مسعود: أوَّل الفساد قتلُ زكريا[٣]. وقال ابن إسحاق: فسادُهم في المرة الأولى قتلُ شَعْيا نبيِّ الله في الشجرة؛ وذلك أنه لمَّا مات صِدِّيقة مَلِكُهم مَرِجَ أمرُهم وتنافسوا على المُلْك وقَتلَ بعضُهم بعضاً، وهم لا يسمعون من نبيِّهم؛ فقال الله تعالى له: قُمْ في قومِكَ أُوحِ على لسانك، فلمَّا فرغَ ممَّا أوحى الله إليه عَدَوْا عليه ليقتلوه، فهرب، فانفلقَتْ له شجرةٌ فدخلَ فيها، وأدركَه الشيطانُ، فأخذ هُدْبةً من ثوبه فأراهم إيَّاها، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها[٤]. وذكر ابن إسحاق أنَّ بعض العلماء أخبره أنَّ زكريا مات موتاً

(١) في معاني القرآن له ٤/ ١٢٢ .

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٩ - ٤٦٨ . والجوامع جمع جامعة: وهي الغُلُّ؛ لأنها تجمع اليدين إلى العنق. الصحاح (جمع).

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٤) هو تتمة رواية ابن إسحاق السابقة. مَرِجَ الأمر: اختلط. الصحاح (مرج).

ولم يُقتَلْ، وإنما المقتول شَعْيَا[١].

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ثم بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾: هو سَنْحاريبُ من أهل نِينَوَى بالمَوْصل ملكُ بابل. وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق، فالله أعلم. وقيل: إنهم العمالقة وكانوا كُفَّاراً. قاله الحسن[٢].

ومعنى جاسوا: عاثوا وقتلوا، وكذلك جاسوا وهاسوا وداسوا. قاله ابن عَزيز، وهو قول القُتَبِيِّ[٣]. وقرأ ابن عباس: «حاسوا» بالحاء المهملة[٤]. قال أبو زيد: الحَوْس والجَوْس والعَوْس والهَوْس: الطواف بالليل. وقال الجوهري[٥]: الجَوْسُ مصدرُ قولِكَ: جاسوا خلال الديار، أي: تخلَّلوها فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجلُ الأخبار، أي: يطلبها، وكذلك الاجتياس. والجَوَسان ـ بالتحريك ـ: الطَّوَفان بالليل. وهو قول أبي عبيدة[٦]. وقال الطبري[٧]: طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين. فجمع بين قولَي[٨] أهل اللغة. قال ابن عباس: مشَوا وتردَّدوا بين الدُّور والمساكن[٩]. وقال الفراء: قتلوكم بين بيوتكم[١٠]. وأُنشِدَ لحسَّان:

---

(١) أخرجه أيضاً الطبري ١٤/ ٤٦٩ .

(٢) زاد المسير ٥/ ٩ .

(٣) في غريب القرآن ص٢٥١ ، وعنده: أي: عاثوا بين الديار وأفسدوا، يقال: جاسوا وحاسوا، فهم يجوسون ويحوسون.

(٤) ذكر في المحتسب ٢/ ١٥ هذه القراءة لأبي السَّمَّال. وهي قراءة شاذة.

(٥) في الصحاح (جوس).

(٦) نقل الماوردي في النكت و العيون ٣/ ٢٣٠ عن أبي عبيدة أنه قال: معناه: فتَّشوا وطلبوا خلال الديار. وذهب الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٢٧ إلى مثل قول الجوهري.

(٧) في تفسيره ١٤/ ٤٧١ .

(٨) في (م) و(د): قول.

(٩) تفسير الطبري ١٤/ ٤٧٠ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٢٩ .

(١٠) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٦ .

ومنَّا الذي لاقى بسيفِ محمدٍ فجاسَ به الأعداءَ عَرْضَ العساكرِ

وقال قطرب: نزلوا؛ قال:

فجُسْنا ديارَهُمُ عَنوةً وأُبْنا بساداتهم مُوثَقينا[1]

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي: قضاءً كائناً لا خُلْفَ فيه[2].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الدَّولة والرجعة؛ وذلك لمَّا تُبتُم وأطعتُم[3]. ثم قيل: ذلك بقتل داودَ جالوتَ أو بقتل غيره، على الخلاف في من قتلهم[4]. ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ حتى عاد أمركم كما كان. ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي: أكثر عدداً ورجالاً من عدوِّكم[5]. والنَّفير: مَنْ ينفِرُ مع الرجل من عشيرته؛ يقال: نفير ونافر، مثل: قدير وقادر[6]. ويجوز أن يكون النَّفير جمع نَفْر كالكَليبِ والمَعيزِ والعَبيد[7]؛ قال الشاعر:

فأكْرِمْ بقحطانَ من والدٍ وحِمْيرَ أكرِمْ بقومٍ نَفيرا[8]

والمعنى: أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثرَ انضماماً وأصلحَ أحوالاً، جزاءً من الله تعالى لهم على عَوْدِهم إلى الطاعة.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٠٦ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٦ ، وزاد المسير ٥/ ١٠ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٠ ، وزاد المسير ٥/ ١٠ .

(٥) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٧٢ .

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥١ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٨ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٢٤ .

(٨) قائله تبع بن بكر الحميري كما في النكت والعيون ٣/ ٢٣٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٩ - ٤٤٠ .

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: نَفْعُ إحسانكم عائدٌ عليكم. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها[١]، نحو: سلامٌ لك، أي: سلامٌ عليك. قال:

* فخَرَّ صريعاً لليدين وللفمِ[٢] *

أي: على اليدين وعلى الفم. وقال الطبري[٣]: اللام بمعنى إلى، يعني: وإن أسأتُم فإليها، أي: فإليها ترجع الإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها. وقيل: فلها الجزاء والعقاب[٤]. وقال الحسين بن الفضل: فلها رَبٌّ يغفر الإساءة.

ثم يحتمل أن يكون هذا خطاباً لبني إسرائيل في أول الأمر؛ أي: أسأتُم فحلَّ بكم القتلُ والسَّبْيُ والتخريبُ، ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعُلُوّ وانتظامُ الحال. ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن محمدٍ ﷺ[٥]، أي: عرفتم استحقاقَ أسلافِكم للعقوبة على العصيان فارتقبوا مثله. أو يكون خطاباً لمشركي قريش على هذا الوجه.

---

(١) مجمع البيان ١٥/١٦ .

(٢) عجز لبيت، صدره: وهتكت بالرمح الطويل إهابه. ينظر أدب الكاتب لابن قتيبة ص٥١١ ، وعجز البيت اختُلف على صدره اختلافاً كبيراً، وكذلك اختُلف على قائله، فيقال: هو لجابر بن حُني كما في المفضليات ص٢١٢ ، ويقال: للمقشعر بن جديع النصري كما في الحماسة البصرية ١/٦٩ ، ويقال: لربيعة بن مُكدَّم كما في زهر الأكم ١/١٠٤ ، ويقال: لعصام بن مقشعر البصري، أو لشداد بن معاوية العبسي، أو لكعب بن مدلج الأسدي، أو للأشتر النخعي كما في معجم الشعراء ص١١٤ ، ويقال: لكعب بن حدير كما في شرح أدب الكاتب للجواليقي ص٣٥٩ ، ويقال: للمكعبر الأسدي، أو للمكعبر الضبي، أو لشريح بن أوفى، أو للأشعث بن قيس كما في الاقتضاب ص٤٣٩ ، ويقال غير ذلك.

(٣) في تفسيره ١٤/٤٧٨ .

(٤) تفسير البغوي ٣/١٠٦ .

(٥) مجمع البيان ١٥/١٦ .

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ من إفسادكم، وذلك أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام، قتله مَلِكٌ من بني إسرائيل يقال له لاخت. قاله القُتَبِيُّ. وقال الطبري: اسمه هيردوس. ذكره في التاريخ[١]، حمله على قتله امرأةٌ اسمُها أزبيل[٢]. وقال السُّدِّي: كان ملكُ بني إسرائيل يُكرِمُ يحيى بن زكريا ويستشيره في الأمر، فاستشاره الملكُ أن يتزوَّجَ بنت امرأةٍ له، فنهاه عنها وقال: إنها لا تحِلُّ لك، فحقدت أمُّها على يحيى عليه السلام، ثم ألبَستِ ابنتَها ثياباً حُمراً رقاقاً، وطيَّبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرابه، وأمرَتْها أن تتعرَّضَ له، وإن أرادها أبَتْ حتى يُعطيَها ما تسألهُ، فإذا أجاب سألتْ أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طَسْتٍ من ذهب، ففعلت ذلك، حتى أُتي برأس يحيى بن زكريا والرأسُ يتكلَّم، حتى وُضِعَ بين يديه وهو يقول: لا تحِلُّ لك، لا تحِلُّ لك، فلمَّا أصبح إذْ دَمُه يَغْلي، فألقى عليه الترابَ فغلى فوقه، فلم يزل يلقي عليه التراب حتى بلغَ سُوْرَ المدينة وهو في ذلك يَغْلي. ذكره الثعلبي وغيره[٣]. وذكر ابن عساكر الحافظ في «تاريخه» عن الحسين بن عليّ قال: كان ملكٌ من هذه الملوك ماتَ وتركَ امرأتَه وابنتَه، فورِث مُلْكَه أخوه، فأراد أن يتزوَّجَ امرأةَ أخيه، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك ـ وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء ـ فقال له: لا تتزوَّجْها فإنها بَغِيٌّ، فعَرفَتْ ذلك المرأةُ أنه قد ذكرها وصرَفَه عنها، فقالت: من أين هذا؟ حتى بلغها أنه من قِبَلِ يحيى، فقالت: لَيُقتلَنَّ يحيى أو لَيُخرَجَنَّ من ملكه، فعمَدت إلى ابنتها وصنَّعتها، ثم قالت: اذهبي إلى عمِّكِ عند الملأ فإنه إذا رآكِ سيدعوكِ ويُجلِسُكِ في حَجْرِه، ويقول: سليني ما شئتِ، فإنك لن تسأليني شيئاً إلا أعطيتُكِ، فإذا قال لكِ ذلك فقولي: لا أسألُ إلا رأسَ يحيى. قال: وكانت الملوك إذا تكلَّمَ أحدُهم بشيءٍ على رؤوس الملأ ثم لم يُمْضِ له

(١) ١/ ٥٩٠ ، وفي (م) و(د): هردوس، والمثبت من تاريخ الطبري، ومن باقي النسخ الخطية.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٦ .
(٣) الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٨٢ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٤٨٠ - ٤٨١ .

نُزِعَ من ملكه، ففعلت ذلك. قال: فجعل يأتيه الموتُ من قتله يحيى، وجعل يأتيه الموتُ من خروجه من ملكه، فاختار ملكَه فقتله. قال: فساخَتْ بأمِّها الأرضُ. قال ابن جُدْعان: فحدَّثتُ بهذا الحديث ابنَ المُسيِّبِ فقال: أفما أخبرَكَ كيف كان قَتْلُ زكريا؟ قلت: لا. قال: إنَّ زكريا حيث قُتِلَ ابنُه انطلقَ هارباً منهم، واتَّبعوه حتى أتى على شجرةٍ ذاتِ ساقٍ، فدَعَتْه إليها، فانطوَتْ عليه، وبقيَتْ من ثوبه هُدْبةٌ تكفَّتها الرياح، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثرَه بعدها، ونظروا بتلك الهُدْبة، فدَعَوا بالمِنشار، فقطعوا الشجرة فقطعوه معها[١].

قلت: وقع في «التاريخ الكبير» للطبري[٢]: فحدثني أبو السائب قال: حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المِنْهال، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: بعَثَ عيسى ابنُ مريم يحيى بنَ زكريا في اثني عشر من الحواريِّين يُعلِّمون الناس. قال: كان فيما نَهَوْهم عنه نكاحُ ابنةِ الأخ. قال: وكان لملِكهم ابنةُ أخٍ تُعجبه... وذكر الخبر بمعناه.

وعن ابن عباس قال: بُعِثَ يحيى بنُ زكريا في اثني عشر من الحواريِّين يُعلِّمون الناس، وكان فيما يُعلِّمونهم ينهونهم عن نكاح بنتِ الأخت، وكان لملِكِهم بنتُ أُختٍ تعجبه، وكان يريد أن يتزوَّجها، وكان لها كلَّ يوم حاجةٌ يقضيها، فلما بلغ ذلك أمَّها أنهم نهَوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها: إذا دخلتِ على الملكِ فقال: أَلكِ حاجةٌ؟ فقولي: حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا، فقال: سليني سوى هذا. قالت: ما أسألُكَ إلا هذا. فلمَّا أبَتْ عليه دعا بِطَسْتٍ ودعا به فذبحه، فندَرت قطرةٌ من دمِه على وجه الأرض، فلم تزل تَغْلي حتى بعثَ اللهُ عليهم بُخْتَنصَّر، فأُلقيَ في نفسه أن يَقتُلَ على ذلك الدَّم منهم حتى يسكن ذلك الدم، فقَتل عليه منهم سبعين ألفاً، وفي رواية: خمسةً وسبعين ألفاً[٣]. قال سعيد بن المُسيِّب: هي دِيَةُ كل نبيٍّ[٤]. وعن ابن عباس

---

(١) تاريخ دمشق ٦٤/٢٠٦، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ٣/١٦٢ - ١٦٤.

(٢) ١/٥٨٦.

(٣) أخرجه ابن عساكر ٦٤/٢٠٧، وهو من نفس الطريق الذي رواه الطبري.

(٤) أخرجه ابن عساكر ٦٤/٢١٠، وفيه: سعيد بن عبد العزيز بدل ابن المسيب.

قال: أوحى اللهُ إلى محمدٍ ﷺ أني قتلتُ بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتلٌ بابنِ ابنَتِكَ سبعين ألفاً وسبعين ألفاً[١]. وعن شِمْر بن عطية قال: قُتِلَ على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا[٢]. وعن زيد بن واقد[٣] قال: رأيتُ رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أُخرِجَ من تحت ركنٍ من أركان القُبَّةِ التي تَلي المحراب مما يلي الشرق، فكانتِ البشرةُ والشعرُ على حاله لم يتغيَّر[٤]. وعن قُرَّة بن خالد[٥] قال: ما بكتِ السماءُ على أحدٍ إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن عليّ؛ وحُمرتُها بكاؤها[٦]. وعن سفيان بن عُيَيْنة قال: أوحَشُ ما يكونُ ابنُ آدمَ في ثلاثة مواطن: يومَ وُلِدَ فيخرجُ إلى دارِ هَمٍّ، وليلةَ يبيتُ مع الموتى فيُجاورُ جيراناً لم يَرَ مثلَهم، ويومَ يُبعَثُ فيَشْهدُ مشهَداً لم يَرَ مثلَه؛ قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة المواطن: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[٧] [مريم: ١٥]. كلُّه من التاريخ المذكور.

واختُلِفَ فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة، فقيل: بُخْتَنصَّر. وقاله القشيري أبو نصر، لم يذكر غيره[٨].

قال السُّهَيْليُّ: وهذا لا يصح؛ لأنَّ قَتْلَ يحيى كان بعدَ رَفْعِ عيسى، وبُختَنصَّر كان قبل عيسى ابن مريم عليهما السلام بزمانٍ طويل، وقبل الإسكندر، وبين الإسكندر

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٢٩٠ و ٥٩٢ و ٣/ ١٧٨ ، والخطيب في تاريخه ١/ ١٤٢ ، وابن عساكر ٤/ ٢٢٥ و ٦٤/ ٢١٦ ، وابن الجوزي في المنتظم ٥/ ٣٤٦ .

(٢) أخرجه ابن عساكر ٦٤/ ٢١٧ ، وتحرف اسم شمر في جميع النسخ إلى سمير.

(٣) أبو عمر ـ ويقال: أبو عمرو ـ القرشي مولاهم، الدمشقي الفقيه. توفي سنة (١٣٨هـ). السير ٦/ ٢٩٦ .

(٤) أخرجه ابن عساكر ٢/ ٢٤١ و ٦٤/ ٢١٨ .

(٥) الحافظ، أبو خالد، ويقال: أبو محمد السدوسي البصري. توفي سنة (١٥٤هـ). السير ٧/ ٩٥ .

(٦) أخرجه ابن عساكر ٦٤/ ٢١٧ .

(٧) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٥٩٨)، وابن عساكر ٦٤/ ١٧٤ .

(٨) ونقله في النكت والعيون ٣/ ٢٣٠ ، وفي زاد المسير ٥/ ١١ عن مجاهد.

وعيسى نحوٌ من ثلاث مئة سنة، ولكنه أُريدَ بالمرة الأخرى حين قتلوا شَعْيا، فقد كان بُختَنصَّر إذ ذاكَ حيًّا، فهو الذي قتلهم وخرَّبَ بيتَ المقدس، وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها[١].

وقال الثعلبي[٢]: ومن روى أنَّ بُختَنصَّر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلَطٌ عند أهل السِّيَرِ والأخبار؛ لأنَّهم مُجمعون على أن بُختَنصَّر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شَعْيا وفي عهد إرْمِياء. قالوا: ومن عهد إرْمِياء وتخريبِ بُختَنصَّر بيتَ المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا عليهما السلام أربعُ مئة سنة وإحدى وستون سنة، وذلك أنهم يعدُّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك[٣] سبعين سنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانيةً وثمانين سنة، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلاثَ مئةٍ وثلاثاً وستين سنة[٤].

قلت: ذكر جميعَه الطبري في التاريخ[٥] رحمه الله. قال الثعلبي[٦]: والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال: لمَّا رفعَ اللهُ عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى ـ وبعض الناس يقول: لمَّا قتلوا زكريا ـ بعثَ اللهُ إليهم ملكاً من ملوك بابل يُقال له: خردوس، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشام، ثم قال لرئيس جنوده: كنتُ حلفتُ بإلهي لَئِنْ أظهرني اللهُ على بيت المقدس لأقتلنَّهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، وأمرَ أن يقتلَهم حتى يبلُغَ ذلك منهم، فدخل الرئيسُ بيتَ المقدس فوجد

---

(١) زاد المسير ٥/ ١١ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٥٨ .

(٢) في عرائس المجالس ص٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٣) في مطبوع العرائس: كربن.

(٤) في مطبوع العرائس: ثلاث مئة وثلاثون سنة.

(٥) ١/ ٥٧١ - ٥٧٩ .

(٦) ص٣٤٤ .

فيها دماءً تَغْلي، فسألهم فقالوا: دَمُ قُربانٍ قرَّبناه فلم يُتقبَّلْ مِنَّا منذ ثمانين[١] سنة. قال: ما صَدَقتموني. فذبَحَ على ذلك الدم سبعَ مئةٍ وسبعين رجلاً من رؤسائهم فلم يهدأ، فأمر[٢] بسبعة آلاف من سَبْيِهم[٣] وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يَبْرُد، فقال: يا بني إسرائيل، أُصدُقوني قبل ألا أترك منكم نافخَ نارٍ من أنثى ولا من ذكرٍ إلا قتلتُه. فلمَّا رأوا الجَهد قالوا: إنَّ هذا دمُ نبيٍّ منَّا كان ينهانا عن أمورٍ كثيرةٍ مِن سَخَط الله فقتلناه، فهذا دمه، كان اسمه يحيى بن زكريا، ما عصى اللهَ قطُّ طرفة عينٍ ولا هَمَّ بمعصية. فقال: الآن صدَقتُموني. وخرَّ ساجداً، ثم قال: لمِثْلِ هذا يُنتقَم منكم. وأمر بغلق الأبواب وقال: أخْرِجوا من كان هاهنا من جيش خردوس. وخلا في بني إسرائيل وقال: يا نبيَّ الله، يا يحيى بن زكريا، قد عَلِمَ ربي وربُّكَ ما قد أصاب قومَك من أجلك، فاهدأ بإذن الله قبل ألا أُبقي منهم أحداً. فهدأ دمُ يحيى بن زكريا بإذن الله عزَّ وجلَّ، ورفع عنهم القتل وقال: ربِّ، إني آمنتُ بما آمن به بنو إسرائيل وصدَّقتُ به. فأوحى الله تعالى إلى رأسٍ من رؤوس الأنبياء: إنَّ هذا الرئيس مؤمنٌ صدوق. ثم قال: إنَّ عدوَّ الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لا أعصيه، فأمرهم فحفروا خَنْدَقاً وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قُتِلوا قبل ذلك فطُرِحوا على ما قُتِلَ من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يُفني بني إسرائيل.

قلت: قد ورد في هذا الباب حديث مرفوع فيه طولٌ من حديث حُذيفة، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة»[٤] مقطَّعاً في أبوابٍ في أخبار المَهْدِيِّ، نذكر منها هنا ما

(١) في مطبوع العرائس: ثمان مئة.

(٢) قبلها في (م): «فأتى بسبع مئة غلام من غلمانهم فذُبحوا فلم يهدأ».

(٣) في مطبوع العرائس: بنيهم.

(٤) ص٦٢٠ - ٦٢١.

يُبيِّن معنى الآية ويُفسِّرها حتى لا يحتاج معه إلى بيان، قال حذيفة: قلتُ: يا رسول الله، لقد كان بيتُ المقدس عند الله عظيماً جسيمَ الخطرِ عظيمَ القدر. فقال رسول الله ﷺ: «هو من أجَلِّ البيوت، ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهبٍ وفضَّةٍ ودُرٍّ وياقوتٍ وزُمرُّدٍ» وذلك أنَّ سليمان بن داود لمَّا بناه سَخَّرَ اللهُ له الجِنَّ فأتَوه بالذهب والفضَّة من المعادن، وأتوه بالجواهر والياقوت والزُّمرُّد، وسخَّرَ اللهُ تعالى له الجِنَّ حتى بنَوه من هذه الأصناف. قال حذيفة: فقلتُ: يا رسول الله، وكيفَ أُخِذَتْ هذه الأشياءُ من بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ بني إسرائيل لمَّا عصَوا اللهَ وقتلوا الأنبياء سلَّطَ اللهُ عليهم بُختَنصَّر وهو من المجوس، وكان ملكُه سبع مئة سنة، وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ فدخلوا بيت المقدس، وقتلوا الرجال وسَبوا النساءَ والأطفالَ، وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف، فاحتملوها على سبعين ألفاً ومئة ألف عجَلَة حتى أودعوها أرض بابل، فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالخزي والعقاب والنكال مئة عام، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ رحِمَهم، فأوحى إلى ملكٍ من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس في أرض بابل، وأن يستنقِذَ مَنْ في أيديهم من بني إسرائيل، فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل، فاستنقذ مَنْ بقي من بني إسرائيل من أيدي المجوس، واستُنقِذَ ذلك الحُليُّ الذي كان من بيت المقدس، وردَّه الله إليه كما كان أول مرة، وقال لهم: يا بني إسرائيل إن عُدتُم إلى المعاصي عُدْنا عليكم بالسَّبْي والقتل، وهو قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي، فسلَّط الله عليهم ملك الروم قَيْصر، وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ فغزاهم في البرِّ والبحر، فسباهم وقتلهم، وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذَ حُليَّ جميعِ بيت المقدس، واحتمله على سبعين ألفاً ومئة ألف عَجلة حتى أودعه في كنيسة الذهب - فهو فيها

الآن ـ حتى يأخذه المهدِيُّ فيردّه إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينة وسبع مئة سفينة يُرْسَى بها على يافا، حتى تُنقل إلى بيت المقدس. وبها يجمع اللهُ الأوّلين والآخرين...» وذكر الحديث[١].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: من المرَّتين[٢]، وجواب «إذا» محذوف، تقديره: بعثناهم، دلَّ عليه «بعثنا» الأوَّل. ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: بالسَّبْي والقتل فيظهر أثر الحزن في وجوهكم؛ فـ «ليسوؤوا» متعلِّقٌ بمحذوف، أي: بعثنا عباداً ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم[٣]. قيل: المراد بالوجوه السادة، أي: ليُذِلُّوهم[٤]. وقرأ الكسائي: «لنسوءَ» بنون وفتح الهمزة، فعلُ مُخبرٍ عن نفسه مُعظِّم؛ اعتباراً بقوله: «وقضينا» و«بعثنا» و«رددنا» ونحوه عن عليٍّ. وتصديقها قراءة أُبيٍّ: «لَنَسوءنْ» بالنون وحرف التوكيد[٥]. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وَثَّاب وحمزة وابن عامر: «ليسوءَ» بالياء على التوحيد وفتح الهمزة[٦]، ولها وجهان: أحدهما: ليسوء اللهُ

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٤٥٧ - ٤٥٩ عن عصام بن رواد، عن أبيه رواد بن الجراح، عن سفيان الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة. عصام بن رواد ليَّنه أبو أحمد الحاكم فيما ذكره الذهبي في الميزان ٣/ ٦٦ . ورواد بن الجراح قال فيه ابن حجر في التقريب: اختلط بأخرة فتُرك، وفي حديثه عن الثوري ضعف شديد. وقال ابن كثير متعقِّباً الطبري: هو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته، وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٠ .

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ٩٧ - ٩٨ .

(٤) ينظر مجمع البيان ١٤/ ١٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٠ ، وينظر الوسيط ٣/ ٩٨ ، وقراءة الكسائي في السبعة ص٣٧٨ ، والتيسير ص١٣٩ ، وأما قراءة أُبي فقد ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٥ ، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٥ : «لنسوءاً» بالتنوين. وقال النحاس في المعاني ٤/ ١٢٥ : بالنون الخفيفة واللام المفتوحة والوقف عليه مثل: «لنسفعاً».

(٦) النشر ٢/ ٣٠٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٠ .

وجوهَكم. والثاني: ليسوءَ الوعدُ وجوهَكم[١]. وقرأ الباقون: «ليسوؤوا» بالياء وضمِّ الهمزة على الجمع، أي: ليسوء العبادُ الذين هم أولو بأسٍ شديدٍ وجوهَكم[٢].

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي: ليُدمِّروا ويُهلكوا. وقال قُطْرُب: يهدموا؛ قال الشاعر:

فما الناسُ إلا عاملانِ فعاملٌ ... يُتَبِّرُ ما يَبْني وآخرُ رافِعُ[٣]

﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: غلبوا عليه من بلادكم ﴿تَتْبِيرًا﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ﴾ وهذا مما أخبروا به في كتابهم. و«عسى» وعدٌ من الله أن يكشف عنهم، و«عسى» من الله واجبة. ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ﴾ بعد انتقامه منكم، وكذلك كان؛ فكثَّر عددَهم وجعل منهم الملوك. ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ قال قتادة: فعادوا، فبعثَ الله عليهم محمداً ﷺ، فهم يُعطون الجزية بالصَّغار. ورُوي عن ابن عباس[٥]. وهذا خلاف ما تقدَّم في الحديث وغيره. وقال القُشَيْرِيُّ: وقد حلَّ العقاب ببني إسرائيل مرتين على أيدي الكفار، ومرةً على أيدي المسلمين. وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم، وعلى هذا يصِحُّ قولُ قتادة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٦ - ١١٧ وعنده في الوجه الثاني: ليسوء العذابُ وجوهَكم. والوسيط ٣/ ٩٨، وزاد المسير ٥/ ١١، وعندهما: ليسوء البعثُ وجوهكم.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٤٧٨ - ٤٧٩، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٦، وينظر السبعة ص٣٧٨، والتيسير ص١٣٩.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٣١، والبيت قائله لبيد، وهو في ديوانه ص٨٩.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٥٠٤، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٧.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٣١، والوسيط ٣/ ٩٨، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٧، ومجمع البيان ١٤/ ١٨، وزاد المسير ٥/ ١١ - ١٢. وقول ابن عباس مختصر، أخرجه الطبري ١٤/ ٥٠٦، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٣، وفي مصنفه (٩٨٨٢)، والطبري ١٤/ ٥٠٦.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: محْبِساً وسِجْناً، من الحَصْر وهو الحبس[١].

قال الجوهري: يُقال: حصرَه يحصرُه حصراً: ضيَّقَ عليه وأحاط به. والحصير: الضيِّقُ البخيل. والحصير: البارِيَّة. والحصير: الجَنْب، قال الأصْمَعِيُّ: هو ما بين العِرْقِ الذي يظهر في جنب البعير والفرس معترِضاً فما فوقه إلى مُنقَطَعِ الجَنْب. والحصير: المِلك؛ لأنه محجوب. قال لبيد:

وقَماقِمٍ غُلْبِ الرِّقابِ كأنَّهمْ جِنٌّ لدى بابِ الحصيرِ قيامُ

ويُروى:

* ومَقامةٍ غُلْبِ الرقاب[٢] ... ... *

على أن يكون «غُلْب» بدلاً من «مَقامة» كأنه قال: ورُبَّ غُلْبِ الرقاب. وروى غير[٣] أبي عُبيدة:

* ... لدى طرَفِ الحصيرِ قيامُ *

أي: عند طرف البساط للنعمان بن المنذر. والحصير: المَحْبِس؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[٤]. قال القُشَيْرِيُّ: ويقال للذي يُفترش: حصير؛ لحَصْرِ بعضِه على بعضٍ بالنسج. وقال الحسن: أي: فراشاً ومهاداً[٥]. ذهب إلى الحصير الذي يُفرش؛ لأنَّ العربَ تُسمِّي البساطَ الصغير حصيراً[٦]. قال الثعلبي: وهو وجهٌ حسن[٧].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/٢٢٨، وتفسير أبي الليث ٢/٢٦١، والنكت والعيون ٣/٢٣١، والوسيط ٣/٩٨، والمحرر الوجيز ٣/٤٤٠، وزاد المسير ٥/١٢، وهو قول ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم، وأخرجه عنهم الطبري ١٤/٥٠٧ - ٥٠٨.

(٢) وهكذا في ديوانه ص١٦١.

(٣) في (م) و(د) و(ز): عن.

(٤) الصحاح (حصر)، ومن قوله: «الحصير: الملك» إلى نهاية البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٧١.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/٣٧٤، والطبري ١٤/٥٠٨.

(٦) تفسير الطبري ١٤/٥٠٩.

(٧) وكذا قال الطبري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ لمَّا ذكر المِعراجَ ذكر ما قضى إلى بني إسرائيل، وكان ذلك دِلالةً على نبوَّة محمدٍ ﷺ، ثم بيَّن أنَّ الكتاب الذي أنزله الله عليه سبب اهتداء. ومعنى ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: الطريقة التي هي أسدُّ وأعدلُ وأصوب، فـ «التي» نعتٌ لموصوفٍ محذوف، أي: الطريقة إلى نصِّ أقوم[١]. وقال الزجاج[٢]: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله، والإيمان برسله. وقاله الكلبي والفرَّاء[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تقدَّم[٤]. ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: الجنة. ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ويبشِّرهم بأنَّ لأعدائهم العقاب. والقرآن مُعظَمُه وعدٌ ووعيد. وقرأ حمزة والكسائيُّ: «ويَبْشُر» مخفَّفاً بفتح الياء وضمِّ الشين، وقد ذُكر[٥].

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو دعاءُ الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يُحِبُّ أن يُستجابَ له: اللَّهُمَّ أهلِكْه، ونحوه. ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ﴾ أي: كدعائه ربَّه أن يَهَبَ له العافية، فلو استجابَ اللهُ دعاءَه على نفسه بالشرِّ هلكَ، لكن بفضله لا يستجيبُ له في ذلك[٦]. نظيره: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ١٦١.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٧، ونقله في النكت والعيون ٣/ ٢٣٢ عن الكلبي.

(٤) ١/ ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٥) ٥/ ١١٣.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥١٢.

﴿ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ وقد تقدّم[١].

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول: «اللهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم»[٢]. وقيل: هو أن يدعو في طلب المحظور كما يدعو في طلب المباح[٣]، قال الشاعر وهو ابن جامع:

أطوفُ بالبيتِ فيمَنْ يطوفُ ... وأرفَعُ من مِئْزَرِي الْمُسْبَلِ
وأسجدُ بالليلِ حتى الصباحِ ... وأَتْلُو من الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ
عسى فارجُ الْهَمِّ عن يوسفٍ ... يُسَخِّرُ لي رَبَّةَ المَحْمِلِ[٤]

قال الجوهري[٥]: يُقال: ما على فلانٍ مَحْمِلٌ، مثالُ مجلس، أي: مُعتمَد. والمَحْمِل أيضاً: واحدُ محامِلِ الحاجِّ. والمِحْمَلُ مثال المِرْجَل: عِلاقة السيف.

وحُذفَتِ الواو من «ويَدْعُ الإنسان» في اللفظ والخطِّ ولم تحذف في المعنى؛ لأنَّ موضعها رَفْعٌ، فحُذِفَتْ لاستقبالها اللام الساكنة، كقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦]، ﴿يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١]، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[٦] [القمر: ٥].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي: طبعُه العَجَلة[٧]، فيَعْجَل بسؤال الشرِّ كما يعجَلُ بسؤال الخير[٨]. وقيل: أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تُركَّبَ فيه الروح على

(١) ١٠/ ٤٦١ .

(٢) نقله في زاد المسير ٥/ ١٣ عن مقاتل.

(٣) مجمع البيان ١٥/ ٢٠ .

(٤) الأبيات في عيون الأخبار ٤/ ٩١ - ٩٢ ، والعقد الفريد ٦/ ٩ - ١٠ .

(٥) في الصحاح (حمل).

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٧ - ١١٨ ، وليس عنده آية الشورى.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤ .

(٨) الوسيط ٣/ ٩٩ .

الكمال[١]. قال سلمان: أوَّلُ ما خلقَ اللهُ تعالى من آدم رأسَه، فجعلَ ينظر وهو يُخلَقُ جسدُه، فلما كان عند العصر بقيت رِجلاه لم يُنفَخْ فيهما الرُّوحُ، فقال: يا ربِّ عَجِّلْ قبل الليل؛ فذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[٢]. وقال ابن عباس: لما انتهتِ النفخةُ إلى سُرَّتِه نظر إلى جسده، فذهبَ لينهضَ فلم يقْدِر، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[٣]. وقال ابن مسعود: لمَّا دخل الرُّوحُ في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلمَّا دخلَ في جوفِه اشتهى الطعام، فوثَبَ قبل أن يبلغَ الرُّوحُ رجليه عَجْلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ذكره البيهقي[٤]. وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لمَّا صوَّرَ اللهُ تعالى آدمَ في الجنة تركَه ما شاء الله أن يترُكَه، فجعلَ إبليسُ يُطيفُ به ينظرُ ما هو، فلما رآه أجوَفَ عرَفَ أنه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك» وقد تقدّم[٥]. وقيل: سلَّمَ عليه الصلاة والسلام أسيراً إلى سَوْدة، فباتَ يئِنُّ، فسألَتْه فقال: أنيني لِشدَّة القِدِّ والأسر. فأرخَتْ من كتافه، فلما نامت هرب، فأخبرتِ النبيَّ ﷺ، فقال: «قطعَ اللهُ يدَيكِ» فلما أصبحت كانت تتوقَّع الآفة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني سألتُ اللهَ تعالى أن يجعلَ دعائي على من لا يستحِقُّ من أهلي رحمةً؛ لأني بشرٌ أغضَبُ كما يغضَبُ البشر» ونزلت الآية. ذكره القشيري أبو نصر رحمه الله[٦]. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إنَّما محمدٌ بشرٌ يغضَبُ كما يغضَبُ البشرُ، وإني قدِ اتَّخذْتُ عندكَ عهداً لن تُخْلِفَنِيه، فأيُّما مؤمنٍ آذيتُه أو سببتُه أو جلدتُه فاجعَلْها

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٣٣ ، ومجمع البيان ١٥/ ٢١ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ١١٠ - ١١١ ، والطبري ١٤/ ٥١٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥١٤ .

(٤) في الأسماء والصفات (٧٧٣)، وقد تقدم مطولاً ١/ ٤١٧ - ٤١٩ .

(٥) صحيح مسلم (٢٦١١)، وسلف ١٢/ ٢٠٧ .

(٦) وذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٢٩ ، والرازي في تفسيره ٢٠/ ١٦٢ ، وفي رواية أن المستودعة هي عائشة رضي الله عنها كما في المسند (٢٤٢٥٩) ومسند إسحاق بن راهويه (١١٢٥)، وسنن البيهقي ٩/ ٨٩ ، وفي رواية أخرى أنها حفصة كما في المسند (١٢٤٣١)، والأحاديث المختارة (١٦٢٠).

له كفارةً وقُرْبةً تُقرِّبُه بها إليك يوم القيامة»[١]. وفي الباب عن عائشة وجابر[٢].

وقيل: معنى ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي: يؤثر العاجل وإن قَلَّ، على الآجِلِ وإن جَلَّ[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أي: علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا، والآية فيهما: إقبالُ كلِّ واحدٍ منهما من حيثُ لا يعلمُ، وإدبارُه إلى حيث لا يعلم، ونقصانُ أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آيةٌ أيضاً، وكذلك ضوءُ النهار وظلمةُ الليل. وقد مضى هذا[٤].

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ ولم يقل: فمحونا الليل، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دلَّ على أنَّ الآيتين المذكورتين لهما لاهما[٥]. و«مَحَوْنَا» معناه: طمسنا[٦]. وفي الخبر: أنَّ اللهَ تعالى أمرَ جبريل عليه السلام فأَمَرَّ جناحَه على وجه القمر فطمس عنه الضوء، وكان كالشمس في النور، والسوادُ الذي يُرى في القمر من أثر المحو. قال ابن عباس: جعلَ الله الشمس سبعين جزءاً والقمر سبعين جزءاً، فمحا من نور القمر تسعةً وستين جزءاً، فجعله مع نور الشمس، فالشمس على مئةٍ وتسعٍ[٧] وثلاثين جزءاً والقمرُ على جزءٍ واحد. وعنه أيضاً: خلقَ اللهُ شمسين من نور عرشه، فجعل ما سبق

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٠١)، وأخرجه أحمد (٧٣١١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤١٧٩)، ومسلم (٢٦٠٠) عن عائشة، وأحمد (١٤٧٥٠)، ومسلم (٢٦٠٢) عن جابر.

(٣) ينظر تفسير الرازي ٢٠/ ١٦٢ .

(٤) ٢/ ٤٩٠ - ٤٩٤ .

(٥) ينظر الكشاف ٢/ ٤٤٠ .

(٦) الوسيط ٣/ ٩٨ .

(٧) كلمة (وتسع» ليست في النسخ، وأثبتت من المصادر؛ إذ لا يستقيم المعنى إلا بإثباتها.

في علمه أن يكون شمساً مثل الدنيا على قَدْرِها ما بين مشارقها إلى مغاربها، وجعل القمرَ دون الشمس، فأرسل جبريلَ عليه السلام فأمَرَّ جناحَه على وجهه ثلاث مرات ـ وهو يومئذٍ شمسٌ ـ فطُمِسَ ضوؤُه وبقي نورُه؛ فالسواد الذي ترونه في القمر أثرُ المحو، ولو تركه شمساً لم يُعْرفِ الليلُ من النهار. ذكر عنه الأوّل الثعلبيُّ[١] والثاني المَهدَويّ، وسيأتي مرفوعاً. وقال عليٌّ ﷺ وقتادة: يريد بالمحو اللطخةَ السوداءَ التي في القمر؛ ليكون ضوءُ القمر أقلَّ من ضوء الشمس، فيتميزَ به الليل من النهار[٢].

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: جعلنا شمسَه مضيئةً للأبصار[٣]. قال أبو عمرو ابن العَلاء: أي: يُبْصَرُ بها[٤]. قال الكسائيّ: وهو من قول العرب: أبصرَ النهارَ إذا أضاء، وصار بحالةٍ يُبْصَرُ بها، وقيل: هو كقولهم خبيثٌ مُخْبِثٌ إذا كان أصحابُه خُبَثاء. ورجلٌ مُضْعِفٌ إذا كانت دوابُّه ضِعافاً؛ فكذلك النهار مُبْصِراً إذا كان أهله بُصَراء[٥].

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد التصرُّف في المعاش. ولم يذكُرِ السكونَ في الليل اكتفاءً بما ذكر في النهار. وقد قال في موضعٍ آخر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: لو لم يفعل ذلك لما عُرِفَ الليلُ من النهار، ولا كان يُعرَفُ الحساب والعدد[٦].

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي: من أحكام التكليف؛ وهو كقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ

---

(١) وذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٠٧ ، وذكره أيضاً السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٦٧ لكن نسبه إلى عكرمة.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٣٢ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٥١٥ من قول علي ﷺ.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٣٢ .

(٤) وهو قول ابن قتيبة في الغريب ص٢٥٢ ، وتأويل المشكل ص٢٢٨ .

(٥) وهو قول أبي عبيدة كما ذكر الرازي في تفسيره ٢٠/ ١٦٥ - ١٦٦ .

(٦) الوسيط ٣/ ٩٩ ، وزاد المسير ٥/ ١٤ .

شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وعن ابن عباس أنَّ النبيّ ﷺ قال: «لما أبرمَ اللهُ خلقَه فلم يبقَ من خلقه غيرُ آدم خلق شمساً من نور عرشه وقمراً، فكانا جميعاً شمسَين، فأما ما كان في سابق علم الله أن يَدَعها شمساً فخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها، وأما ما كان في علم الله أن يخلقَها قمراً فخلقها دون الشمس في العِظَم، ولكن إنما يُرى صِغَرُهما من شدة ارتفاع السماء وبُعدِها من الأرض، فلو تركَ اللهُ الشمسَ والقمرَ كما خلقهما لم يُعرَفِ الليلُ من النهار، ولا كان الأجير يدري إلى متى يعمل، ولا الصائمُ إلى متى يصوم، ولا المرأةُ كيف تَعْتَدُّ، ولا تُدْرَى أوقاتُ الصلوات والحج ولا تحِلُّ الديون، ولا حين يبذرون ويزرعون، ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم، وكأنَّ اللهَ نظرَ إلى عباده ـ وهو أرحم بهم من أنفسهم ـ فأرسل جبريلَ فأمَرَّ جناحَه على وجه القمر ثلاثَ مراتٍ ـ وهو يومئذٍ شمسٌ ـ فطمسَ عنه الضوء، وبقي فيه النور، فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ الآية[1].

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال الزَّجَّاج[2]: ذِكرُ العُنقِ عبارةٌ عن اللزوم كلزوم القِلادة للعنق.

وقال ابن عباس: «طائره»: عمله وما قُدِّر عليه من خيرٍ وشر، وهو ملازمه أينما كان[3]. وقال مقاتل والكلبي: خيرُه وشرُّه معه لا يفارقه حتى يُحاسَبَ به[4]. وقال

(١) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٦٥ - ٦٦ ، وفي إسناده أبو نعيم عمر بن صبح، وهو متروك، وقد اتُّهم بالوضع. الميزان ٣/ ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٠ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥١٩ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٠٨ .

مجاهد: عمله ورزقه[١]. وعنه: ما من مولودٍ يولد إلا وفي عُنقه ورقةٌ فيها مكتوب: شَقِيٌّ أو سعيد[٢]. وقال الحسن: «ألزمناه طائره» أي: شقاوته وسعادته، وما كُتِبَ له من خيرٍ وشرٍّ وما طار له من التقدير[٣]، أي: صار له عند القسمة في الأزل. وقيل: أراد به التكليف، أي: قدرناه إلزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمِر به وينزجر عما زُجر به أمكنه ذلك.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ يعني: كتابَ طائرِه الذي في عنقه[٤]. وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد: «طيره» بغير ألف[٥]؛ ومنه ما روى في الخبر: «اللَّهُمَّ لا خيرَ إلا خيرُكَ، ولا طَيْرَ إلا طيرُكَ، ولا ربَّ غيرُكَ»[٦].

وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيْصِن وأبو جعفر ويعقوب: «ويَخْرُج» بفتح الياء وضمِّ الراء[٧]، على معنى: ويَخرجُ له الطائرُ كتاباً؛ فـ «كتاباً» منصوبٌ على الحال. ويَحتمِلُ أن يكون المعنى: ويخرجُ الطائرُ فيصيرُ كتاباً. وقرأ يحيى بن وَثَّاب: «ويُخْرِج» بضمِّ الياء وكسر الراء، ورُوي عن مجاهد[٨]، أي: يُخرِجُ الله. وقرأ شيبة ومحمد بن السَّمَيْفَعِ، ورُوِيَ أيضاً عن أبي جعفر: «ويُخْرَج» بضمِّ الياء وفتح الراء

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٢٠ ، والبيهقي في الشعب (٢١٦١)، ولم يُذكر: رزقه، وهو كذلك في تفسير مجاهد ١/ ٣٥٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٢٠ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٥٩ .

(٣) زاد المسير ٥/ ١٥ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٣ .

(٥) الشواذ ص٧٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٢ ، وزاد المسير ٥/ ١٦ .

(٦) أخرجه أحمد (٧٠٤٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٨ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣١ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٢٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣ ، وزاد المسير ٥/ ١٦ ، والنشر ٢/ ٣٠٦ ، ولم يذكروا هذه القراءة عن أبي جعفر.

(٨) هذه القراءة في معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٨ ، وفي النشر ٢/ ٣٠٦ عن أبي جعفر، وهي من العشرة. وهي في زاد المسير ٥/ ١٦ عن قتادة وأبي المتوكل.

على الفعل المجهول[١]، ومعناه: ويُخرِجُ له الطائرُ كتاباً. الباقون: «ونُخرِجُ» بنونٍ مضمومةٍ وكسرِ الراء، أي: ونحن نخرج. واحتجَّ أبو عمرو في هذه القراءة بقوله: «ألزمناه».

وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر «يُلَقَّاه» بضمِّ الياء وفتح اللام وتشديد القاف[٢]، بمعنى: يؤتاه[٣]. الباقون: بفتح الياء خفيفة، أي: يراه منشوراً. وقال: «منشوراً»: تعجيلاً للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة[٤]. وقال أبو السَّوَّار العدوي[٥] وقرأ هذه الآية: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال: هما نشرتان وَطَيَّة، أما ما حييتَ يا بن آدم فصحيفتُكَ المنشورةُ فأَمْلِ فيها ما شئت، فإذا متَّ طُوِيتْ حتى إذا بُعِثْتَ نُشِرَتْ[٦]. ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ قال الحسن: يقرأ الإنسانُ كتابَه أُمِّيًّا كان أو غير أُمِّيٍّ[٧]. ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: محاسباً[٨]. وقال بعض الصلحاء: هذا كتابٌ، لسانُك قلمُه، ورِيقُك مِدادُه، وأعضاؤك قرطاسُه، أنتَ كنتَ المُمْلي على حَفَظتِكَ، ما زِيد فيه ولا نُقِصَ منه، ومتى أنكرتَ منه شيئاً يكون فيه الشاهد منكَ عليكَ.

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ أي: إنما كلُّ

(١) زاد المسير ٥/ ١٦ ، والنشر ٢/ ٣٠٦ عن أبي جعفر، وهي من العشرة.

(٢) السبعة ص٣٧٨ ، والتيسير ص١٣٩ عن ابن عامر، والنشر ٢/ ٣٠٦ عن أبي جعفر وابن عامر، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣ عن ابن عامر والحسن.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٠٨ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٣ .

(٥) البصري، وقد اختُلف في اسمه، فقيل: حسان بن حريث، وقيل: حريث بن حسان، وقيل غير ذلك، وهو من التابعين الثقات، وله روايةٌ في الصحيحين. تهذيب التهذيب ٤/ ٥٣٥ .

(٦) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٨٣ ، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٥٠ .

(٧) الوسيط ٣/ ١٠٠ ، وزاد المسير ٥/ ١٦ .

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٢ ، وزاد المسير ٥/ ١٦ .

أحدٍ يُحاسَبُ عن نفسه لا عن غيره، فمن اهتدى فثوابُ اهتدائه له، ومن ضلَّ فعقابُ كفره عليه[١].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تقدَّم في الأنعام[٢]. وقال ابن عباس: نزلت في الوليد ابن المغيرة، قال لأهل مكة: اتبعونِ واكفروا بمحمدٍ وعليَّ أوزاركم، فنزلت هذه الآية، أي: إن الوليد لا يحمِلُ آثامَكم، وإنما إثمُ كلِّ واحدٍ عليه[٣]. يُقال: وَزَرَ يزِر وِزْراً ووِزْرَةً، أي: أثِم[٤]. والوِزْر: الثِّقْل المثقِل والجمع أوزار، ومنه: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] أي: أثقال ذنوبهم[٥]. وقد وَزَر إذا حَمَل فهو وازر؛ ومنه وزير السلطان الذي يحمل ثِقْل دولته[٦]. والهاء في قوله كناية عن النفس، أي: لا تؤخَذُ نفسٌ آثمةٌ بإثم أخرى[٧]، حتى إنَّ الوالدة تَلْقَى ولدَها يوم القيامة فتقول: يا بنيَّ، ألم يكن حَجْري لكَ وِطاءً؟ ألم يكن ثديي لكَ سِقاءً؟ ألم يكن بطني لكَ وعاءً؟ فيقول: بلى يا أمَّهْ. فتقول: يا بنيَّ، فإن ذنوبي أثقلَتْني فاحمِلْ عني منها ذنباً واحداً. فيقول: إليكِ عني يا أمَّهْ، فإني بذنبي عنكِ اليومَ مشغول[٨].

مسألة: نزعت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية في الردِّ على ابن عمر حيث قال: «إنَّ الميتَ لَيُعَذَّبُ ببكاءِ أهله»[٩]. قال علماؤنا: وإنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه، وأنه معارِضٌ للآية. ولا وجه لإنكارها، فإنَّ الرُّواةَ لهذا المعنى كثير، كعمر

---

(١) الوسيط ٣/ ١٠٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣ ، وزاد المسير ٥/ ١٦ .

(٢) ٩/ ١٤٥ - ١٤٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣ ، وسبب النزول في الوسيط ٣/ ١٠٠ ، وزاد المسير ٥/ ١٦ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣١ .

(٥) ينظر ما تقدم ٨/ ٣٥٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣ .

(٧) ينظر مجاز القرآن ١/ ٣٧٢ .

(٨) سيورده المؤلف من كلام الفضيل بن عياض عند تفسير الآية (١٨) من سورة فاطر.

(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣ ، وقول ابن عمر إنما هو مرفوعٌ إلى النبي ﷺ كما أخرجه أحمد (٤٩٥٩)، والبخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٧): (١٦).

وابنه والمغيرة بن شعبة وقَيْلة بنت مخرمة[١]، وهم جازمون بالرواية، فلا وجه لتخطِئتهم، ولا معارضَةَ بين الآية والحديث؛ فإن الحديث مَحمَلُه على ما إذا كان النوح من وصيِّةِ الميت وسُنَّته، كما كانت الجاهلية تفعله، حتى قال طَرَفة:

إذا مِتُّ فانعيني بما أنا أهلُهُ ... وشُقِّي عليَّ الجيبَ يا بنتَ مَعْبَدِ[٢]

وقال آخر[٣]:

إلى الحَوْلِ ثمَّ اسمُ السلامِ عليكما ... ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقدِ اعتذَرْ[٤]

وإلى هذا نحا البخاري[٥]. وقد ذهب جماعةٌ من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يُعذَّب بنَوْحِهم؛ لأنه أهملَ نهيَهم عنه قبل موته وتأديبَهم بذلك، فيُعذَّب بتفريطه في ذلك، وبترك ما أمره الله به من قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] لا بذنبِ غيرِه، والله أعلم[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ أي: لم نتركِ الخلقَ سُدًى، بل أرسلنا الرسل. وفي هذا دليلٌ على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن العقل يُقبِّحُ ويُحسِّنُ ويُبيحُ ويُحظِّر. وقد تقدَّم في البقرة القول فيه[٧]. والجمهور على أن هذا في حكم الدنيا، أي: أنَّ الله لا يُهلك أمةً بعذابٍ إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار. وقالت فرقة: هذا عامٌّ في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى:

---

(١) حديث عمر أخرجه أحمد (١٨٠)، والبخاري (١٢٨٧)، ومسلم (٩٢٧). وحديث ابن عمر ذكره المؤلف. وحديث المغيرة أخرجه أحمد (١٨١٤٠)، والبخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣). وحديث قيلة أخرجه ابن سعد ١/ ٢٣٠ في حديث طويل.

(٢) ينظر إكمال المعلم للقاضي عياض ٣/ ٣٧٠ - ٣٧١ ، والبيت في ديوان طرفة ص٣٩ .

(٣) كلمة «آخر» من (ظ)، وهي ليست في باقي النسخ.

(٤) قائله لبيد، وهو في ديوانه ص٧٩ . ونُسب في خزانة الأدب ٤/ ٣٤٢ إلى زوجة الحسن بن الحسن بن علي، وإلى أرطاة بن سُهيَّة المري.

(٥) فقال بعد الحديث (١٢٨٢): باب قول النبي ﷺ: «يُعذَّب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته.

(٦) إكمال المعلم ٣/ ٣٧٢ .

(٧) ١/ ٣٧٧ - ٣٧٨ .

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا﴾ [الملك: ٨-٩]. قال ابن عطية[١]: والذي يعطيه النظرُ أنَّ بِعثةَ آدمَ عليه السلام بالتوحيد وبَثَّ المعتقدات في بنيه مع نصب الأدلَّة الدالَّة على الصانع مع سلامة الفِطَر توجِبُ على كلِّ أحدٍ من العالَم الإيمانَ واتباعَ شريعة الله، ثم تجدَّد ذلك في زمن نوحٍ عليه السلام بعد غرق الكفار، وهذه الآيةُ أيضاً يُعطي احتمالُ ألفاظها نحوَ هذا في الذين لم تصِلْهم رسالة، وهم أهل الفَتَرات الذين قد قدَّرَ وجودَهم بعضُ أهل العلم، وأما ما رُويَ من أنَّ الله تعالى يبعثُ إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديثٌ لم يصِحَّ، ولا يقتضي ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف.

قال المهدويُّ: ورُوي عن أبي هريرة أنَّ الله عزَّ وجلَّ يبعثُ يومَ القيامة رسولاً إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصمِّ، فيُطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا، وتلا الآية. رواه معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة. ذكره النحاس[٢].

قلت: هذا موقوف، وسيأتي مرفوعاً في آخر سورة طه[٣] إن شاء الله تعالى، ولا يصِحُّ. وقد استدلَّ قومٌ في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى، وهذا صحيح، ومن لم تبلُغْه الدعوةُ فهو غيرُ مستحِقٍّ للعذاب من جهة العقل، والله أعلم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٤ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ١٣٢ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٤ عن معمر، به.

(٣) عند تفسير الآية (١٣٤)، وينظر الكلام عليه هناك.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٢ .

الأولى: أخبر الله تعالى في الآية التي قبلُ أنه لم يُهلكِ القرى قبل ابتعاث الرسل، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل، ولكنه وعدٌ منه، ولا خُلْفَ في وعده، فإذا أراد إهلاك قريةٍ مع تحقيق وعدِه على ما قاله تعالى أمرَ مترفيها بالفِسق والظلم فيها، فحقَّ عليها القولُ بالتدمير. يُعلِمُكَ أنَّ من هلكَ فإنما هلكَ بإرادته، فهو الذي يسببُ الأسبابَ ويسوقُها إلى غاياتها، ليَحُقَّ القولُ السابقُ من الله تعالى[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَمَّرْنَا﴾ قرأ أبو عثمان النَّهْدِيُّ وأبو رجاء وأبو العالية والربيع ومجاهد والحسن: «أمَّرْنا» بالتشديد، وهي قراءة عليٍّ ﷺ[٢]، أي: سلَّطنا شرارها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم[٣]. وقال أبو عثمان النهدِيُّ: «أمَّرْنا» بتشديد الميم: جعلناهم أمراء مسلَّطين[٤]. وقاله ابن عَزيز[٥]. وتأمَّر عليهم: تسلَّط عليهم[٦]. وقرأ الحسن أيضاً وقتادة وأبو حَيْوة الشامي ويعقوب، وخارجة عن نافع، وحماد بن سَلَمة عن ابن كَثير، وعليٌّ وابنُ عباس باختلافٍ عنهما «آمرنا» بالمدِّ والتخفيف[٧]، أي: أكثَرْنا جبابرتَها وأُمراءها. قاله الكسائي[٨]. وقال أبو عبيدَة: آمرته بالمد وأمرته، لغتان بمعنى كثَّرته؛ ومنه الحديث «خير المال مُهْرَةٌ مأمُورة، أو سِكَّةٌ مأبورة» أي: كثيرة النِّتاج والنَّسل[٩]. وكذلك قال ابن عزيز: آمرنا وأمرنا بمعنًى واحد، أي: أكثرنا[١٠]. وعن الحسن أيضاً ويحيى بن يَعْمَر: «أمِرْنا» بالقصر وكسر

---

(١) المصدر السابق.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣ ، والمحتسب ٢/ ١٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٤ ، وهي قراءة شاذة.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٢٩ ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٢٣) من قول ابن عباس ﷺ.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٥ .

(٥) في نزهة القلوب ص٨٣ .

(٦) الصحاح (أمر).

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٠٩ ، وزاد المسير ٥/ ١٩ ، والنشر ٢/ ٣٠٦ ، وقراءة يعقوب من العشرة.

(٨) وقاله أبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢/ ٢٦٣ .

(٩) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٧٣ بمعناه، والحديث سلف ١٢/ ١٣٤ .

(١٠) نزهة القلوب ص٨٣ .

الميم على فَعِلنا، ورُوِيَتْ عن ابن عباس[١] قال قتادة والحسن: المعنى: أكثرنا، وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال: لا يُقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد. قال: وأصلها «أأمرنا» فخفف، حكاه المهدويّ[٢]. وفي «الصحاح»: وقال أبو الحسن: أَمِر مالُه (بالكسر) أي: كثر. وأَمِرَ القومُ، أي: كَثُروا؛ قال الشاعر:

أَمِرونَ لا يَرِثون سَهْمَ القُعْدُدِ

وآمَرَ اللهُ مالَه (بالمد)[٣]. الثعلبي: ويُقال للشيء الكثير: أَمِرٌ، الفعل منه: أَمِرَ القومُ يأمَرون أمراً إذا كثروا. قال ابن مسعود: كنَّا نقول في الجاهلية للحيِّ إذا كَثُروا: أَمِرَ أمْرُ بني فلان؛ قال لَبيد:

كلُّ بني حُرَّةِ مَصيرُهُمُ ... قُلٌّ وإن أكثرَتْ من العددِ

إن يُغْبَطُوا يَهْبِطُوا وإن أَمِرُوا ... يوماً يصيروا للهُلْكِ والنَّكَدِ[٤]

قلت: وفي حديث هِرَقل الحديثِ الصحيح: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كَبشة، إنه ليخافه مَلِكُ بني الأصفر[٥]. أي: كثُرَ. وكلُّه غير متعدٍّ، ولذلك أنكره الكسائي، والله أعلم. قال المهدوي: ومن قرأ: «أَمِرَ» فهي لغة، ووجه تعدية «أمِرَ» أنه شبَّهه بِعَمِرَ من حيث كانت الكثرةُ أقربَ شيءٍ إلى العمارة، فعدَّى كما عدَّى عَمِرَ.

الباقون: «أَمَرْنا» من الأمر؛ أي: أمرناهم بالطاعة[٦] إعذاراً وإنذاراً وتخويفاً ووعيداً. ﴿فَفَسَقُوا۟﴾ أي: فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾: فوجب

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣ ، والقراءات الشاذة ص٧٥ ، والمحتسب ٢/ ١٦ .

(٢) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٥ .

(٣) الصحاح (أمر)، وصدر البيت: طرفون ولّا دون كل مبارك، وقائله الأعشى كما في الصحاح واللسان (أمر). والقعدد: القليل الآباء إلى الجد الأكبر. اللسان (قعد).

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٧٢ - ٣٧٣ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٣١ - ٥٣٢ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٩١ - ٢٩٢ ، والبيتان في ديوان لبيد ص٥٠ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٧٠)، والبخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) وهو من كلام أبي سفيان لأصحابه.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٤ .

عليها الوعيد. عن ابن عباس[١]. وقيل: «أَمَرْنا» جعلناهم أمراء؛ لأن العرب تقول: أمير غير مأمور[٢]، أي: غير مؤمر. وقيل: معناه: بعثنا مستكبريها؛ قال هارون: وهي قراءة أُبَيٍّ: «بعثنا أكابِرَ مُجرميها ففسقوا» ذكره الماورديّ[٣]. وحكى النحاس: وقال هارون في قراءة أُبَيٍّ: «وإذا أردنا أن نُهلِكَ قريةً بعثنا فيها أكابِرَ مُجرميها فمكروا فيها فحقَّ عليها القول»[٤].

ويجوز أن يكون «أمرنا» بمعنى أكثرنا؛ ومنه: «خير المال مُهْرَةٌ مأمورة» على ما تقدَّم.

وقال قوم: مأمورةٌ اتباع لمأبورة؛ كالغدايا والعشايا[٥]، وكقوله: «اِرْجِعْنَ مأزوراتٍ غيرَ مأجورات»[٦]. وعلى هذا لا يُقال: أمَرهم الله، بمعنى كثرهم، بل يُقال: آمره وأمره. واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة[٧]. قال أبو عبيد: وإنما اخترنا «أمرنا» لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة[٨]. والمُتْرَف: المُنعَّم؛ وخُصّوا بالأمر لأنَّ غيرَهم تَبَعٌ لهم[٩].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ أي: استأصلناها بالهلاك[١٠]. ﴿تَدْمِيرًا﴾ ذكر المصدر للمبالغة في العذاب الواقع بهم. وفي الصحيح من حديث زينب بنت جَحْش زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: خرجَ رسولُ الله ﷺ يوماً فَزِعاً مُحْمَرًّا وجهُه يقول: «لا إله إلا الله، ويْلٌ للعرب من شَرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليومَ من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه»

(١) ينظر الوسيط ٣/ ١٠١ ، ومجمع البيان ١٥/ ٣٠ .
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٥٢٨ .
(٣) في النكت والعيون ٣/ ٢٣٥ وهي قراءة شاذة.
(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٧ ، وهي قراءة شاذة أيضاً.
(٥) مجمع البيان ١٥/ ٢٩ .
(٦) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٥٢٨ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٩٢ . والحديث سلف ٦/ ٤٩ .
(٧) وكذلك الطبري في تفسيره ٤/ ٥٣٢ .
(٨) نقله عنه البغوي ٣/ ١٠٩ لكن وقع في مطبوعه: أبو عبيدة.
(٩) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٧٥ ، وزاد المسير ٥/ ١٩ .
(١٠) الوسيط ٣/ ١٠١ .

وحلَّق بأصبعِه الإبهام والتي تليها. قالت: فقلتُ: يا رسول الله، أنَهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخبث». وقد تقدَّم الكلام في هذا الباب[١]، وأنَّ المعاصي إذا ظهرتْ ولم تُغيَّرْ كانت سبباً لهلاك الجميع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ﴾ أي: كم من قومٍ كفروا حلَّ بهم البَوار. يخوِّف كفَّار مكة[٢]. وقد تقدَّم القول في القرون في أوّل سورة الأنعام[٣]، والحمد لله. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ «خبيراً»: عليماً بهم. «بَصِيراً»: يُبصر أعمالهم. وقد تقدّم[٤].

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يعني الدنيا، والمراد: الدارُ العاجلة، فعبَّرَ بالنعت عن المنعوت. ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي: لم نُعطِه منها إلا ما نشاء، ثم نؤاخذه بعمله، وعاقبتُه دخولُ النار[٥]. ﴿مَّذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: مُطرَداً مُبعَداً من رحمة الله[٦]. وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين المُداجين، يلبِسون الإسلام والطاعة؛ لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يُقبَلُ ذلك العملُ منهم

---

(١) ٩/ ٤٨٧.

(٢) الوسيط ٣/ ١٠١.

(٣) ٨/ ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٤) ٨/ ٣٣٦ معنى الخبير، و٢/ ٢٦١ معنى البصير.

(٥) زاد المسير ٥/ ٢٠.

(٦) الوسيط ٣/ ١٠١، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٩.

في الآخرة، ولا يُعطَون في الدنيا إلا ما قُسم لهم. وقد تقدَّم في «هود»[١] أنَّ هذه الآية تُقيِّدُ تلك الآيات المُطلَقة، فتأمَّلْه.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: الدار الآخرة. ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: عمِلَ لها عملَها من الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الطاعات لا تُقبَلُ إلا من مؤمن. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي: مقبولاً غير مردود[٢]. وقيل: مضاعَفاً[٣]؛ أي: تُضاعف لهم الحسنات إلى عشر، وإلى سبعين، وإلى سبع مئة ضعف، وإلى أضعافٍ كثيرة؛ كما رُوي عن أبي هريرة وقد قيل له: أسمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألفَ ألفِ حسنة»؟ فقال سمعته يقول: «إنَّ الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألفَي ألفِ حسنة»[٤].

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أعلمَ اللهُ تعالى أنه يرزق المؤمنين والكافرين[٥]. ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: محبوساً ممنوعاً؛ من حَظَر يَحْظُر حَظْراً وحِظاراً[٦].

ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق والعمل؛ فمِنْ مُقِلٍّ ومكثر[٧]. ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: للمؤمنين؛ فالكافر وإن وُسِّعَ

(١) ١١/ ٨٥ - ٨٦.
(٢) زاد المسير ٥/ ٢٠.
(٣) الوسيط ٣/ ١٠١.
(٤) لم نقف عليه.
(٥) نقله في الوسيط ١/ ١٠١ - ١٠٢ عن الزجاج، ولفظ الجلالة أثبتت من (ظ)، والوسيط.
(٦) الوسيط ١/ ١٠٢.
(٧) زاد المسير ٥/ ٢١.

عليه في الدنيا مرة، وقُتِّر على المؤمن مَرَّةً، فالآخرة لا تُقسم إلا مرةً واحدةً بأعمالهم، فمن فاتَه شيءٌ منها لم يستدرِكْه فيها.

وقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته[١]. وقيل: الخطاب للإنسان[٢]. ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أي: تبقى[٣]. ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ لا ناصرَ لكَ ولا وَلِيًّا[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

فيه ستّ عشرة مسألة:

الأولى: ﴿قَضَىٰ﴾ أي: أمرَ وألزمَ وأوجب[٥]. قال ابن عباس والحسن وقتادة: وليس هذا قضاء حُكْمٍ، بل هو قضاء أمر[٦]. وفي مصحف ابن مسعود: «ووصَّى» وهي قراءة أصحابه وقراءةُ ابنِ عباس أيضاً وعليٍّ وغيرهما، وكذلك عند أُبَيِّ بن كعب[٧]. قال ابن عباس: إنما هو «ووصَّى ربُّكَ» فالتصقت إحدى الواوين فقُرِئتْ: «وقضى ربك» إذ لو كان على القضاء ما عصى اللهَ أحدٌ[٨]. وقال الضحاك: تصحَّفت

---

(١) الوسيط ٣/ ١٠٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢١ .

(٢) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٧٦ ، ومجمع البيان ١٥/ ٣ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٤ .

(٤) الوسيط ٣/ ١٠٢ ، وزاد المسير ٥/ ٢١ ، ومجمع البيان ١٥/ ٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧ .

(٦) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٣٧ ، ومجمع البيان ١٥/ ٣٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧ ، وعنده «النخعي» بدل «علي»، لكن الرازي نقل هذه القراءة في تفسيره ٢٠/ ١٨٤ عن علي، وهي قراءة شاذة.

(٨) تفسير الرازي ٢٠/ ١٨٤ .

على قومٍ «وصى بقضى» حين اختلطتِ الواوُ بالصادِ وقْتَ كَتْبِ المصحف. وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثلَ قول الضحاك. وقال عن ميمون بن مهْران أنه قال: إنَّ على قول ابن عباس لنوراً؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابنُ عباس قال ذلك، وقال: لو قلنا هذا لطعَنَ الزنادقةُ في مصحفنا[١]. ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم: القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ معناه أمر. والقضاء بمعنى الخلق، كقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] يعني: خلقهن. والقضاء بمعنى الحكم، كقوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] يعني: احكم ما أنت تحكم. والقضاء بمعنى الفراغ، كقوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] أي: فُرِغَ منه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: ١٠]. والقضاء بمعنى الإرادة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. والقضاء بمعنى العهد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[٢] [القصص: ٤٤].

فإذا كان القضاء يَحتمِلُ هذه المعاني فلا يجوز إطلاقُ القول بأنَّ المعاصي بقضاء الله؛ لأنه إن أُريدَ به الأمرُ فلا خلافَ أنه لا يجوز ذلك؛ لأنَّ الله تعالى لم يأمرْ بها، فإنه لا يأمر بالفحشاء. وقال زكريا بن سلام: جاء رجلٌ إلى الحسن فقال: إنَّه طلَّقَ امرأتَه ثلاثاً. فقال: إنك قد عصيتَ ربَّكَ وبانَتْ منك زوجتُك. فقال الرجل: قضى اللهُ ذلك عليَّ. فقال الحسن وكان فصيحاً: ما قضى اللهُ ذلك. أي: ما أمرَ اللهُ به، وقرأ هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٣].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧ .

(٢) ينظر معنى القضاء في مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٦٧٤ - ٦٧٥ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٢ ، وكلمة «زوجتك» أثبتت منه ومن نسخة (ظ).

الثانية: أمر اللهُ سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بِرَّ الوالدين مقروناً بذلك، كما قَرَن شُكرَهما بشكره فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[1] [لقمان: ١٤]. وفي «صحيح البخاري» عن عبد الله قال: سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «الصلاةُ على وقتها» قال: ثم أيّ؟ قال: «ثم بِرُّ الوالدين» قال: ثم أيّ؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[2] فأخبر ﷺ أنَّ بِرَّ الوالدين أفضلُ الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام. ورتَّب ذلك بـ «ثُمَّ» التي تُعطي الترتيب والمهلة.

الثالثة: من البِرِّ بهما والإحسانِ إليهما ألَّا يتعرَّضَ لسَبِّهما ولا يَعُقُّهما؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة، ففي «صحيح مسلم» عن عبد الله ابن عمرو أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن من الكبائر شَتْمَ الرجلِ والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يَشْتُم الرجلُ والديه؟ قال: «نعم؛ يَسبُّ الرجلُ أبا الرجلِ، فيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّه، فيسُبُّ أُمَّه»[3].

الرابعة: عقوق الوالدين مخالفتُهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن بِرَّهما موافقتُهما على أغراضهما. وعلى هذا إذا أمرا أو أحدُهما ولدَهما بأمرٍ وجبت طاعتُهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب. وقد ذهب بعض الناس إلى أنَّ أَمْرَهما بالمباح يُصيِّره في حقِّ الولد مندوباً إليه، وأمْرَهما بالمندوب يزيده تأكيداً في نَدْبيَّته.

الخامسة: روى الترمذي عن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأةٌ أُحِبُّها، وكان أبي يكرهُها، فأمرني أن أُطلِّقَها، فأبَيْتُ، فذكرتُ ذلك للنبيِّ ﷺ فقال: «يا عبد الله بن

---

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٤ ، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٩٦ .

(٢) صحيح البخاري (٥٢٧)، وأخرجه أحمد (٣٨٩٠)، ومسلم (٨٥).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ ، والحديث في صحيح مسلم (٩٠)، وأخرجه أحمد (٦٥٢٩).

عمر، طَلِّقِ امرأتَكَ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[١].

السادسة: روى الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: مَنْ أحَقُّ الناسِ بحُسْنِ صحابتي؟ قال: «أمُّك» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «ثم أمُّك» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «ثمَّ أمك» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «ثمَّ أبوك»[٢]. فهذا الحديث يدلُّ على أنَّ محبةَ الأم والشفقةَ عليها ينبغي أن تكون ثلاثةَ أمثال محبة الأب؛ لذكر النبيِّ ﷺ الأمَّ ثلاث مرات، وذِكْرِ الأب في الرابعة فقط. وإذا تُؤصِّل هذا المعنى شهد له العِيان؛ وذلك أنَّ صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب. ورُوي عن مالكٍ أنَّ رجلاً قال له: إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إليَّ أن أقدَم عليه، وأمِّي تمنعني من ذلك، فقال له: أطِعْ أباك، ولا تَعْصِ أُمَّك. فدلَّ قول مالك هذا أن بِرَّهما متساوٍ عنده. وقد سُئِلَ الليثُ عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم، وزعم أنَّ لها ثُلثي البر[٣]. وحديث أبي هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر، وهو الحجة على من خالف[٤]. وقد زعم المحاسِبي في «كتاب الرعاية» له أنه لا خلاف بين العلماء أنَّ للأم ثلاثةَ أرباع البرِّ، وللأب الربع[٥]؛ على مقتضى حديث أبي هريرة ﷺ. والله أعلم.

السابعة: لا يختصُّ بِرُّ الوالدين بأن يكونا مُسلِمَين، بل إن كانا كافِرَين يَبَرُّهما ويُحسنُ إليهما إذا كان لهما عهد؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾[٦] [الممتحنة: ٨]. وفي «صحيح البخاري» عن

---

(١) سنن الترمذي (١١٨٩)، وأخرجه ـ أيضاً ـ بهذا اللفظ أحمد (٥٠١١).

(٢) صحيح البخاري (٥٩٧١)، وصحيح مسلم (٢٥٤٨). وأخرجه أحمد (٨٣٤٤).

(٣) ينظر إكمال المعلم ٨/ ٥ .

(٤) ينظر المفهم ٦/ ٥٠٨ .

(٥) قول المحاسبي في الرعاية ص١٠٢ : فليبدأ العبد بحاجة والدته؛ لأن برَّها مقدَّمٌ في سنة النبي ﷺ، واجتماع العلماء على تقديمها في البر والطاعة على الوالد.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ .

أسماء قالت: قَدِمتْ أمّي وهي مشركةٌ في عهد قريشٍ ومُدَّتهم إذ عاهدوا النبيَّ ﷺ مع أبيها، فاستفتيتُ النبيَّ ﷺ، فقلتُ: إنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغبةٌ أفأَصِلُها؟ قال: «نعم صِلي أُمَّكِ». وروى أيضاً عن أسماء قالت: أتتني أمّي راغبةً في عهد النبيِّ ﷺ، فسألتُ النبيَّ ﷺ: أأصِلُها؟ قال: «نعم». قال ابن عُيينة: فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾. الأوّل معلَّق والثاني مسند[١].

الثامنة: من الإحسان إليهما والبِرِّ بهما إذا لم يتعيَّنِ الجهادُ ألَّا يُجاهِدَ إلَّا بإذنهما. روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يستأذِنُه في الجهاد فقال: «أحَيٌّ والداك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهِدْ». لفظ مسلم[٢]. في غير الصحيح قال: نعم، وتركتُهما يبكيان. قال: «اذهَبْ فأضحِكْهما كما أبكيتَهما»[٣]. وفي خبرٍ آخر أنه قال: «نومُكَ مع أبويك على فراشهما يُضاحِكانك ويُلاعبانك أفضلُ لكَ من الجهاد معي». ذكره ابن خُوَيْزمنداد. ولفظ البخارِي في كتاب بِرِّ الوالدين[٤]: أخبرنا أبو نُعَيم، أخبرنا سفيان، عن عطاء بن السَّائب، عن أبيه، عن عبد الله بن عَمرو قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يُبايعه على الهجرة، وتَرَكَ أبويه يبكيان، فقال: «ارجِعْ إليهما فأضحِكْهما كما أبكيتَهما». قال ابن المنذر: في هذا الحديث النَّهيُ عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقَعِ النَّفير، فإذا وقعَ وجبَ الخروجُ على الجميع، وذلك بَيِّنٌ في حديث أبي قَتادة أنَّ رسول الله ﷺ بعث جيش الأمراء...؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رَوَاحة، وأنَّ مُنادي رسول الله ﷺ نادى بعد ذلك: أنِ الصلاةُ جامعة، فاجتمع الناسُ فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، اخرجوا فأمِدُّوا إخوانَكم ولا يتخلَّفَنَّ أحدٌ» فخرج الناسُ مُشاةً وركباناً في حَرٍّ

---

(١) صحيح البخاري (٥٩٧٨) مسنداً، و(٥٩٧٩) معلَّقاً. وأخرجه مسنداً أحمد (٢٦٩١٥)، ومسلم (١٠٠٣).

(٢) صحيح البخاري (٣٠٠٤)، وصحيح مسلم (٢٥٤٩): (٥)، وأخرجه أحمد (٦٧٦٥).

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٩٠)، وأبو داود (٢٥٢٨)، والنسائي ٧/ ١٤٣ ، وابن ماجه (٢٧٨٢).

(٤) من كتاب الأدب المفرد (١٣).

شديد[١]. فدلَّ قوله: «اخرجوا فأمِدُّوا إخوانكم» أنَّ العذر في التخلُّف عن الجهاد إنما هو ما لم يقَعِ النَّفير، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «فإذا استُنْفِرتُم فانْفِروا»[٢].

قلت: وفي هذه الأحاديث دليلٌ على أنَّ المفروض أو المندوبات متى اجتمعت قُدِّمَ الأهمُّ منها. وقد استوفى هذا المعنى المحاسبيُّ في كتاب الرعاية.

التاسعة: واختلفوا في الوالِدَين المشرِكَيْن هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية، فكان الثَّوري يقول: لا يغزو إلا بإذنهما. وقال الشافعي: له أن يغزو بغير إذنهما[٣]. قال ابن المنذر: والأجداد آباء، والجدَّات أمهاتٌ فلا يغزو المرء إلا بإذنهم، ولا أعلم دلالةً تُوجِبُ ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات. وكان طاوس يرى السَّعيَ على الأخوات أفضلَ من الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

العاشرة: من تمام بِرِّهما صِلة أهل وُدِّهما، ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ من أبَرِّ البِرِّ صلَةُ الرجلِ أهلَ وُدِّ أبيه بعد أن يُوَلِّيَ». وروى أبو أُسَيد ـ وكان بَدْرِيًّا ـ قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ جالساً فجاءه رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي من برِّ والدَيَّ من بعد موتهما شيءٌ أبَرُّهما به؟ قال: «نعم، الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدِهما بعدَهما، وإكرامُ صديقِهما، وصلةُ الرَّحِمِ التي لا رَحِمَ لك إلا من قبلهما، فهذا الذي بقيَ عليك». وكان ﷺ يُهدي لصدائقِ خديجة بِرًّا بها ووفاءً لها وهي زوجته، فما ظنُّكَ بالوالدين[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٥٥١)، والنسائي في الكبرى (٨١٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩١)، والبخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣): (٨٥) ٣/ ١٤٨٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأحمد (١٥٣٠٦) من حديث صفوان بن أمية ﷺ، ومسلم (١٨٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) إكمال المعلم ٨/ ٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٩ - ١١٩٠، وحديث ابن عمر في صحيح مسلم (٢٥٥٢)، وأخرجه أحمد (٥٦١٢). وأما حديث أبي أسيد فقد أخرجه أحمد (١٦٠٥٩)، وأبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤) من طريق أسيد بن علي، عن أبيه علي بن عبيد، عن أبي أسيد، به. إسناده ضعيف؛ =

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ خصَّ حالةَ الكِبَر لأنها الحالةُ التي يحتاجان فيها إلى بِرِّه؛ لتغيُّرِ الحال عليهما بالضَّعف والكِبَر؛ فألزمه في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثرَ مما ألزمه من قبل؛ لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلًّا عليه، فيحتاجان أن يَليَ منهما في الكِبَر ما كان يحتاج في صِغَره أن يَلِيا منه؛ فلذلك خَصَّ هذه الحالة بالذكر[١].

وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستثقالَ للمرء عادةً، ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبُه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالَّة البُنوَّة وقِلَّة الديانة، وأقلُّ المكروه ما يُظهره بتنفسه المتردِّد من الضجر، وقد أُمِرَ أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب[٢]، فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنفُه، رغِمَ أنفُه، رغِمَ أنفُه» قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أدركَ والديه عند الكِبَر أحدَهما أو كلَيْهما ثم لم يَدخُلِ الجنة»[٣]. وقال البخاري في كتاب بر الوالدين: حدثنا مُسدَّد، حدثنا بشر بن المُفَضَّل، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد[٤] المَقْبُريّ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ، رَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك أبويه عند الكِبَرِ أو أحدَهما فلم يُدخِلاه الجنة، ورَغِمَ أنفُ رجلٍ دخل عليه رمضانُ ثم انسلخَ قبل أن يُغْفَرَ له». حدثنا ابن أبي أُوَيْس، حدثني أخي، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن هلال، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة السالمي، عن أبيه ﷺ قال: إنَّ كعبَ بنَ عُجْرة ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ:

= قال الذهبي في الميزان ٣/ ١٤٤ : علي بن عبيد لا يُعرف. وأما حديث الإهداء لصدائق خديجة، فقد أخرجه أحمد (٢٤٣١٠)، والبخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) أحكام القرآن للكيا الطبري ٢/ ٢٥٣ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ .

(٣) صحيح مسلم (٢٥٥١)، وأخرجه أحمد (٨٥٥٧).

(٤) قبلها في (م) زيادة كلمة «أبي».

«أحضروا المنبر» فلمَّا خرجَ رَقيَ إلى المنبر، فرقيَ في أول درجةٍ منه قال: آمين، ثم رقيَ في الثانية فقال: آمين، ثم لمَّا رقيَ في الثالثة قال: آمين، فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا: يا رسول الله، لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كُنَّا نسمعه منك؟ قال: «وسمِعْتُموه؟» قلنا: نعم. قال: «إنَّ جبريل عليه السلام اعترض قال: بَعُدَ من أدركَ رمضان فلم يُغْفَرْ له، فقلتُ: آمين، فلما رَقِيتُ في الثانية قال: بَعُدَ من ذُكِرتَ عنده فلم يُصَلِّ عليكَ، فقلتُ: آمين، فلمَّا رقيتُ في الثالثة قال: بَعُدَ من أدركَ عنده أبواه الكِبَر أو أحدُهما فلم يُدخِلاه الجنةَ، قلتُ: آمين». حدثنا أبو نُعيم، حدثنا سلمة بن وَرْدان، سمعتُ أنساً ﷺ يقول: ارتقى رسولُ الله ﷺ على المنبرِ درجةً فقال: آمين، ثم ارتقى درجةً فقال: آمين، ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال: آمين، ثم استوى وجلس، فقال أصحابه: يا رسول الله، علامَ أمَّنْتَ؟ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: رَغِمَ أنفُ من ذُكِرتَ عنده فلم يُصَلِّ عليك، فقلتُ: آمين، ورَغِمَ أنفُ من أدركَ أبويه أو أحدَهما فلم يدخُلِ الجنةَ، فقلتُ: آمين» الحديث[1].

فالسعيد الذي يُبادر اغتنام فرصة بِرِّهما؛ لئلا تفوتَه بموتهما فيندم على ذلك. والشقيُّ من عقَّهما، لا سيما مَنْ بلغه الأمرُ ببرِّهما.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي: لا تقُلْ لهما ما يكون فيه أدنى تبرُّم[2]. وعن أبي رجاء العُطارِدي قال: الأُفُّ: الكلامُ القَذَع الرديء الخفيّ. وقال مجاهد: معناه: إذا رأيتَ منهما في حالِ الشَّيَخِ الغائطَ والبولَ الذي رأَياه منك في الصغر فلا تَقْذَرْهما وتقول: أُف. والآية أعمُّ من هذا[3]. والأُفُّ والتُّفُّ: وسخ

(١) لم نقف على هذه الأحاديث في المطبوع من كتاب الأدب المفرد للبخاري، وقد أخرج حديث كعب بن عجرة في كتابه التاريخ الكبير ٧/ ٢٢٠ بهذا الإسناد. وأما حديث أبي هريرة فقد أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي (١٦) عن مسدد، به. وأخرجه أحمد (٧٤٥١) من طريق آخر عن عبد الرحمن بن إسحاق، به. وأما حديث أنس فأخرجه إسماعيل القاضي أيضاً (١٥) عن عبد الله بن مسلمة، عن سلمة بن وردان، به.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٨، وأثر مجاهد أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٥.

الأظفار[١]. ويُقال لكل ما يُضجر ويُستثقل: أُفّ له[٢]. قال الأزهري: والتُّفُّ أيضاً: الشيء الحقير[٣]. وقُرِئ: «أُفٌّ» منوَّناً مخفوضاً، كما تُخفض الأصواتُ وتُنَوَّن، تقول: صَهٍ ومَهٍ. وفيه عشر لغات: أُفَّ، وأُفُّ، وأُفٍّ، وأُفًّا وأُفٌّ، وأُفٌّ، وأُفَّهْ، وإفْ لك (بكسر الهمزة)، وأُفْ (بضم الهمزة وتسكين الفاء)، وأُفاً (مخففة الفاء)[٤]. وفي الحديث: «فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال: أف أف»[٥]. قال أبو بكر: معناه: استقذارٌ لما شَمَّ. وقال بعضهم: معنى أُفٌّ: الاحتقار والاستقلال، أُخِذَ من الأَفَف: وهو القليل[٦]. وقال القُتَبيُّ: أصله نَفْخُكَ الشيءَ يَسقط عليك من رمادٍ وترابٍ وغيرِ ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مُستثقَلٍ[٧]. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأُفُّ: وسخٌ بين الأظفار، والتُّفُّ: قُلامتها. وقال الزجَّاج[٨]: معنى أُفّ: النَّتْن. وقال الأصمعيُّ: الأُفُّ: وسخ الأذن، والتُّفُّ: وسخ الأظفار؛ فكثر استعمالُه حتى ذُكِرَ في كلِّ ما يُتأذَّى به[٩]. ورُوِيَ من حديث علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو علمَ اللهُ من العقوق شيئاً أردأَ من «أُفٍّ» لذكَره، فليعمَلِ البارُّ ما شاء أن يعمل، فلن يَدخُلَ النار، وليعمَلِ العاقُّ ما شاء أن

(١) ينظر زاد المسير ٥/ ٢٤ - ٢٥ . وقد فرَّق أهل اللغة بينهما، ومن ذلك قول الليث والأصمعي: الأُفُّ: وسخ الأذن، والتُّفُّ: وسخ الأظفار. تهذيب اللغة ١٤/ ٢٥٥ و ١٥/ ٥٨٩ .

(٢) قاله ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص١١١ .

(٣) لم نقف عليه في تهذيب اللغة، وقد قاله الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٣٤ ، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ١٤٠ .

(٤) نقلها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٣ - ٢٤ عن ابن الأنباري.

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٢٠ من حيث أم سلمة رضي الله عنها. وفي إسناده عمار بن علثم، قال البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٧ : لا يُتابع على حديثه.

(٦) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٤ عن ابن الأنباري.

(٧) تأويل مشكل القرآن ص١١١ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٤ .

(٩) نقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٥٨٩ .

يعمل فلن يَدخُلَ الجنة»[١]. قال علماؤنا: وإنما صارت قولة «أف» للأبوين أرداً شيءٍ؛ لأنه رفضَهما رفْضَ كفرِ النعمة، وجَحْدِ التربية، ورَدِّ الوصية التي أوصاه في التنزيل. و«أفّ» كلمةٌ مقولةٌ لكلِّ شيءٍ مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧] أي: رَفْضٌ لكم ولهذه الأصنام معكم.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ النَّهْر: الزجر والغِلظة[٢]. ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: لَيِّناً لطيفاً[٣]، مثل: يا أبتاه ويا أُمَّاه، من غير أن يُسمِّيهما ويُكَنِّيهما قاله عطاء[٤]. وقال أبو الهدَّاج[٥] التُّجيبيّ: قلتُ لسعيد بن المسيِّب: كلُّ ما في القرآن من برِّ الوالدين قد عرفتُه إلا قولَه: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ما هذا القول الكريم. قال ابن المسيِّب: قولُ العبد المذنبِ للسيدِ الفَظِّ الغليظ[٦].

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما، والتذلُّلُ لهما تذلُّلَ الرعيةِ للأمير، والعبيدِ للسادة ـ كما أشار إليه سعيد بن المُسيِّب ـ وضَرَبَ خَفْضَ الجناح ونصبَه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده. والذُّلُّ: هو اللين[٧].

وقراءة الجمهور بضمِّ الذال، من ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا وذِلَّةً ومَذَلَّةً فهو ذالٌّ وذليلٌ. وقرأ

---

(١) أخرجه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥ من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما، وفي إسناده أصرم بن حوشب، وهو متروك، واتهمه بعضهم بالوضع. ميزان الاعتدال ١/ ٢٧٢ .

(٢) ينظر الوسيط ٣/ ١٠٤ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٠٤ ، وزاد المسير ٥/ ٢٥ .

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١١٠ لكن عزاه إلى مجاهد، وذكره الرازي في تفسيره ٢٠/ ١٩٠ وعزاه إلى عمر بن الخطاب ﷺ.

(٥) في النسخ: ابن البداح، والتصويب من المصادر وكتب التراجم.

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٩ ، أبو الهداج مجهول، تفرد بالرواية عنه حرملة بن عمران، وترجم له البخاري في الكنى ص٨١ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٤٥٥ ، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في ثقاته ٦/ ٦٦٧ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ .

سعيد بن جُبير وابن عباس وعروة بن الزبير «الذِّلّ» بكسر الذال، ورُويت عن عاصم[١]؛ من قولهم: دابَّةٌ ذَلول بينة الذِّل، والذُّلُ في الدوابِّ المنقادُ السهلُ دون الصعب، فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسانُ نفسَه مع أبويه في خير ذِلَّة، في أقواله وسكناته ونظره، ولا يُحِدَّ إليهما بصرَه، فإن تلك هي نظرة الغاضب.

الخامسة عشرة: الخطاب في هذه الآية للنبيِّ ﷺ والمرادُ به أُمَّتُه؛ إذ لم يكن له عليه الصلاة والسلام في ذلك الوقت أبوان. ولم يذكر الذُّلَّ في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وذكره هنا بحسب عِظَم الحقِّ وتأكيده.

و«مِن» في قوله: «مِنَ الرَّحْمةِ» لبيان الجنس، أي: إنَّ هذا الخفض يكون من الرحمة المستكِنَّة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً، ويصِحُّ أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عبادَه بالترحُّم على آبائهم والدعاء لهم[٢]، وأنْ ترحَمهما كما رَحِماك، وتَرْفُقَ بهما كما رَفَقا بك؛ إذ وَلِياك صغيراً جاهلاً محتاجاً، فآثراك على أنفسِهما، وأسهرا ليلَهما، وجاعا وأشبعاك، وتعرَّيا وكَسَواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكِبَر الحدَّ الذي كنتَ فيه من الصِّغَر، فتَلي منهما ما وَلِيا منك، ويكون لهما حينئذٍ فضل التقدُّم[٣]. قال ﷺ: «لا يَجْزِي ولدٌ والداً إلا أن يجِدَه مملوكاً فيشترِيَه فيُعْتِقَه»[٤]. وسيأتي في سورة «مريم»[٥] الكلام على هذا الحديث.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ خصَّ التربية بالذكر ليتذكرَ العبدُ شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيدَه ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما، وهذا كلُّه في الأبوين المؤمنين. وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٤٤٩ ، والقراءات الشاذة ص٧٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/٤٤٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٨٦ - ١١٨٧ .

(٤) أخرجه أحمد (٧١٤٣)، ومسلم (١٥١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) عند تفسير الآية (٩٣).

قُرْبَى، كما تقدم[١]. وذُكِرَ عن ابن عباس وقتادة أنَّ هذا كلَّه منسوخٌ بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[٢] فإذا كان والدا المسلم ذِمِّيّين استعمل معهما ما أمره الله به هاهنا، إلا الترحُّمَ لهما بعد موتهما على الكفر؛ لأن هذا وحده نُسِخَ بالآية المذكورة. وقيل: ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيَّين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خُصَّ بتلك، لا رحمة الآخرة، لا سيما وقد قيل: إنَّ قولَه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ نزلت في سعد بن أبي وَقَّاص، فإنه أسلم، فألقت أمُّه نفسَها في الرَّمْضاء متجرِّدة، فذُكِرَ ذلك لسعد، فقال: لِتَمُتْ، فنزلت الآية. وقيل: الآية خاصةٌ في الدعاء للأبوين المسلمين. والصواب أنَّ ذلك عمومٌ كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبيّ ﷺ: «من أمسى مُرْضِياً لوالدَيْه وأصبح، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة، وإن واحداً فواحداً، ومن أمسى وأصبح مُسْخِطاً لوالديه، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار، وإن واحداً فواحداً» فقال رجل: يا رسول الله، وإن ظلماه؟ قال: «وإن ظلماه، وإن ظلماه، وإن ظلماه»[٣]. وقد روينا بالإسناد المتَّصل عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي. فقال النبيُّ ﷺ للرجل: «فأْتِني بأبيك» فنزل جبريل عليه السلام على النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ

---

(١) ١٠/٣٩٨ - ٤٠١.

(٢) المحرر الوجيز ٣/٤٤٩.

(٣) أخرجه هناد في الزهد (٩٩٣) من طريق سعيد بن سنان، عن رجل، عن ابن عباس مرفوعاً. وفي إسناده رجل مبهم.

وأخرجه ابن أبي حاتم في العلل ٢/٢١١ من طريق المغيرة بن مسلم، عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً. ثم قال: قال أبو زرعة: المغيرة لم يسمع من عطاء شيئاً، وهو مرسل. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠١٢٨) من طريق أبان، عن سعد بن مسعود القيسي أو غيره، عن ابن عباس مرفوعاً. أبان: هو ابن أبي عياش، وهو متروك الحديث. ميزان الاعتدال ١/١٠ - ١١، وسعد بن مسعود فيه جهالة، فقد ذكروا في الرواة عنه اثنين، وذكره ابن حبان في ثقاته ٤/٢٩٦ على عادته في توثيق المجاهيل. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧) من طريق سليمان التيمي، عن سعد بن مسعود أيضاً، عن ابن عباس موقوفاً. وتحرف اسم سعد في مطبوعه إلى سعيد.

الله عزَّ وجلَّ يُقرِئُكَ السلام ويقول لك: إذا جاءك الشيخ فاسأَلْه عن شيءٍ قاله في نفسه ما سمِعَتْه أُذُناه. فلما جاء الشيخ قال له النبيّ ﷺ: «ما بالُ ابنِكَ يشكوك أتريد أن تأخذَ مالَه؟» فقال: سَلْه يا رسول الله، هل أُنفِقُه إلا على إحدى عمَّاته أو خالاته أو على نفسي؟! فقال له رسول الله ﷺ: «إيهِ، دَعْنا من هذا، أخبرني عن شيءٍ قُلتَه في نفسك ما سمِعَتْه أُذناك» فقال الشيخ: واللهِ يا رسول الله، ما زال الله عزَّ وجلَّ يزيدنا بِكَ يقيناً، لقد قلتُ في نفسي شيئاً ما سمِعَتْه أُذُناي. قال: «قُلْ وأنا أسمع» قال: قلتُ:

غَذَوتُكَ مولوداً ومُنْتُكَ يافِعاً ... تُعَلُّ بما أجْني عليكَ وتُنْهَلُ

إذا ليلةٌ ضافَتْكَ بالسُّقمِ لم أَبِتْ ... لسُقْمِكَ إلا ساهراً أتململُ

كأنِّي أنا المطروقُ دونَكَ بالذي ... طُرِقْتَ به دوني فَعَيْنيَ تَهْمُلُ

تخافُ الرَّدى نفسي عليكَ وإنَّها ... لَتعلَمُ أنَّ الموتَ وقتٌ مؤجَّلُ

فلمَّا بلغتَ السِّنَّ والغايةَ التي ... إليها مَدَى ما كنتُ فيك أؤمِّلُ

جعلتَ جزائي غِلظةً وفَظاظةً ... كأنَّكَ أنتَ المُنْعِمُ المتفضِّلُ

فليتَكَ إذ لم تَرْعَ حقَّ أُبوَّتي ... فعلتَ كما الجارُ المُصَاقِبُ يفعلُ

فأوْليتَني حقَّ الجِوار ولم تكُنْ ... عليَّ بمالٍ دون مالِكَ تَبْخَلُ

قال: فحينئذٍ أخذَ النبيُّ ﷺ بتلابيب ابنِه وقال: «أنتَ ومالُكَ لأبيك»[1]. قال

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٥٦٦)، وفي الصغير (٩٤٧) من طريق عبيد بن خلصة، عن عبد الله بن نافع المدني، عن المنكدر بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله، به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٥٥ : رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه من لم أعرفه، والمنكدر بن محمد ضعيف وقد وثقه أحمد، والحديث بهذا التمام منكر.

وأخرج ابن ماجه (٢٢٩١) من طريق يوسف بن إسحاق، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ لي مالاً وولداً، وإنَّ أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: «أنت ومالك لأبيك». قال البوصيري: إسناده صحيح، ورجاله ثقات على شرط البخاري. قلنا: ولهذا الحديث شواهد عدة تنظر في مسند أحمد (٦٦٧٨).

وأما الأبيات فقائلها امرؤ القيس وهي في ديوانه ص١٨٠ - ١٨١ ، وفيه في البيت الأول: «وعِلْتُكَ» بدل «ومِنْتُكَ»، وفي البيت الثاني: «نابَتْكَ بالشَّكوِ» بدل «ضافَتْكَ بالسقم»، و«لشكواك» بدل «لسقمك»، وفي البيت الرابع: «وإني لأعلم» بدل «وإنها لتعلم»، و«حتمٌ» بدل «وقتٌ».

الطبرانيُّ اللَّخمِيُّ: لا يُروى ـ يعني هذا الحديث ـ عن ابن المُنكدِر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد، وتفرَّدَ به عُبيد[١] بن خَلَصة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي: من اعتقاد الرحمة بهما والحُنوِّ عليهما، أومن غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر بِرِّهما رياء[٢]. وقال ابن جُبير: يريد البادرة التي تبدُر، كالفَلْتة والزَّلَّة، تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما، لا يريد بذلك بأساً[٣]؛ قال الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي: صادقين في نية البرِّ بالوالدين فإنَّ الله يغفر البادرة.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ وعدٌ بالغفران مع شرط الصلاح والأَوْبة بعد الأَوْبة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى[٤]. قال سعيد بن المُسيِّب: هو العبد يتوبُ ثم يُذنِبُ ثم يتوبُ ثم يُذنِبُ. وقال ابن عباس ﷺ: الأوَّاب: الحفيظُ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها. وقال عُبيد بن عُمير: هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء، ثم يستغفرون الله عزَّ وجلَّ. وهذه الأقوال متقاربة[٥]. وقال عَوْن العُقَيْليُّ: الأوَّابون: هم الذين يُصلُّون صلاة الضُّحى[٦]. وفي الصحيح: «صلاةُ الأوَّابين حين تَرْمَضُ

---

(١) في النسخ: عبيد الله.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٩ .

(٣) أخرجه بمعناه الطبري ١٤/ ٥٥٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٩ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٤٣ ، وقول سعيد بن المسيب أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٦ ، والطبري ١٤/ ٥٥٨ - ٥٥٩ . وقول عبيد بن عمير أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٤٠)، والطبري ١٤/ ٥٦٠ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٦٨ .

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٥٨ .

الفِصال»[١]. وحقيقة اللفظ من آبَ يؤوبُ إذا رجع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي: كما راعيتَ حقَّ الوالدَيْن فصِلِ الرحم، ثم تصدَّقْ على المسكين وابن السبيل[٣]. وقال عليُّ بن الحسين في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾: هم قرابة النبيِّ ﷺ، أُمِرَ ﷺ بإعطائهم حقوقَهم من بيت المال[٤]. أي: من سهم ذَوِي القربى من الغَزْوِ والغنيمة، ويكون خطاباً لِلوُلاةِ أو من قام مقامهم[٥]. وألحقَ في هذه الآية ما يتعيَّنُ من صلة الرحم، وسَدِّ الخَلَّة، والمواساة عند الحاجة بالمال، والمعونة بكلِّ وجه[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾ أي: لا تُسرف في الإنفاق في غير حق[٧]. قال الشافعيُّ ﷺ: والتبذير: إنفاق المال في غير حقِّه، ولا تبذير في عمل الخير[٨]. وهذا قول الجمهور. وقال أشهب عن مالك: التبذير: هو أخذ المال من حقِّه ووضعُه في غير حقِّه، وهو الإسراف، وهو حرامٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٨) من حديث زيد بن أرقم ﷺ. رمض الفصال: أن تحترق الرمضاء ـ وهي الرمل ـ فتبرك الفصال من شدة حرها وإحراقها أخفافها. إكمال المعلم ٣/ ٩٩ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٥ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٤٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ١٩٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ ، وأخرجه بمعناه الطبري ١٤/ ٥٦٣ .

(٥) تفسير الرازي ٢٠/ ١٩٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٧) أخرجه بمعناه ابن أبي شيبة ٩/ ٩٥ ، والبخاري في الأدب المفرد (٤٤٤)، والطبري ١٤/ ٥٦٥ - ٥٦٧ عن ابن مسعود ﷺ، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٤٥)، والطبري ١٤/ ٥٦٧ عن ابن عباس ﷺ.

(٨) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٥ .

﴿ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾[١] .وقوله «إخوان» يعني أنهم في حكمهم؛ إذِ المبذِّرُ ساعٍ في فسادٍ كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تُسوِّله لهم أنفسهم، أو أنهم يُقرَنون بهم غداً في النار. ثلاثة أقوال[٢]. والإخوان هنا جمع أخٍ من غير النسب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي: احذروا متابعته والتشبُّه به في الفساد. والشيطان اسم الجنس. وقرأ الضحاك: «إخوان الشيطان» على الانفراد، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك ﷺ[٣].

الثالثة: مَنْ أنفقَ مالَه في الشهوات زائداً على قدر الحاجات وعَرَّضه بذلك للنَّفاد فهو مبذِّر، ومَنْ أنفقَ رِبْحَ مالِه في شهواته وحَفِظَ الأصلَ أو الرَّقبةَ فليس بمبذِّر، ومَنْ أنفقَ درهماً فِي حرامٍ فهو مبذِّر، ويُحجر عليه في نفقتِه الدرهمَ في الحرام، ولا يُحجَر عليه إن بذَلُه فِي الشهوات إلا إذا خِيفَ عليه النَّفاد[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: وهو أنه سبحانه وتعالى خصَّ نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ وهو تأديبٌ عجيبٌ وقولٌ لطيفٌ بديع، أي: لا تُعرِضْ عنهم إعراضَ مُستهينٍ عن ظهر الغنى والقدرة فتَحْرِمَهم، وإنما يجوز أن تُعرِضَ عنهم عند عجزٍ يَعْرِضُ وعائقٍ يعوق، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحالُ فقُلْ لهم قولاً ميسوراً[٥].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩١ .

(٢) القول الأول ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ ، والقول الثاني ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٠٥ ، والقول الثالث ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٥/ ٤٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩١ .

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٦ .

الثانية: في سبب نزولها؛ قال ابن زيد: نزلت الآية في قومٍ كانوا يسألون رسولَ الله ﷺ فيأبى أن يُعطيَهم؛ لأنه كان يعلم منهم نفقةَ المال في فساد، فكان يُعرِضُ عنهم رغبةً في الأجر في منعهم؛ لئلا يُعينَهم على فسادهم[١]. وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ قال: ليس هذا في ذكر الوالدين، جاء ناسٌ من مُزَيْنَة إلى النبيِّ ﷺ يستحملونه، فقال: «لا أجِدُ ما أحمِلُكم عليه» فتوَلَّوْا وأعينُهم تَفيضُ من الدمع حَزَناً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ والرحمة الفَيْءُ[٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أمره بالدعاء لهم، أي: يَسِّر فقرَهم عليهم بدعائك لهم. وقيل: ادْعُ لهم دعاءً يتضمنُ الفتحَ لهم والإصلاح[٣]. وقيل: المعنى: «وإما تُعرِضَنَّ» أي: إن أعرضتَ يا محمد عن إعطائهم لضيقِ يدٍ فقُلْ لهم قولاً ميسوراً، أي: أحسِنِ القولَ وابسُطِ العذر، وادعُ لهم بسَعة الرزق، وقل: إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ؛ فإنَّ ذلك يعمل في مَسَرَّة نفسِه عملَ المواساة[٤]. وكان عليه الصلاة والسلام إذا سُئِلَ وليس عنده ما يُعطي سكت انتظاراً لرزقٍ يأتي من الله سبحانه وتعالى كراهةَ الرَّدِّ، فنزلت هذه الآية، فكان ﷺ إذا سُئِلَ وليس عنده ما يُعطي قال: «يرزقُنا اللهُ وإياكم من فضله»[٥]. فالرحمة على هذا التأويل: الرزق المنتظر. وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة. والضمير في «عنهم» عائدٌ على من تقدَّم ذِكْرُهم من الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل[٦]. و﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: ليِّناً لطيفاً

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٢) زاد المسير ٥/ ٢٨ ، وينظر ما تقدم ١٠/ ٣٣٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠/ ١٩٤ بمعناه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٥ - ٢٣٦ ، والحديث أورده الديلمي في الفردوس ١/ ٣٢٢ من حديث عائشة، و ٥/ ٢٦ من حديث أنس.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ ، وتفسير الرحمة هنا بأنها الرزق المنتظر أخرجه الطبري ١٤/ ٥٧٠ - ٥٧١ عن مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٦١ .

طيباً، مفعول بمعنى الفاعل، من لفظ اليسر كالميمون، أي: وعداً جميلاً[١]، على ما بيَّنَّاه. ولقد أحسن من قال:

إلَّا تكن وَرِقٌ يوماً أجودُ بها ... للسائلين فإني ليِّنُ العُودِ

لا يَعْدَمُ السائلون الخيرَ من خُلقي ... إمّا نَوالي وإمَّا حسنُ مردودي[٢]

تقول: يَسَّرتُ لك كذا إذا أعددته[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ هذا مَجازٌ عبَّر به عن البخيل الذي لا يقدِرُ من قلبه على إخراج شيءٍ من ماله، فضربَ له مثلَ الغُلِّ الذي يمنع من التصرف باليد. وفي «صحيح البخاري» ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: ضرب رسولُ الله ﷺ مَثَلَ البخيلِ والمتصدِّقِ كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديدٍ قد اضْطَرَّت أيدِيَهما إلى ثُدِيِّهما وتَراقيهما، فجعلَ المتصدِّق كلَّما تصدَّقَ بصدقةٍ انبسطت عنه حتى تَغْشَى أنامِلَه وتَعْفُوَ أثرَه، وجعل البخيلُ كلَّما هَمَّ بصدقةٍ قَلَصت وأخذت كلُّ حَلْقةٍ بمكانها. قال أبو هريرة ﷺ: فأنا رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقول بأصبعيه هكذا في جيْبه، فلو رأيتَه يُوَسِّعها ولا تتوسَّع[٤].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٣٩ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١٠٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ ، وزاد المسير ٥/ ٢٩ .

(٢) البيتان في الكامل ٣/ ١٠٧٢ دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٤) صحيح البخاري (٥٧٩٧) واللفظ له، وصحيح مسلم (١٠٢١). وأخرجه أحمد (٩٠٥٧). ووقع في بعض الروايات لهذا الحديث عند مسلم وغيره: «جُنَّتان» بدل «جُبَّتان» ووقع في بعضها الآخر بالوجهين على أنه شك من بعض الرواة؛ قال السندي في حاشية على مسند أحمد ١٢/ ٤٥٤ : الجُبَّة بالباء: هو ثوب مخصوص، والجُنَّة بالنون: هي الدرع، وصُوِّب النون؛ لقوله: «من حديد»، ولقوله: «اتسعت =

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ ضربَ بَسْطَ اليد مثلاً لذهاب المال، فإنَّ قَبْضَ الكفِّ يحبِسُ ما فيها، وبَسْطَها يُذهِبُ ما فيها، وهذا كلُّه خطابٌ للنبيِّ ﷺ والمرادُ أُمَّتُه، وكثيراً ما جاء في القرآن؛ فإن النبيَّ ﷺ لمَّا كان سيِّدَهم وواسِطتَهم إلى ربِّهم عَبَّر به عنهم على عادة العرب في ذلك[١]. وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدَّخِرُ شيئاً لغد، وكان يجوع حتى يشُدَّ الحجرَ على بطنه من الجوع، وكان كثيرٌ من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع أموالهم، فلم يُعنِّفْهمُ النبيُّ ﷺ ولم يُنكِرْ عليهم؛ لصحة يقينهم وشِدَّة بصائرهم، وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق، وإخراجِ ما حَوَتْه يدُه من المال مَنْ خِيفَ عليه الحسرةُ على ما خرج من يده، فأما مَنْ وَثِقَ بموعودِ الله عزَّ وجلَّ وجزيلِ ثوابه فيما أنفقه فغيرُ مُرادٍ بالآية، والله أعلم[٢]. وقيل: إنَّ هذا الخطاب للنبيِّ ﷺ في خاصَّة نفسه، علَّمه فيه كيفية الإنفاق، وأمره بالاقتصاد[٣]. قال جابر وابن مسعود: جاء غلامٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ أمي تسألُكَ كذا وكذا. فقال: «ما عندنا اليوم شيء». قال: فتقولُ لكَ: اكْسُني قميصَك. فخلع قميصَه فدفعه إليه، وجلس في البيت عرياناً. وفي رواية جابر: فأذَّنَ بلالٌ للصلاة وانتظروا رسولَ الله ﷺ فلم[٤] يخرج، واشتغلتِ القلوب، فدخل بعضُهم فإذا هو عارٍ؛ فنزلت هذه الآية[٥]. وكلُّ هذا في إنفاق الخير، وأما إنفاق الفساد فقليلُه وكثيرُه حرام، كما تقدَّم[٦].

الثالثة: نهت هذه الآية عن استفراغ الوُجْدِ فيما يطرأ أولاً من سؤال المؤمنين؛

= الحلقة»، نعم، إطلاق الجُبَّة على الجُنَّة بالنون مجازاً غير بعيد. وقوله: تعفو أثره: تستر أثره. قلصت: تضامَّت واجتمعت. فتح الباري ٣/ ٣٠٦.

(١) من بداية المسألة الأولى إلى هنا من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٩٩، وأحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٧.

(٣) أحكام القرآن للطبري ٣/ ٢٥٨.

(٤) كلمة «فلم» من (ظ).

(٥) زاد المسير ٥/ ٢٩ - ٣٠، والروايتان لم نقف على من أخرجهما.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥١، وقد تقدم عند تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة.

لئلا يبقى مَنْ يأتي بعد ذلك لا شيءَ له، أو لئلا يُضيِّعَ المُنفِقُ عيالَه. ونحوُه من كلام الحكمة: ما رأيتُ قطُّ سَرَفاً إلا ومعه حقٌّ مُضَيَّعٌ. وهذه من آيات فقه الحال، فلا يُبيَّنُ حكمُها إلا باعتبار شخصٍ من الناس[١].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ قال ابن عرفة: يقول: لا تُسرِفْ ولا تُتلِفْ مالَكَ فتبقى محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف، كما يكون البعير الحسير، وهو الذي ذهبت قوَّتُه فلا انبِعاثَ به؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] أي: كليل منقطع[٢]. وقال قتادة: أي: نادماً على ما سلف منك[٣]. فجعله من الحسرة، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الفاعل من الحسرة حَسِرٌ وحسران، ولا يُقال: محسور. والملوم: الذي يُلام على إتلاف ماله، أو يلومُه مَنْ لا يُعطيه[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قد مضى الكلام في هذه الآية في الأنعام[٥]، والحمد لله. والإملاق: الفقر وعدم الملك. أملقَ الرجلُ أي: لم يبق له إلا الملَقات؛ وهي الحجارةُ العِظامُ المُلْس[٦]. قال الهُذَليُّ يصف صائداً:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥١ ، والحكمة التي ذُكرت قائلها معاوية بن أبي سفيان كما ذكر الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٢٦٧ .

(٢) وبنحوه قال الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٢٢ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٧ ، والطبري ١٤/ ٥٧٥ - ٥٧٦ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١١٣ بمعناه.

(٥) ٩/ ١٠٧ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥١ .

أُتِيحَ لها أُقَيْدِرُ ذو حَشِيفٍ إذا سامَتْ على المَلَقاتِ ساما

الواحدة مَلَقة[١]. والأُقَيْدر تصغير الأقدر، وهو الرجل القصير. والحَشِيف من الثياب: الخَلَق. وسامت: مرَّت[٢]. وقال شَمِر: أملَقَ لازمٌ ومتعدٍّ، أملق إذا افتقر، وأملق الدهر ما بيده. قال أوس:

وأَمْلَق ما عندي خطوبٌ تَنَبَّلُ[٣]

الثانية: قوله تعالى: ﴿خِطْئًا﴾ قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمزة والقصر. وقرأ ابن عامر: «خَطَأً» بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهي قراءة أبي جعفر يزيد[٤]. وهاتان قراءتان مأخوذتان من «خطئ» إذا أتى الذنب على عمد[٥]. قال ابن عرفة: يُقال: خَطِئ في دينه[٦] خَطَأً إذا أثِمَ فيه، وأخطأ: إذا سلكَ سبيلَ خَطَأٍ عامداً أو غيرَ عامد[٧]. قال: ويقال: خَطِئَ في معنى أخطأ[٨]. وقال الأزهري: يقال خَطِئَ يخطأ خِطْئاً إذا تعمَّد الخطأ؛ مثلُ أثِم يَأثم إثماً، وأخطأ إذا لم يتعمَّد، إخْطاءً وخَطَأً[٩]؛ قال الشاعر:

دَعِيني إنما خَطْئي وصَوْبي عليَّ وإنَّ ما أهلكتُ مالُ[١٠]

---

(١) تهذيب اللغة ٩/ ١٨٢ ، والهذلي هو صخر الغي، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٦٣ .

(٢) اللسان (قدر).

(٣) تهذيب اللغة ٩/ ١٨٢ ، وهذا عجزُ بيتٍ صدرُه:

«ولما رأيتُ العُدْمَ قيَّدَ نائلي» وهو في ديوان أوس بن حجر ص٩٤ .

(٤) السبة ص٣٧٩ - ٣٨٠ ، والتيسير ص١٣٩ - ١٤٠ ، والنشر ٢/ ٣٠٧ ، وسيذكر المصنف أن ابن كثير ـ وهو من السبعة ـ كان يقرؤها: «خِطاءً».

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٤٧ .

(٦) في (م) و(د): ذنبه.

(٧) نقله عن ابن عرفة الصغانيُّ في العباب الزاخر واللباب الفاخر (خطأ).

(٨) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: ١/ ٣٧٦ : خطِئتَ وأخطأتَ لغتان.

(٩) تهذيب اللغة ٧/ ٤٩٦ - ٤٩٧ بمعناه.

(١٠) قائله أوس بن غَلفاء كما في طبقات فحول الشعراء ١/ ١٦٧ ، وخزانة الأدب ٨/ ٣١٣ ، وعندهما: «ذريني» بدل «دعيني»، وفي الخزانة: «أنفقت» بدل «أهلكت».

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضدُّ الصواب[١]. وفيه لغتان: القصر وهو الجيد، والمدُّ وهو قليل. ورُويَ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «خَطْأً» بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة[٢]. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدِّ الهمزة[٣]. قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً[٤]، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. قال أبو عليّ: هي مصدرٌ من خاطَأَ يُخاطِئُ، وإن كُنَّا لا نجِدُ خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوِعُ خاطأ، فدلَّنا عليه؛ ومنه قول الشاعر:

تَخاطَأتِ النَّبْلُ أحشاءَهُ وأخَّرَ يومي فلم أَعْجَلِ

وقول الآخر في وصف مَهاةٍ:

تخاطأهُ القَنَّاصُ حتى وجدتُهُ وخرطومُه في مَنْقِعِ الماءِ راسبُ[٥]

الجوهري: تخاطأه أي: أخطأه؛ وقال أوفى بن مطر المازني:

ألَا أبْلِغا خُلَّتي جابراً بأنَّ خليلَكَ لم يُقتَلِ

تخاطأتِ النَّبْلُ أحشاءَهُ وأخَّرَ يومي فلم يَعْجَلِ[٦]

وقرأ الحسن: «خَطَاءً» بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة. قال أبو حاتم: لا يُعرف هذا في اللغة، وهي غلطٌ غيرُ جائز[٧]. وقال أبو الفتح[٨]: الخطأ من أخطأتُ بمنزلة العطاء من أعطيتُ، هو اسم بمعنى المصدر. وعن الحسن أيضاً: «خَطًى» بفتح

---

(١) تقدم عند المصنف ٨/٧ - ٩ .

(٢) هذه القراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ١٩/٢ عن ابن عامر.

(٣) السبعة ص٣٧٩ ، والتيسير ص١٣٩ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ١٤٧/٤ بمعناه.

(٥) الحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ٩٦/٥ - ٩٧ بمعناه، ومن قوله قرأ ابن كثير إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٤٥٢/٣ ، والبيت الأول قائله أوفى بن مطر كما سيأتي، والبيت الثاني قائله رجلٌ من بني بكر كما نسبه الراغب الأصبهاني في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ٦١٢/٢ .

(٦) الصحاح (خطأ)، والبيتان في كتاب الأمثال للمفضل الضبي ص٦٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٤٥٢/٣ .

(٨) في المحتسب ٢٠/٢ .

الخاء والطاء منوّنةً من غير همز[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

فيه مسألة واحدة:

قال العلماء: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ أبلَغُ من أن يقول: ولا تزنوا؛ فإنَّ معناه: لا تدنوا من الزنى.

والزنى يُمَدُّ ويُقصر، لغتان. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما ... كان الزِّناءُ فريضةَ الرَّجْمِ[٢]

و﴿سَبِيلًا﴾ نصب على التمييز؛ التقدير: وساء سبيلُه سبيلاً. أي: لأنه يؤدِّي إلى النار[٣]. والزنى من الكبائر، ولا خلافَ فيه وفي قُبحه ولا سيما بحليلة الجار، وينشأ عنه استخدام ولد الغير واتخاذُه ابناً وغيرُ ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه. وفي الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ أتَى بامرأةٍ مُجِحٍّ على باب فُسطاطٍ فقال: «لعلَّه يريد أن يُلِمّ بها» فقالوا: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لقد هَمَمْتُ أن ألْعَنه لَعْناً يدخل معه قبرَه، كيف يُوَرِّثُه وهو لا يَحِلُّ له؟! كيف يستخدمه وهو لا يَحِلُّ له؟!»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قد مضى الكلام فيه في

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٢ .

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٧٧ - ٣٧٨ ، والبيت قائله النابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢٣٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥١ .

(٤) صحيح مسلم (١٤٤١) من حديث أبي الدرداء ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٧٥١٩). قال السندي في حاشيته على المسند: قوله: «مُجِحٍّ»: هي القريبة الولادة. «يُلِمُّ بها» من الإلمام، أي: يجامعها قبل الاستبراء. «كيف يورثه» من التوريث، أي: كيف يجعل ما في بطنها وارثاً له، أي: ربما تأتي بمولود في مدة يشتبه أن الولد له، أو للزوج السابق، وحينئذ لا يحل التوريث لاحتمال أن لا يكون منه، ولا الاستخدام لاحتمال أنه منه، والحاصل أنه إذا اشتبه الأمر فلا يحلُّ له أن يدعوه ابناً ولا عبداً.

الأنعام[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير سببٍ يوجب القتل[٢]. ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لمستحِقِّ دمِه[٣].

قال ابن خُوَيْزمَنْداد: الوليُّ يجب أن يكون ذكراً؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير.

وذكر إسماعيل بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ ما يدلُّ على خروج المرأة عن مطلق لفظ الوليِّ، فلا جَرَم، ليس للنساء حقٌّ في القصاص لذلك ولا أثرَ لعَفْوِها، وليس لها الاستيفاء[٤].

وقال المخالف: إنَّ المراد هاهنا بالولي الوارث؛ وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقال: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] فاقتضى ذلك إثباتَ القَوَدِ لسائر الورثة[٥]، وأمَّا ما ذكروه من أنَّ الوليَّ في ظاهره على التذكير وهو واحد، كأنَّ ما كان بمعنى الجنس يستوي المذكر والمؤنث فيه[٦]، وتتمته في كتب الخلاف.

﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: تسليطاً، أي: إن شاءَ قتل، وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدِّية.

---

(١) ٩/ ١٠٩.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٤٠.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٧، وزاد المسير ٥/ ٣٢.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٩.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠١، وأحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٦) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٦٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٥.

قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعي. وقال ابن وهب: قال مالك: السلطانُ أمر الله. ابن عباس: السلطان: الحُجَّة. وقيل: السلطان: طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربي: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله، ثم إنَّ أمرَ الله عزَّ وجلَّ لم يقَعْ نَصًّا، فاختلف العلماء فيه، فقال ابن القاسم عن مالك وأبي حنيفة: القتل خاصَّةً. وقال أشهب [عنه]: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفاً، وبه قال الشافعيُّ[١]. وقد مضى في سورة البقرة[٢] هذا المعنى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يَقتلْ غيرَ قاتله. قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير. الثاني: لا يَقتلْ بدل وَلِيِّه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث: لا يُمثِّل بالقاتل. قاله طَلْق بن حبيب. وكلُّه مرادٌ؛ لأنه إسرافٌ منهيٌّ عنه[٣]. وقد مضى في «البقرة» القول في هذا مستوفًى.

وقرأ الجمهور «يُسْرِف» بالياء[٤]، يريد الولي[٥]، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: «تسرف» بالتاء من فوق، وهي قراءة حُذيفة[٦]. وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأوّل، والمعنى عنده[٧]: فلا تسرف أيها

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٦ - ١١٩٧ ، ولم يعزُ القول الأول لابن عباس، وما بين حاصرتين منه. والقول الأول أخرجه الطبري ١٤/ ٥٨٣ عن ابن عباس والضحاك.

(٢) ٣/ ٦٤ وما بعدها.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٧ ، وعزا القول الأول إلى الحسن وحده، والقول الثاني إلى مجاهد. وقد أخرج ابن أبي شيبة ٩/ ٤٢٣ ، والطبري ١٤/ ٥٨٥ - ٥٨٦ القول الأول والثالث عن طلق ابن حبيب، وأخرجهما أيضاً عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٧ ، والطبري ١٤/ ٥٨٧ عن قتادة. وأما القول الثاني فأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٧٧ ، وابن أبي شيبة ٩/ ٤٢٣ ، والطبري ١٤/ ٥٨٦ عن سعيد بن جبير.

(٤) السبعة ص٣٨٠ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٣ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٤٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٣ ، وينظر السبعة ص٣٨٠ ، والنشر ٢/ ٣٠٧ وذكر أنها قراءة خلف ولم يذكر ابن عامر، وقد ذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٢٣ هذه القراءة بإسنادها عن حذيفة.

(٧) في (م) و(د): عندنا.

القاتل[١]. وقال الطبريُّ: هو على معنى الخطاب للنبيِّ ﷺ والأئمة من بعده. أي: لا تقتلوا غير القاتل[٢]. وفي حرف أُبَيٍّ: «فلا تُسرِفوا في القتل»[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي: مُعاناً، يعني الوليَّ. فإن قيل: وكم من وَلِيٍّ مخذولٍ لا يصلُ إلى حقِّه. قلنا: المعونةُ تكون بظهور الحجة تارةً وباستيفائها أخرى، وبمجموعهما ثالثةً، فأيُّها كان فهو نصرٌ من الله سبحانه وتعالى[٤].

وروى ابن كثير عن مجاهد قال: إن المقتول كان منصوراً. النحاس: ومعنى قوله: إن الله نصره بوليّه. وروى أنه في قراءة أبَيٍّ «فلا تسرِفوا فِي القتلِ إن وَلِيّ المقتول كان منصوراً». قال النحاس: الأبْيَنُ بالياء ويكون للوليّ؛ لأنه إنما يقال: «لا يُسرِفْ» لمن[٥] كان له أن يقتلُ، فهذا للوليّ. وقد يجوز بالتاء ويكون للوليِّ أيضاً، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة[٦].

قال الضحاك: هذا أوَّلُ ما نزلَ من القرآن في شأن القتل، وهي مكية[٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قد مضى الكلام فيه في الأنعام[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ١٥١.

(٢) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٣، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٥٨٥ - ٥٨٦.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٣، وهي قراءة شاذة.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٧.

(٥) في (م) و(د): إن.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٥١ - ١٥٢.

(٧) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٨٦.

(٨) ٩/ ١١١ - ١١٣.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع[١]. قال الزَّجَّاج: كلُّ ما أمر الله به ونَهى عنه فهو من العهد[٢]. ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ عنه، فحذف؛ كقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ به. وقيل: إنَّ العهدَ يُسأَلُ تبكيتاً لناقضه، فيُقال: نُقِضْتَ، كما تُسأَلُ المَوْؤُودة تبكيتاً لوائدها[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ تقدَّم الكلام فيه أيضاً في الأنعام[٤]. وتقتضي هذه الآية أنَّ الكيل على البائع، وقد مضى في سورة «يوسف»[٥] فلا معنى للإعادة. والقُسطاس (بضم القاف وكسرها): الميزان بلغة الروم. قاله ابن عَزيز[٦]. وقال الزَّجَّاج: القسطاس: الميزان صغيراً كان أو كبيراً. وقال مجاهد: القسطاس: العدل، وكان يقول: هي لغة رومية، وكأنَّ الناس قيل لهم: زِنوا بمَعْدِلَةٍ في وزنكم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: «القُسطاس» بضمِّ القاف، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر القاف، وهما لغتان[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وفاءُ الكيل وإقامةُ الوزن خيرٌ

---

(١) ينظر ٢/ ٨ و ٩/ ١١٥ .

(٢) نقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ١٠٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٠٦ .

(٤) ٩/ ٢١٤ .

(٥) ١١/ ٤٤٠ .

(٦) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٦٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٥ ، لكنه لم ينسب القول الأول في معنى القسطاس إلى الزجاج، والذي قاله الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٣٨ : القسطاس: ميزان العدل، أيُّ ميزانٍ كان من موازين الدراهم أو غيرها. وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٦٢ . وتنظر القراءتان في السبعة ص٣٨٠ ، والتيسير ص١٤٠ .

عند ربك وأبرك. «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً» أي: عاقبة[١]. قال الحسن: ذُكِرَ لنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يقدِرُ رجلٌ على حرامٍ ثم يَدَعُه ليس به[٢] إلا مخافةُ الله تعالى إلا أبدلَه اللهُ في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خيرٌ له من ذلك»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي: لا تتبَعْ ما لا تعلم ولا يَعنِيكَ[٤]. قال قتادة: لا تقُلْ: رأيتُ، وأنتَ لم ترَ، وسمعتُ، وأنت لم تسمع، وعلمتُ، وأنت لم تعلم[٥]. وقاله ابن عباس رضي الله عنهما[٦]. وقال مجاهد: لا تَرْمِ أحداً بما ليس لك به علم[٧]. وقاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً[٨]. وقال محمد ابن الحنفية: هي شهادة الزور[٩]. وقال القُتَبيُّ: المعنى: لا تُتبعه الحَدْسَ والظُّنون[١٠]. وكلها متقاربة. وأصل القَفْو البَهْتُ والقذفُ بالباطل[١١]؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «نحن بنو النضر

---

(١) عزاه في الدر المنثور ٤/ ١٨٢ إلى سعيد بن جبير.

(٢) في (م) و(د): لديه.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٣ ولكن من طريق قتادة، عن ابن عباس، مرفوعاً. وإسناده منقطع؛ لأن قتادة لم يسمع من أحدٍ من الصحابة سوى أنس بن مالك. المراسيل ص١٣٩ .

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(٥) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(٦) زاد المسير ٥/ ٣٥ .

(٧) تفسير مجاهد ١/ ٣٦٣ ، وذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ - ٥٩٥ .

(٨) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(٩) ذكره النحاس أيضاً ٤/ ١٥٥ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(١٠) غريب القرآن ص٢٥٤ .

(١١) تفسير الطبري ١٤/ ٥٩٥ بمعناه.

ابن كنانة لا نَقفو أُمَّنا، ولا ننتفي من أبينا»[١] أي: لا نَسُبُّ أُمَّنا. وقال الكُمَيت:

فلا أرمي البريء بغير ذنبٍ ولا أَقْفُو الحواصِنَ إن قُفينا[٢]

يقال: قَفَوْتُه أَقْفُوه، وقُفْتُه أَقُوفُه، وقَفَّيتُه إذا اتَّبَعتُ أثره[٣]. ومنه القافة؛ لتتبعهم الآثار[٤]. وقافية كلِّ شيء آخره، ومنه قافية الشِّعر؛ لأنها تقفو البيت[٥]. ومنه اسمُ النبيِّ ﷺ المُقَفِّي؛ لأنه جاء آخر الأنبياء. ومنه القائف، وهو الذي يتبع أثر الشَّبَه. يقال: قاف القائف يقوف إذا فعل ذلك[٦]. وتقول: فَقَوْتُ الأثر، بتقديم الفاء على القاف. ابنُ عطية: ويشبه أن يكون هذا من تلعُّبِ العرب في بعض الألفاظ، كما قالوا: رَعَمْلي في لَعَمْري. وحكى الطبريُّ عن فرقةٍ أنها قالت: قَفا وقافَ مثل عَثا وعاثَ. وذهب منذر بن سعيد إلى أنَّ قَفا وقافَ مثلُ جَبَذَ وجَذَبَ. وبالجملة فهذه الآية تنهى عن قول الزُّور والقذف، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة. وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائي «تَقُفْ» بضم القاف وسكون الفاء، وقرأ الجراح: «والفَآد» بفتح الفاء، وهي لغةٌ لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره[٧].

الثانية: قال ابن خُوَيْزِمنداد: تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لمَّا قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ دلَّ على جواز ما لنا به علم، فكلُّ ما عَلِمه الإنسان أو غلب على ظنِّه جاز أن يحكم به، وبهذا احتججنا على إثبات القُرْعة والخَرْص؛ لأنه ضربٌ من غَلَبة الظنِّ، وقد يُسَمَّى علماً اتساعاً. فالقائف يُلحِقُ الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما، كما يُلحِقُ الفقيهُ الفرعَ بالأصل من طريق الشَّبَه. وفي الصحيح عن

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٣٩)، وابن ماجه (٢٦١٢) من حديث الأشعث بن قيس ﷺ.

(٢) ذيل ديوان الكميت ص٤٦٦ . الحواصن جمع حَصان: وهي المرأة العفيفة المتزوجة. اللسان (حصن).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٠ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١١٤ .

(٥) تهذيب اللغة ٩/ ٣٢٧ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٠ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٦ ، وهي قراءة شاذة. وقول الطبري في تفسيره ١٤/ ٥٩٦ .

عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ دخل عليَّ مسروراً تَبْرُقُ أساريرُ وجْهِه، فقال: «ألم تَرَيْ أنَّ مُجَزِّزاً نظرَ إلى زيد بن حارثة وأسامةَ بن زيد عليهما قَطيفةٌ قد غَطَّيا رؤوسَهما وبَدَتْ أقدامُهما فقال: إنَّ بعضَ هذه الأقدامِ لَمِنْ بعض»[١]. وفي حديث يونس بن يزيد: وكان مُجَزِّزٌ قائفاً[٢].

الثالثة: قال الإمام أبو عبد الله المازَرِيُّ: كانت الجاهلية تقدح في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد، وكان زيد أبوه أبيضَ من القطن، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح. قال القاضي عِياض: وقال غيرُ أحمد: كان زيدٌ أزهرَ اللون، وكان أسامةُ شديدَ الأُدْمة، وزيد بن حارثة عربيٌّ صريحٌ من كَلْب، أصابه سِباء[٣]، حسبما يأتي في سورة الأحزاب[٤] إن شاء الله تعالى.

الرابعة: استدلَّ جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع في الولد بسرور النبيِّ ﷺ بقول هذا القائف، وما كان عليه السلام بالذي يُسَرُّ بالباطل ولا يُعجِبُه. ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة وإسحاق والثَّوريُّ وأصحابُهم، متمسِّكين بإلغاء النبيِّ ﷺ الشَّبَه في حديث اللِّعان[٥]؛ على ما يأتي في سورة النور[٦] إن شاء الله تعالى.

الخامسة: واختلف الآخذون بأقوال القافة، هل يؤخَذُ بذلك في أولاد الحرائر والإماء أو يختصُّ بأولاد الإماء، على قولين: فالأوّل: قول الشافعيِّ ومالكٍ رضي الله عنهما في رواية ابن وهب عنه، ومشهورُ مذهبه قَصْرُه على ولد الأَمَة، والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعيُّ ﷺ؛ لأن الحديث الذي هو الأصل في الباب إنما وقع في الحرائر، فإن أسامة وأباه حُرَّان فكيف يُلْغَى السببُ الذي خُرِّج

(١) صحيح البخاري (٦٧٧١)، وصحيح مسلم (١٤٥٩): (٣٩). وأخرجه أحمد (٢٤٠٩٩).

(٢) صحيح مسلم بإثر الرواية (١٤٥٩): (٤٠).

(٣) إكمال المعلم ٤/ ٦٥٦ .

(٤) عند تفسير الآية (٤).

(٥) المفهم ٤/ ٢٠٠ .

(٦) عند تفسير الآية (١٠).

عليه دليلُ الحكم وهو الباعثُ عليه، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين. وكذلك اختلف هؤلاء، هل يُكتفَى بقول واحدٍ من القافة أو لابُدَّ من اثنين لأنها شهادة، وبالأوّل قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصُّه. وبالثاني قال مالكٌ والشافعيُّ رضي الله عنهما[١].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي: يُسألُ كلُّ واحدٍ منهم عما اكتسب، فالفؤاد يُسأل عما افتكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع[٢]. وقيل: المعنى أنَّ الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعُه وبصرُه وفؤادُه[٣]؛ ونظيره قوله ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته»[٤] فالإنسان راعٍ على جوارحه، فكأنَّه قال: كلُّ هذه كان الإنسان عنه مسؤولاً، فهو على حذف مضاف. والمعنى الأول أبلَغُ في الحُجَّة؛ فإنه يقع تكذيبُه من جوارحه، وتلك غاية الخزي، كما قال: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

وعبَّر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك؛ لأنها حواسٌّ لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسؤولة، فهي حالةُ من يعقل؛ فلذلك عبَّر عنها بأولئك. وقال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]: إنما قال: «رأيتهم» في نجوم؛ لأنه لمَّا وصفها بالسجود وهو من فِعْلِ مَنْ يعقِلُ عبَّر عنها بكناية مَن يعقل[٥]. وقد تقدَّم. وحكى الزَّجَّاج[٦] أنَّ العرب تُعبِّر عمَّا يعقِلُ وعمَّا لا يعقِلُ بأولئك، وأنشد هو

---

(١) المفهم ٤/ ٢٠١ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٦ .

(٤) سلف ٦/ ٤٢٧ .

(٥) ينظر معناه في كتاب سيبويه ٢/ ٤٧ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣٩ .

والطبري[١]:

ذُمَّ المنازلَ بعد منزلةِ اللِّوى والعيشَ بعد أولئكَ الأيامِ[٢]

وهذا أمرٌ يوقف عنده، وأما البيت فالرواية فيه «الأقوام»[٣]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا نَهْيٌ عن الخُيَلاء وأمرٌ بالتواضع. والمَرَح: شِدَّة الفرح. وقيل: التكبُّر في المشي. وقيل: تجاوز الإنسان قَدْره. وقال قتادة: هو الخُيَلاء في المشي. وقيل: هو البطر والأَشَر. وقيل: هو النشاط[٤]. وهذه الأقوال متقاربةٌ، ولكنَّها منقسمةٌ قسمين: أحدهما مذمومٌ والآخر محمود؛ فالتكبُّر والبَطَر والخُيَلاء وتجاوُزُ الإنسانِ قَدْرَه مذمومٌ، والفرح والنشاط محمود. وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما، ففي الحديث الصحيح: «لَلهُ أفرَحُ بتوبة العبد من رجل...» الحديث[٥]. والكسل مذمومٌ شرعاً والنشاط ضِدُّه. وقد يكون التكبُّر وما في معناه محموداً، وذلك على أعداء الله والظَّلَمة[٦].

أسند أبو حاتم محمد بن حِبَّان عن ابن جابر بن عَتيك، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ

---

(١) في تفسيره ١٤/٥٩٦ .

(٢) قائله جرير، وهو في شرح ديوانه ٢/ ٩٩٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/٤٥٦ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٤٤ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

(٥) أخرجه أحمد (٣٦٢٧)، والبخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ. وأحمد (١٣٢٢٧)، والبخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأحمد (١٨٤٢٣)، ومسلم (٢٧٤٥) من حديث النعمان بن بشير ﷺ. وأحمد (١٨٤٩٢)، ومسلم (٢٧٤٦) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

أنه قال: «إنَّ مِن الغَيْرة ما يُبغِضُ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومنها ما يُحِبُّ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومن الخُيَلاء ما يُحِبُّ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومنها ما يُبغِضُ اللهُ، فأما الغَيْرةُ التي يُحِبُّ اللهُ الغَيْرةُ في الدِّين، والغَيْرةُ التي يُبغِضُ اللهُ الغَيْرةُ في غير دينه، والخُيَلاءُ التي يُحِبُّ اللهُ اختيالُ الرجلِ بنفسه عند القتال وعند الصدقة، والاختيالُ الذي يُبغِضُ اللهُ الخُيَلاءُ في الباطل» وأخرجه أبو داود في مصنَّفه وغيره[١]. وأنشدوا:

ولا تمشِ فوقَ الأرضِ إلا تواضُعاً ... فكم تحتَها قومٌ هُمُ منكَ أرفَعُ

وإن كنتَ في عزٍّ وحِرْزٍ ومَنْعةٍ ... فكم ماتَ من قومٍ هُمُ منكَ أمنَعُ[٢]

الثانية: إقبال الإنسان على الصيد ونحوه تنزُّهاً[٣] دون حاجةٍ إلى ذلك داخلٌ في هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنًى. وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه، يُجمُّ فيها نفسَه في التطرُّح والراحة؛ ليستعين بذلك على شُغلٍ من البِرِّ، كقراءة علمٍ أو صلاةٍ، فليس بداخلٍ في هذه الآية[٤].

قوله تعالى: ﴿مَرَحًا﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء. وقرأت فرقةٌ فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل[٥]. والأول أبلَغُ، فإنَّ قولك: جاء زيدٌ ركْضاً أبلَغُ من قولك: جاء زيدٌ راكضاً، فكذلك قولُكَ: مَرَحاً. والمرَحُ المصدَرُ أبلَغُ من أن يُقال: مَرِحاً[٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: لن تتولَّج باطنَها فتعلمَ ما فيها

---

(١) صحيح ابن حبان (٢٩٥)، وسنن أبي داود (٢٦٥٩)، وسنن النسائي ٥/ ٧٨ - ٧٩ ، ومسند أحمد (٢٣٧٤٧).

(٢) ذكرهما ابن حبان في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص٦١ ، وذكر أن الكريزي أنشده إياهما.

(٣) في (م): ترفعاً.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧ دون قوله: وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنى.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٠ بمعناه.

﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: لن تساويَ الجبالَ بطولك ولا تطاولك[١]. ويقال: خرق الثوبَ أي: شقَّه، وخرق الأرض: قطعها، والخَرْقُ: الواسع من الأرض[٢]. أي: لن تخرق الأرض بكِبْرك ومشيِك عليها، ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ بعظمتك[٣]، أي: بقدرتك لا تبلغ هذا المبلَغَ، بل أنت عبدٌ ذليل، مُحاطٌ بِكَ من تحتك ومن فوقك، والمُحاط محصورٌ ضعيف، فلا يليقُ بك التكبر. والمرادُ بخرق الأرض هنا نقبُها لا قطعها بالمسافة[٤]، والله أعلم. وقال الأزهري: معناه: لن تقطعها[٥]. النحاس[٦]: وهذا أبْيَنُ؛ لأنه مأخوذٌ من الخرق: وهي الصحراء الواسعة. ويُقال: فلانٌ أخْرَقُ من فلان، أي: أكثر سفراً وغزواً منه[٧].

ويُروى أن سَبَأً دوَّخَ الأرض بأجناده شرقاً وغرباً وسَهْلاً وجبلاً، وقتل سادةً وسبى ـ وبه سُمِّيَ سبأ ـ ودانَ له الخلق، فلمَّا رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيامٍ، ثم خرج إليهم فقال: إني لمَّا نِلْتُ ما لم ينَلْ أحدٌ رأيتُ الابتداء بشكر هذه النِّعم، فلم أرَ أوقَعَ في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت، فسجدوا لها، وكان ذلك أوّلَ عبادة الشمس، فهذه عاقبة الخُيَلاء والتكبر والمرَح[٨]، نعوذُ بالله من ذلك.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ «ذلك» إشارة إلى جملة ما تقدَّم ذِكْرُه مما أمر به ونَهَى عنه[٩]. و«ذلك» يصلح للواحد والجمع والمؤنث

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

(٢) تهذيب اللغة ٧/ ٢١ - ٢٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٠٨ ، وزاد المسير ٥/ ٣٦ عن ابن عباس.

(٤) وردَّ هذا القول أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٨٠ .

(٥) تهذيب اللغة ٧/ ٢١ بمعناه.

(٦) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٧ .

(٧) في (م) و(د): وعزةً ومنعةً.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

(٩) الوسيط للواحدي ٣/ ١٠٨ .

والمذكر.

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ومسروق: «سيئُهُ» على إضافة سَيِّئ إلى الضمير؛ ولذلك قال: «مَكْروهاً» نصب على خبر كان[١]. والسيِّئ: هو المكروه، وهو الذي لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ ولا يأمر به[٢]. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآي من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ مأموراتٍ بها ومنهياتٍ عنها، فلا يُخبِرُ عن الجميع بأنه سيِّئة فيدخل المأمور به في المنهيِّ عنه[٣]. واختار هذه القراءة أبو عبيد[٤]. ولأن في قراءة أُبَيٍّ: «كلُّ ذلِك كان سيئاته»[٥] فهذه لا تكون إلا للإضافة.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «سيئةً» بالتنوين، أي: كلُّ ما نهى الله ورسوله عنه سيئة. وعلى هذا انقطع الكلام عند قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، ﴿وَلَا تَمْشِ﴾، ثم قال: ﴿كُلُّ ذلك كان سيّئةً﴾ بالتنوين[٦].

وقيل: إن قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ إلى هذه الآية كان سيئةً لا حسنةَ فيه، فجعلوا «كُلًّا» محيطاً بالمنهيِّ عنه دون غيره. وقوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾ ليس نعتاً لسيئة، بل هو بدلٌ منه، والتقدير: كان سيئةً وكان مكروهاً[٧]. وقد قيل: إنَّ «مكروهاً» خبرٌ ثانٍ لكان حُمِلَ على لفظة كلٍّ، و«سيئةً» محمولٌ على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبلُ. وقال بعضهم: هو نعتٌ لسيئة؛ لأنه لمَّا كان تأنيثُها غيرَ حقيقيٍّ جاز أن تُوصَفَ بمُذكَّر. وضعَّف أبو علي الفارسيُّ هذا وقال: إن المؤنث إذا ذُكِّر فإنما ينبغي

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧، والقراءة عن الأربعة دون مسروق في السبعة ص٣٨٠، والتيسير ص١٤٠.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٦٠٠.

(٣) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٥/ ١٠٢ - ١٠٣.

(٤) تفسير أبي الليث، ووقع في مطبوعه: أبو عبيدة.

(٥) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٦ - ٧٧ ونسبها إلى أبي إسحاق.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٠ - ٢٤١، والقراءة في السبعة ص٣٨٠، والتيسير ص١٤٠.

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١٠٨.

أن يكون ما بعده مذكَّراً، وإنما التساهل أن يتقدَّم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يُسند إلى المذكَّر، ألا ترى قولَ الشاعر:

فـــلا مُـــزنـــةٌ ودَقَـــتْ وَدْقَـــهـــا ولا أرضَ أبـــقَـــلَ إبـــقـــالَـــهـــا[١]

مستقبَحٌ عندهم. ولو قال قائلٌ: «أبقَلَ أرضَ» لم يكن قبيحاً. قال أبو عليّ: ولكن يجوز في قوله: «مكروهاً» أن يكون بدلاً من «سيئة». ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي في «عند ربك» ويكون «عند ربك» في موضع الصفة لسيئة[٢].

الخامسة: استدلَّ العلماء بهذه الآية على ذمِّ الرَّقْصِ وتعاطيه. قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل: قد نصَّ القرآن على النَّهي عن الرقص فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وذمَّ المختال. والرقصُ أشدُّ المرح والبطر، أوَلسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسُّكْر؟ فما بالُنا لا نقيسُ القضيبَ وتلحينَ الشِّعر معه على الطُّنبور والمِزمار والطَّبل لاجتماعهما؟! فما أقبح من ذي لِحْية، وكيف إذا كان شيبةً، يرقص ويُصفِّق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصاً إن كانت أصواتٌ لنسوانٍ ومُردان، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط، ثم هو إلى إحدى الدّارين، يَشْمُس[٣] بالرقص شمس البهائم، ويُصفِّق تصفيق النسوان، ولقد رأيتُ مشايخَ في عمري ما بان لهم سِنٌّ من التبسُّم فضلاً عن الضحك مع إدمان مخالطتي لهم. وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: ولقد حدَّثني بعض المشايخ عن الإمام الغزالي ﷺ أنه قال: الرقص حماقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب[٤].

---

(١) قائله عامر بن جوين الطائي، وهو في كتاب سيبويه ٢/ ٤٦ ، والكامل ٢/ ٨٤١ ، والخصائص ٢/ ٤١١ ، والخزانة ١/ ٤٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧ - ٤٥٨ ، وينظر كلام أبي علي الفارسي بمعناه في الحجة للقراء السبعة ٥/ ١٠٢ - ١٠٣ .

(٣) يقال: شَمَسَتِ الدابة: إذا شردت وجمحت ومنعت ظهرها. اللسان (شمس).

(٤) تلبيس إبليس ص٢٥٠ - ٢٥١ .

وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيانٍ في الكهف[١] وغيرها[٢] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

الإشارة: بـ «ذلك» إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام، أي: هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله عزَّ وجلَّ في عباده، وخَلْقِه لهم من محاسن الأخلاق، والحكمة: قوانين المعاني المُحكمة والأفعال الفاضلة. ثم عطف قوله: «ولا تجعل» على ما تقدَّم من النواهي. والخطاب للنبيِّ ﷺ والمرادُ كلُّ مَنْ سمع الآية من البشر. والمدحور: المُهان المُبعَدُ المُقْصَى[٣]. وقد تقدَّم في هذه السورة[٤]. ويُقال في الدعاء: اللهم ادْحَرْ عنَّا الشيطان؛ أي: أبعِدْه[٥].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

هذا يردُّ على من قال من العرب: الملائكةُ بنات الله، وكان لهم بناتٌ أيضاً مع البنين، ولكنه أراد: أفأخْلَصَ لكم البنين دونه، وجعل البناتِ مشتركةً بينكم وبينه[٦]. ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي: في الإثم عند الله عزَّ وجلَّ[٧].

---

(١) عند تفسير الآية (١٤) في الكلام على المسألة الثانية.

(٢) عند تفسير الآية (٦) من سورة لقمان.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٢٥٨ ، وفي النسخ: «وخلقها» بدل «وخلقه»، و«وقوانين» بدل «قوانين».

(٤) ١٣/٤٨ .

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥٥ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/١٥٨ .

(٦) زاد المسير ٥/ ٣٧ ، ومجمع البيان ١٥/ ٥١ .

(٧) الوسيط ٣/١٠٨ ، ومجمع البيان ١٥/ ٥١ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: بيَّنا. وقيل: كرَّرنا. ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ قيل: «في» زائدة، والتقدير: ولقد صرَّفنا هذا القرآن[1]؛ مثلُ: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ [الأحقاف: ١٥] أي: أصلح ذريتي. والتصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة[2]. والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير. وقيل: المغايرة، أي: غايرنا بين المواعظ ليذَّكروا ويعتبروا ويتَّعظوا[3]. وقراءة العامة: «صَرَّفنا» بالتشديد على التكثير حيث وقع. وقرأ الحسن بالتخفيف[4]. وقوله: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني الأمثال والعِبَر والحِكَم والمواعظ والأحكام والإعلام[5]. قال الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب: لقوله تعالى: «صرفنا» معنيان؛ أحدهما: لم يجعله نوعاً واحداً، بل وعداً ووعيداً، ومُحْكَماً ومتشابهاً، ونهياً وأمراً، وناسخاً ومنسوخاً، وأخباراً وأمثالاً، مثلُ تصريف الرياح من صَباً ودَبُور وجنوبٍ وشمال، وتصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنَّهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها. والثاني: أنه لم ينزل مرةً واحدةً بل نجوماً، نحو قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] ومعناه: أكثَرْنا صرفَ جبريل عليه السلام إليك. ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي: «لِيَذْكُروا» مخفَّفاً، وكذلك في الفرقان [الآية: ٥٠]: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾. الباقون بالتشديد[6]. واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ معناه: ليتذكَّروا وليتَّعظوا. قال المَهْدوِيُّ: من شدَّد «ليَذَّكَّروا» أراد التدبر. وكذلك من قرأ «لِيَذْكُروا». ونظير

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٨ ، وضعَّفه.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ٢١٦ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٤٤ .

(٤) المحتسب ٢/ ٢١ ، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٦٠٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٨ .

(٦) السبعة ص٣٨٠ ، والتيسير ص١٤٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٨ .

الأول ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١] والثاني: ﴿وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣]. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: التصريف والتذكير ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: تباعداً عن الحقِّ وغفلةً عن النظر والاعتبار؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلةٌ وسحرٌ وكَهانةٌ وشعر.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ هذا متصلٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهو ردٌّ على عُبَّاد الأصنام. ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ قرأ ابن كَثير وحفص: «يقولون» بالياء. الباقون: «تقولون» بالتاء على الخطاب[1]. ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا﴾ يعني الآلهة. ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قال ابن العباس رضي الله تعالى عنهما: لَطلبوا مع الله منازعةً وقتالاً كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض[2]. وقال سعيد بن جُبير رضي الله تعالى عنه: المعنى: إذاً لطلبوا طريقاً إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه؛ لأنهم شركاؤه[3]. وقال قَتادة: المعنى: إذاً لابْتغَتِ الآلهةُ القُرْبةَ إلى ذي العرش سبيلاً، والتمستِ الزُّلْفةَ عنده؛ لأنهم دونه[4]، والقوم اعتقدوا أنَّ الأصنام تُقرِّبهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقدوا في الأصنام أنها محتاجةٌ إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ نزَّه سبحانه نفسَه وقدَّسه ومجَّده عما لا يليق به. والتسبيح: التنزيه. وقد تقدّم[5].

---

(١) السبعة ص٣٨١، والتيسير ص١٤٠.

(٢) مجمع البيان ٢٠/٥٣، وذكره أبو الليث ٢/٢٦٩ عن مقاتل.

(٣) النكت والعيون ٣/٢٤٥.

(٤) مجمع البيان ١٥/٥٣.

(٥) ١/٤١٢.

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أعاد على السماوات والأرض ضميرَ من يعقل، لمَّا أسند إليها فِعْلَ العاقل وهو التسبيح. وقوله: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يريد الملائكةَ والإنسَ والجِنَّ، ثم عمَّ بعد ذلك الأشياء كلَّها في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[١]. واختلف في هذا العموم، هل هو مخصَّصٌ أم لا، فقالت فرقة: ليس مخصوصاً، والمراد به تسبيح الدلالة، وكلُّ مُحدَثٍ يشهد على نفسه بأنَّ الله عزَّ وجلَّ خالقٌ قادر[٢]. وقالت طائفة: هذا التسبيح حقيقة، وكلُّ شيءٍ على العموم يُسبِّح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان ما قاله الأوَّلون[٣] من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمراً مفهوماً[٤]، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفقه. وأُجيبوا بأن المراد بقوله: «لا تفقهون» الكفارُ الذين يُعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء. وقالت فرقة: قوله «مِنْ شَيْء» عموم، ومعناه الخصوص في كل حَيٍّ ونامٍ، وليس ذلك في الجمادات. ومن هذا قول عكرمة: الشجرة تُسبِّح والأسطوان لا يُسبِّح. وقال يزيد الرَّقَاشِيُّ للحسن وهما في طعام وقد قُدِّم الخِوان: أَيُسبِّح هذا الخِوانُ يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يُسبِّحُ مرَّةً. يريد أنَّ الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تُسبِّح، وأما الآن فقد صار خِواناً مدهوناً[٥].

قلت: ويُستَدلُّ لهذا القول من السُّنَّة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيَّ ﷺ مرَّ على قبرين فقال: «إنهما لَيُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبير، أما

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٩ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١٠٩ .

(٣) في المحرر الوجيز: الآخرون.

(٤) في المحرر الوجيز: مفقوهاً.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٩ ، وأثر عكرمة أخرجه الطبري ١٤/ ٦٠٥ ، وأثر الحسن أخرجه الطبري ١٤/ ٦٠٦ .

أحدُهما فكان يمشي بالنَّميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول» قال: فدعا بعَسِيبٍ رَطْبٍ فشقَّه اثنين، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً، ثم قال: «لعلَّه يُخفِّفُ عنهما ما لم يَيْبَسَا»[١]. فقوله عليه الصلاة والسلام: «ما لم ييبسا» إشارةٌ إلى أنهما ما داما رطبين يُسبِّحان، فإذا يبِسا صارا جماداً. والله أعلم. وفي «مسند أبي داود الطيالسي»: فوضع على أحدهما نصفاً وعلى الآخر نصفاً، وقال: «لعلَّه أن يُهوِّن عليهما العذابَ ما دام فيهما من بلولتهما شيء»[٢]. قال علماؤنا: ويُستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خُفِّفَ عنهم بالأشجار، فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن؟! وقد بيَّنَّا هذا المعنى في كتاب «التذكرة»[٣] بياناً شافياً، وأنه يصل إلى الميت ثوابُ ما يُهْدَى إليه. والحمد لله على ذلك. وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن كلَّ شيءٍ من الجماد وغيره يُسبِّح.

قلت: ويستدلّ لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٧-١٨]، وقولِه: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] ـ على قول مجاهد ـ وقولِه: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١]. وذكر ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا مِسْعَر، عن عبد الله بن واصل، عن عون[٤] بن عبد الله قال: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إنَّ الجبل ليقول للجبل: يا فلان، هل مرَّ بِكَ اليومَ ذاكرٌ لله عزَّ وجلَّ؟ فإن قال: نعم، سُرَّ به. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] الآيات. قال: أفتراهنَّ يَسمَعْنَ الزُّور ولا يَسمَعْنَ الخير[٥]. وفيه عن أنس

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٨٠)، والبخاري (٦٠٥٢)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) مسند الطيالسي (٨٦٧) من حديث أبي بكرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٠٤١١).

(٣) ص١٥٠ .

(٤) تصحف اسم عون في النسخ سوى (ظ) إلى عوف.

(٥) الزهد لابن المبارك (٣٣٣)، عبد الله بن واصل مجهول تفرد بالرواية عنه مسعر بن كدام كما في التاريخ الكبير ٥/ ٢١٩ ، والجرح والتعديل ٥/ ١٩٢ ، وذكره ابن حبان في الثقات ٧/ ٥٧ على عادته في توثيق المجاهيل. وعون بن عبد الله لم يدرك عبد الله بن مسعود. قاله الترمذي في سننه عقب الحديث (١٢٧٠).

ابن مالك ﷺ قال: ما من صباحٍ ولا رواحٍ إلا تُنادي بقاعُ الأرض بعضُها بعضاً: يا جاراه، هل مَرَّ بِكِ اليومَ عبدٌ فصلَّى للهِ أو ذكر اللهَ عليكِ؟ فمِن قائلةٍ: لا، ومن قائلةٍ: نعم، فإذا قالت: نعم، رأت لها بذلك فضلاً عليها[١]. وقال رسول الله ﷺ: «لا يَسمَعَ صوتَ المؤذن جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شجرٌ ولا حَجَرٌ ولا مَدَرٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة». رواه ابن ماجه في «سننه»، ومالك في «موطَّئه» من حديث أبي سعيد الخُدْريِّ ﷺ[٢]. وخرَّج البخاريُّ عن عبد الله ﷺ قال: لقد كُنَّا نسمع تسبيحَ الطعام وهو يؤكل[٣]. في غير هذه الرواية عن ابن مسعود ﷺ: كنَّا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحَه[٤]. وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن سَمُرَة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأَعرِفُ حجراً بمكة كان يُسلِّمُ عليَّ قبل أن أُبعَثَ، إني لأعرِفُه الآن»[٥]. قيل: إنه الحجر الأسود، والله أعلم. والأخبار في هذا المعنى كثيرة؛ وقد أتينا على جملةٍ منها في اللُّمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية للفاداري رحمه الله، وخبر الجذع أيضاً مشهورٌ في هذا الباب خرَّجه البخاري في مواضع من كتابه[٦]. وإذا ثبت ذلك في جمادٍ واحدٍ جاز في جميع الجمادات، ولا استحالة في شيءٍ من ذلك، فكلُّ شيءٍ يُسبِّح للعموم. وكذا قال النَّخَعِيُّ وغيره: هو عامٌّ فيما فيه روحٌ وفيما لا روح فيه حتى صرِير الباب[٧]. واحتجُّوا بالأخبار التي ذكرنا. وقيل: تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول: سبحان الله! لعدم الإدراك منها. وقال الشاعر:

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٥) عن صالح المري، عن جعفر بن زيد، عن أنس. صالح المري: هو ابن بشير، وهو ضعيف جداً. الميزان ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) سنن ابن ماجه (٧٢٣)، والموطأ ١/ ٦٩ . وأخرجه أحمد (١١٣٠٥)، والبخاري (٦٠٩).

(٣) صحيح البخاري (٣٥٧٩). وأخرجه أحمد (٤٣٩٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٣٣)، وابن خزيمة (٢٠٤)، والطبراني في الأوسط (٤٤٩٨).

(٥) صحيح مسلم (٢٢٧٧).

(٦) صحيح البخاري (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (٥٨٨٦).

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٤٥ ، وزاد المسير ٥/ ٣٩ .

تُلْقَى بتسبيحةٍ من حيثُ ما انصرفَتْ وتَستقِرُّ حَشَا الرائي بتَرْعادِ[١]

أي: يقول من رآها: سبحانَ خالقِها. فالصحيح أنَّ الكلَّ يُسبِّح؛ للأخبار الدالَّة على ذلك، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأيُّ تخصيصٍ لداود، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا. وقد نصَّتِ السُّنَّةُ على ما دلَّ عليه ظاهر القرآن من تسبيح كلِّ شيءٍ، فالقول به أوْلى. والله أعلم.

وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخَلَف: «تفقهون» بالتأء لتأنيث الفاعل. الباقون بالياء[٢]، واختاره أبو عبيد، قال: للحائل بين الفعل والتأنيث. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن ذنوب عباده في الدنيا ﴿غَفُورًا﴾ للمؤمنين في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾

عن أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنهما قالت: لمَّا نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أقبلتِ العَوْراءُ أمُّ جميل بنت حرب ولها وَلْوَلةٌ وفي يدها فِهْرٌ وهي تقول:

* مُذَمَّماً أبَيْنا * وَدِينَه قَلَيْنَا * وأمرَه عصَيْنا *

والنبيُّ ﷺ قاعدٌ في المسجد ومعه أبو بكر ﷺ، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبلتْ وأنا أخافُ أن تراك! قال رسول الله ﷺ: «إنَّها لن تراني» وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال. وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٤٥، والبيت قائله بشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٢٣١ بلفظ:

تُلقى بتسبيحةٍ من حُسنِ ما خُلِقَتْ وتستفِزُّ حشا الرائي بإرعادِ

(٢) لم نقف على من قرأ «تفقهون» بالياء، والظاهر أن المصنف وهم في ذلك، والصحيح أن كلامه هذا ينبغي أن يعود على قوله: «تسبح»، فقد قرأها هكذا أبو عمرو وعاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر: «يُسبِّح» بالياء. ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٠.

بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فوقفت على أبي بكر ﷺ ولم ترَ رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، أُخبِرتُ أنَّ صاحبكَ هجاني. فقال: لا ورَبِّ هذا البيت ما هجاكِ. قال: فولَّت وهي تقول: قد علِمَتْ قريشٌ أني ابنةُ سيِّدِها[1]. وقال سعيد بن جُبير ﷺ: لمَّا نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءتِ امرأةُ أبي لهبٍ إلى النبيِّ ﷺ ومعه أبو بكرٍ ﷺ، فقال أبو بكر: لو تَنَحَّيْتَ عنها لئلا تُسمِعَكَ ما يؤذيك، فإنها امرأةٌ بذِيَّة. فقال النبيُّ ﷺ: «إنه سيُحال بيني وبينها» فلم ترَه. فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبُكَ. فقال: واللهِ ما ينطِقُ بالشعر ولا يقولُه. فقالت: وإنَّكَ لمُصدِّقه. فاندفعت راجعة. فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، أمَا رأتْكَ؟ قال: «لا، ما زال ملَكٌ بيني وبينها يسترني حتى ذهبت»[2]. قال كعب ﷺ في هذه الآية: كان النبيُّ ﷺ يستتر من المشركين بثلاث آيات: الآية التي في الكهف [٥٧] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، والآية التي في النحل [١٠٨] ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾، والآية التي في الجاثية [٢٣] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ الآية. فكان النبيُّ ﷺ إذا قرأهُنَّ يستترُ من المشركين. قال كعب رضي الله تعالى عنه: فحدَّثتُ بهنَّ رجلاً من أهل الشأم، فأتى أرضَ الروم فأقام بها زماناً، ثم خرج هارباً، فخرجوا في طلبه، فقرأ بهنَّ، فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه. قال الثعلبي: وهذا الذي يروُونه عن كعب حدَّثتُ به رجلاً من أهل الريِّ فأُسِرَ بالدَّيْلَم، فمكث فيهم زماناً، ثم خرج هارباً، فخرجوا في طلبه، فقرأ بهنَّ حتى جعلت ثيابُهنَّ لتلمِسُ ثيابه فما يبصرونه.

---

(١) أخرجه الحميدي (٣٢٣)، والأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣١٦ ، وأبو يعلى (٥٣)، والحاكم ٢/ ٣٦١ . وفي المصادر بعد قوله: «ودينه قلينا» «وأمره عصينا». الولولة: صوت متتابع بالويل والاستغاثة. والفهر: هو الحجر ملء الكف، أو الحجر مطلقاً. اللسان (ولول) و(فهر).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٤٩٨ - ٤٩٩ ، وأبو نعيم في الدلائل (١٤٠) من طريق محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير.

وأخرجه البزار (١٥)، وأبو يعلى (٢٥)، وابن حبان (٦٥١١) من طريق عبد السلام بن حرب، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

قلت: ويُزاد إلى هذه الآي أوّلُ سورة يس إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. فإنَّ في السيرة في هجرة النبيِّ ﷺ ومقامِ عليٍّ ﷺ في فراشه قال: وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حَفْنةً من تراب في يده، وأخذ الله عزَّ وجلَّ على أبصارهم عنه فلا يَرَوْنه، فجعل ينثرُ ذلك الترابَ على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس: ﴿يسٓ . وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبقَ منهم رجلٌ إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيثُ أراد أن يذهب[1].

قلت: ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور[2] من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت أمام العدوِّ وانحزتُ إلى ناحيةٍ عنه، فلم ألبَثْ أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعدٌ ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليَّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا دِيَبْلُه، يعنون شيطاناً. وأعمى الله عزَّ وجلَّ أبصارَهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك.

وقيل: الحجاب المستور: طَبْعُ اللهِ على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يُدركوا ما فيه من الحكمة. قاله قتادة. وقال الحسن: أي: إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلِهم عنك كمن بينك وبينه حجابٌ في عدم رؤيته لك حتى كأنَّ على قلوبهم أغطية[3]. وقيل: نزلت في قومٍ كانوا يؤذون رسولَ الله ﷺ إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأمُّ جميل ـ امرأة أبي لهب ـ وحُوَيطب، فحجبَ الله سبحانه وتعالى رسولَه ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرُّون به ولا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٣ .

(٢) كذا في جميع النسخ، ولم نقف على مكانٍ بهذا الاسم، ولعله «حصن المدور» كما في معجم البلدان ٥/ ٧٧ ، والكامل ٥/ ١٢٦ ، ونفح الطيب ١/ ٥٥ و ٣/ ٣٨ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٤٦ .

يرونه[١]. قاله الزَّجَّاج وغيره[٢]. وهو معنى القول الأوَّل بعينه، وهو الأظهر في الآية، والله أعلم.

وقوله: ﴿مَّسْتُورًا﴾ فيه قولان: أحدهما ـ أنَّ الحجاب مستور عنكم لا ترونه. والثاني ـ أنَّ الحجاب ساترٌ عنكم ما وراءه، ويكون مستوراً بمعنى ساتر[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ «أكِنة» جمع كِنان، وهو ما ستر الشيء. وقد تقدم في «الأنعام»[٤]. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه[٥]، أي: أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحِكم والمعاني. وهذا ردٌّ على القدرية. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً وثِقلاً[٦]. وفي الكلام إضمار، أي: أن يسمعوه. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي: قلتَ: لا إله إلا الله وأنتَ تتلو القرآن[٧]. وقال أبو الجَوْزاء أوْس بن عبد الله: ليس شيء أطْرَدَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾[٨]. وقال علي بن الحسين: هو قوله: بسم الله الرحمن الرحيم. وقد تقدم هذا في البسملة[٩]. ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ قيل: يعني: بذلك المشركين. وقيل: الشياطين[١٠]. و«نُفُوراً» جمع نافر،

---

(١) زاد المسير ٥/ ٤١.

(٢) قول الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٢٤٣ بلفظ: الحجاب: منع الله إيَّاهم من النبي عليه الصلاة والسلام.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٤٦.

(٤) ٨/ ٣٤٤ - ٣٤٥.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١١٧، وينظر ٨/ ٣٤٥.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٠.

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٠.

(٨) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ١٦٠ بمعناه.

(٩) ١/ ١٤٣.

(١٠) زاد المسير ٥/ ٤١، وذكر الأول عن ابن زيد والثاني عن ابن عباس.

مثل: شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد، فهو منصوبٌ على الحال. ويجوز أن يكون مصدراً على غير الصدر، إذ كان قوله: «وَلَّوْا» بمعنى نفروا، فيكون معناه: نفروا نفوراً[١].

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ قيل: الباء زائدة في قوله: «به» أي: يستمعونه[٢]. وكانوا يستمعون من النبيِّ ﷺ القرآن، ثم ينفرون فيقولون: هو ساحر ومسحور، كما أخبر الله تعالى به عنهم. قاله قتادة وغيره. ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي: مُتناجون في أمرك[٣]. قال قتادة: وكانت نجواهم قولهم: إنه مجنون، وإنه ساحر، وإنه يأتي بأساطير الأوّلين، وغير ذلك[٤]. وقيل: نزلت حين دعا عُتْبةُ أشرافَ قريشٍ إلى طعامٍ صنعه لهم، فدخل عليهم النبيُّ ﷺ وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله؛ فتناجوا، يقولون: ساحر ومجنون. وقيل: أمرَ النبيُّ ﷺ عليًّا أن يتَّخِذَ طعاماً ويدعوَ إليه أشرافَ قريشٍ من المشركين، ففعل ذلك عليٌّ، ودخل عليهم رسولُ الله ﷺ، وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى التوحيد، وقال: «قولوا لا إله إلا الله؛ لِتُطيعَكمُ العَربُ وتدينَ لكم العجم» فأبَوْا، وكانوا يستمعون من النبيِّ ﷺ ويقولون بينهم مُتناجين: هو ساحرٌ وهو مسحور، فنزلت الآية[٥].

وقال الزَّجَّاج: النَّجْوَى اسم للمصدر، أي: وإذ هم ذَوو نجوى[٦]، أي: سرار[٧].

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٦ ، وزاد المسير ٥/ ٤١ . وقول النصب على الحال قاله مكي بن أبي طالب في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٣٢ .

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١١١ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٤٢ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١١٨ .

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ٦١٢ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ١١١ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٤٢ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٢٣ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٣ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦١ .

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أبو جهل والوليد بن المُغِيرة وأمثالهما .﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي: مَطْبُوباً قد خبلَه السِّحرُ فاختلط عليه أمره، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس[١]. وقال مجاهد: «مسحوراً» أي: مخدوعاً، مثلُ قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] أي: من أين تُخدَعون[٢].

وقال أبو عبيدة: «مسحوراً» معناه أنَّ له سَحْراً، أي رِئة، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب، فهو مِثْلُكم وليس بمَلَك. وتقول العرب للجبان: قد انتفخَ سَحْرُه. ولكلِّ مَنْ أكل من آدميٍّ وغيرِه أو شربَ: مسحورٌ ومُسَحَّر؛ قال لبيد[٣]:

فإن تسألينا فِيمَ نحنُ فإنَّنا عصافيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ

وقال امرؤ القيس:

أَرانا مُوضِعينَ لأمرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطعامِ وبالشَّرابِ[٤]

أي: نُغَذَّى ونُعَلَّل[٥]. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: مَن هذه التي تُساميني من أزواج النبيِّ ﷺ، وقد تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ بين سَحْري ونَحْري[٦]؟!

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١١٨ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥٦ ، وقول مجاهد ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ١٦١ ، والبغوي ٣/ ١١٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٢ .

(٣) في ديوانه ص٥٦ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص٩٧ . قال شارحه: «نرى أنفسنا موضعين» أي: مسرعين. «لأمر غيبٍ» أي: للموت المُغيَّب، أي: نسرع في آجالنا وقد غُيِّب عنا وقت انقضائها.

(٥) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٨١-٣٨٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٦١ ، وزاد المسير ٥/ ٤٢-٤٣ . واستدلَّ ابن قتيبة في الغريب ص٢٥٦ ، والنحاس في المعاني ٤/ ١٦١ بهذا البيت لقول مجاهد، والمعنى: نُخدع. وتعقَّب ابنُ قتيبة أبا عبيدة في تفسيره فقال: ولستُ أدري ما اضطرَّه إلى هذا التفسير المُستكرَه؟! وقد سبق التفسير من السلف بما لا استكراه فيه.

(٦) لم نقف على من خرَّجه بهذا اللفظ، وقولها: «توفي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري» أخرجه أحمد (٢٤٩٠٥)، والبخاري (١٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ عجَّبه من صنعهم كيف يقولون تارةً ساحرٌ وتارةً مجنون وتارةً شاعر[١]. ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: حِيلةً في صدِّ الناس عنك[٢]. وقيل: ضَلُّوا عن الحقِّ فلا يجدون سبيلاً، أي إلى الهدى[٣]. وقيل: مخرجاً؛ لتناقض كلامهم في قولهم: مجنون، ساحر، شاعر[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ أي: قالوا وهم يتناجَوْن لمَّا سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث: لو لم يكن مسحوراً مخدوعاً لما قال هذا. قال ابن عباس: الرُّفات: الغبار[٥]. مجاهد: التراب[٦]. والرُّفات: ما تكسَّر وبَلِيَ من كل شيء، كالفُتات والحُطام والرُّضاض. عن أبي عبيدة والكسائيّ والفَرَّاء والأخفش[٧]. تقول منه: رُفِتَ الشيء رَفْتاً، أي حُطِم؛ فهو مرفوت[٨]. ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ «أئِنَّا» استفهام والمراد به الجَحْد والإنكار[٩]. و«خلقاً» نُصِبَ لأنه مصدر[١٠]؛ أي: بعثاً جديداً. وكان هذا غايةَ الإنكار منهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٦١٣ .

(٢) مجمع البيان ١٥/ ٥٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٢ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧١ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٦١٣ عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري ١٤/ ٦١٤ .

(٦) وهو في تفسيره ١/ ٣٦٣ ، وأخرجه عنه الطبري ١٤/ ٦١٤ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٥ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٨٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٢ - ١٦٣ ، وهو قول الزجاج في المعاني ٣/ ٢٤٤ .

(٨) تفسير الطبري ١٤/ ٦١٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٦٢ .

(٩) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ١١١ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٧ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي: قل لهم يا محمد: كونوا ـ على جهة التعجيز ـ حجارةً أو حديداً في الشدَّة والقوة[١]. قال الطبري: أي: إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارةً أو حديداً إن قَدرتم. وقال عليُّ بن عيسى: معناه: أنكم لو كنتم حجارةً أو حديداً لم تفوتوا اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أرادكم، إلا أنَّه خرج مخرج الأمر؛ لأنه أبلَغُ في الإلزام. وقيل: معناه: لو كنتم حجارةً أو حديداً لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم[٢]. وقال مجاهد: المعنى: كونوا ما شئتم فستُعادون[٣]. النحاس[٤]: وهذا قولٌ حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة، وإنما المعنى أنهم قد أقرُّوا بخالقهم وأنكروا البعث، فقيل لهم: استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارةً أو حديداً لبُعِثْتُم كما خُلِقْتُم أوّل مرة.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد: يعني السماوات والأرض والجبال[٥]؛ لعِظَمِها في النفوس. وهو معنى قول قتادة، يقول: كونوا ما شئتم، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم[٦]. وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن جُبير ومجاهد أيضاً وعكرمة وأبو صالح والضحاك: يعني الموت[٧]؛ لأنه ليس شيءٌ أكبرَ في نفس ابن آدم منه؛ قال أُمَيّة بن أبي الصَّلت:

---

(١) مجمع البيان ١٥/ ٥٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٤٨ ، وينظر قول الطبري في تفسيره ١٤/ ٦١٥ بمعناه.

(٣) وهو في تفسيره ١/ ٣٦٣ ، وأخرجه عنه الطبري ١٤/ ٦١٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٤/ ١٦٣ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٦١٨ .

(٧) أخرجه الطبري ١٤/ ٦١٦ - ٦١٧ عن جميعهم سوى مجاهد وعكرمة.

وللمَوْتُ خَلْقٌ في النفوسِ فَظيعُ[١]

يقول: إنكم لو خُلقتم من حجارةٍ أو حديدٍ أو كنتم الموتَ لأُميتَنَّكم ولأبعثنكم؛ لأن القدرة التي بها أنشأتكم بها نعيدكم[٢]. وهو معنى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وفي الحديث أنه «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كَبْشٍ أمْلَحَ، فيُذبحُ بين الجنة والنار»[٣]. وقيل: أراد به البعث؛ لأنه كان أكبرَ في صدورهم. قاله الكلبي[٤]. ﴿فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم وأنشأكم. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحرِّكون رؤوسهم استهزاءً[٥]، يقال: نَغَض رأسُه يَنْغُضُ ويَنْغِضُ نَغْضاً ونُغوضاً، أي: تحرَّك. وأنغَضَ رأسَه أي: حرَّكه، كالمتعجِّبِ من الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾[٦].

قال الراجز:

أنغضَ نحوي رأسَه وأقنَعا[٧]

ويقال أيضاً: نغضَ فلانٌ رأسَه أي: حرَّكه، يتعدَّى ولا يتعدَّى. حكاه الأخفش[٨]. ويقال: نَغَضتْ سِنُّه، أي: تحرَّكت وانقلعت.

قال الراجز:

ونغضَتْ من هَرَمٍ أسنانُها

---

(١) من أول الفقرة إلى هنا في النكت والعيون ٣/ ٢٤٨، وصدر البيت: «نادَوا إلههم ليُسرعَ خلْقَهم».

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٢ بمعناه.

(٣) سلف ١٠/ ١٩٢.

(٤) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٤٨.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٢، والنكت والعيون ٣/ ٢٤٨، وتفسير البغوي ٣/ ١١٩. وأخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٠ عن ابن عباس وقتادة.

(٦) الصحاح (نغض).

(٧) تتمته: «كأنما أبصر شيئاً أطمعا»، وقد سلف ١٢/ ١٥٩.

(٨) الصحاح (نغض).

وقال آخر:

لـمَّـا رأتْـني أنـغـضَـتْ لـيَ الـرأسـا[١]

وقال آخر:

لا مـاءَ فـي الـمَـقْـراةِ إن لـم تـنـهـضِ بـمَـسَـدٍ فـوقَ الـمَـحـالِ الـنُّـغَّـضِ[٢]

المحال والمحالة: البكرة العظيمة التي تَستَقي بها الإبل[٣].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: البعث والإعادة. وهذا الوقت ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب؛ لأنَّ عسى واجب[٤]، نظيره: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣]. و﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى:١٧]. وكلُّ ما هو آتٍ فهو قريب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ الدعاء النداء إلى المحشر بكلامٍ تسمعه الخلائق، يدعوهم اللهُ تعالى فيه بالخروج. وقيل: بالصيحة التي يسمعونها، فتكون داعيةً لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة[٥]. قال ﷺ: «إنكم تُدْعَون يوم القيامة بأسمائكم وأسماءِ آبائكم فأحسنوا أسماءكم»[٦]. ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: باستحقاقه الحمد على الإحياء، وقال أبو سهل: أي: والحمد لله، كما قال:

فـإنـي بـحـمـد الـلـه لا ثـوبَ فـاجـرٍ لـبِـسْـتُ ولا مـن غَـدْرةٍ أتـقـنَّـعُ[٧]

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨٢ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٢٠ .

(٢) الصحاح (نغض).

(٣) الصحاح (محل).

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٦٢١ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١١١ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٤٨ .

(٦) أخرجه أحمد (٢١٦٩٣)، وأبو داود (٤٩٤٨) من طريق عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي، عن أبي الدرداء مرفوعاً. إسناده منقطع؛ عبد الله بن أبي زكريا لم يسمع من أبي الدرداء. المراسيل ص٩٨ .

(٧) قائله غيلان بن سلمة الثقفي كما في تفسير البغوي ٤/ ٤١٣ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٤٠٠ .

وقيل: حامدين لله تعالى بألسنتكم[١]. قال سعيد بن جُبير: يخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون: سبحانك وبحمدك، ولكن لا ينفعهم اعترافٌ ذلك اليوم[٢]. وقال ابن عباس: «بحمده»: بأمره[٣]، أي: تُقِرُّون بأنه خالِقُكم[٤]. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته[٥]. وقيل: المعنى: بقدرته. وقيل: بدعائه إيَّاكم[٦]. قال علماؤنا: وهو الصحيح؛ فإنَّ النفخ في الصور إنما هو سببٌ لخروج أهل القبور، وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ فيقومون يقولون: سبحانك اللهمَّ وبحمدك. قال: فيوم القيامة يوم يُبدأ بالحمد ويُختم به؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ وقال في آخره: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني بين النفختين؛ وذلك أنَّ العذاب يُكَفُّ عن المعذَّبين بين النفختين، وذلك أربعون عاماً فينامون، فذلك قوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢] فيكون خاصًّا للكفار. وقال مجاهد: للكافرين هَجْعةٌ قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صِيحَ بأهل القبور قاموا مذعورين[٧]. وقال قتادة: المعنى: أنَّ الدنيا تحاقرت في أعينهم وقلَّتْ حين رأوا يوم القيامة. الحسن: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في الدنيا؛ لطول لبثكم في الآخرة[٨].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٤٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٧ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١١٢ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٤٥ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٢ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٥ .

(٥) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٢ .

(٦) ذكرهما الطبري في تفسيره ١٤/ ٦٢٢ قولا واحداً.

(٧) أخرجه هناد في الزهد (٣١٧).

(٨) النكت والعيون ٣/ ٢٤٩ ، وأخرج قول قتادة الطبري ١٤/ ٦٢٣ .

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تقدَّم إعرابه[١]. والآية نزلت في عمر بن الخطاب، وذلك أنَّ رجلاً من العرب شتمه، وسبَّه عمر وهَمَّ بقتله، فكادت تثير فتنة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ وابن عطية والواحدي[٢]. وقيل: نزلت لمَّا قال المسلمون: إيذن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طالَ إيذاؤهم إيَّانا. فقال: «لم أُومَرْ بعدُ بالقتال» فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. قاله الكلبي[٣]. وقيل: المعنى: قل لعبادي الذين اعترفوا بأنِّي خالِقُهم وهم يعبدون الأصنام، يقولوا التي هي أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة. وقيل: المعنى: وقل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد، أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن. كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٤] [الأنعام: ١٠٨]. وقال الحسن: هو أن يقول للكافر إذا تشطط: هداك الله! يرحمك الله! وهذا قبل أن أُمِروا بالجهاد[٥]. وقيل: المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه[٦]؛ وعلى هذا تكون الآيةُ عامّةً في المؤمن والكافر، أي: قل للجميع. والله أعلم. وقالت طائفة: أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصَّةً بحسن الأدب، وإلانة القول، وخفض الجناح، واطِّراح نزغات الشيطان، وقد قال ﷺ: «وكونوا عباد الله إخوانا»[٧]. وهذا أحسن،

---

(١) ١٢/ ١٤٣.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٤٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٦٤، ولم نقف عليه عند الواحدي.

(٣) ونقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ١١٢.

(٤) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٢٨ بمعناه.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١١٩، وقول الحسن في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٤، والوسيط للواحدي ٣/ ١١٢، وزاد المسير ٥/ ٤٧، وأخرجه الطبري بنحوه ١٤/ ٦٢٣ - ٦٢٤.

(٦) مجمع البيان ١٥/ ٦١.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٤. والحديث أخرجه أحمد (٧٧٢٧)، والبخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وتكون الآيةُ محكمةً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء. وقد تقدَّم في آخر الأعراف ويوسف[١]. يقال: نزغ بيننا أي: أفسد. قاله اليزيدي. وقال غيره: النزغ: الإغراء. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: شديد العداوة. وقد تقدَّم في البقرة[٢]. وفي الخبر «أنَّ قوماً جلسوا يذكرون الله عزَّ وجلَّ، فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم، فمنعته الملائكة، فجاء إلى قومٍ جلسوا قريباً منهم لا يذكرون الله، فحرَّشَ بينهم، فتخاصموا وتواثبوا، فقال هؤلاء الذاكرون: قوموا بنا نُصلِحْ بين إخواننا، فقاموا وقطعوا مجلِسَهم، وفرح بذلك الشيطان». فهذا من بعض عداوته.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ هذا خطابٌ للمشركين، والمعنى: إن يشأ يوفِّقكم للإسلام فيرحمكم، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم. قاله ابن جُريج[٣].

و«أعلم» بمعنى عليم، نحو قولهم: الله أكبر، بمعنى كبير[٤].

وقيل: الخطاب للمؤمنين، أي: إن يشأ يرحمكم بأن يحفظَكم من كفار مكة، أو إن يشأ يُعذِّبكم بتسليطهم عليكم، قاله الكلبي. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: وما وكَّلناك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم. وقيل: ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخَذ بهم. قاله الكلبي. وقال الشاعر:

---

(١) ٩/ ٤٢٢ - ٤٢٥ و ١١/ ٤٦٠.

(٢) ٣/ ١٣.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٤ - ٦٢٥.

(٤) سلف هذا المعنى ٦/ ٤٠٠.

ذكرتُ أبا أرْوَى فبتُّ كأنني بردِّ الأمورِ الماضياتِ وكيلُ

أي: كفيل[١].

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ﴾ أعاد بعد أن قال: «ربكم أعلم بكم» ليبيِّن أنه خالقُهم وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومآلهم[٢]؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]. وكذا النبيُّون فضَّل بعضَهم على بعضٍ عن علمٍ منه بحالهم. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»[٣]. ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ الزَّبور: كتابٌ ليس فيه حلالٌ ولا حرام، ولا فرائضُ ولا حدود، وإنما هو دعاءٌ وتحميدٌ وتمجيد[٤]. أي: كما آتينا داود الزبور فلا تُنكروا أن يُؤتى محمدٌ القرآن[٥]. وهو في مُحاجَّةِ اليهود.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ لما ابتُليتْ قريشٌ بالقَحْط وشَكوا إلى رسول الله ﷺ أنزل الله هذه الآية، أي: ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتُم أنهم آلهة[٦]. وقال الحسن: يعني الملائكة وعيسى وعُزيراً. ابن مسعود: يعني

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٥٠ ، والبيت نُسب إلى شقران العلامي كما في بهجة المجالس ٣/ ١١٢ . وذكر المبرد في التعازي والمراثي ص٢٠٥ أنَّ عليًّا ﷺ تمثل هذا البيت عند قبر فاطمة عليها السلام بعد دفنها.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١١٩ ، وفي مطبوعه: «ومللهم» بدل «ومآلهم» كما هو المثبت من نسخة (ظ)، وفي بقية النسخ: «ومالهم».

(٣) ٤/ ٢٥٢ - ٢٥٧ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٢ ونسبه إلى قتادة، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٠ من غير نسبة.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٥ .

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٢ . وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٨ . وتفسير البغوي ٣/ ١٢٠ .

الجن[١]. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ أي: القحط سبع سنين، على قول مقاتل[٢]. ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ من الفقر إلى الغنى، ومن السَّقَم إلى الصحة[٣].

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ «أولئك» مبتدأ، «الذين» صفة «أولئك» وضمير الصلة محذوف، أي: يدعونهم. يعني: أولئك المدعوُّون. و﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبر[٤]، أو يكون حالاً، و«الّذين يَدْعُون» خبر، أي: يدعون إليه عباداً إلى عبادته. وقرأ ابن مسعود «تدعون» بالتاء على الخطاب[٥]. الباقون بالياء على الخبر. ولا خلاف في «يبتغون» أنه بالياء. وفي «صحيح مسلم»[٦] من كتاب التفسير عن عبد الله ابن مسعود في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال: نفرٌ من الجنِّ أسلموا وكانوا يُعْبَدون، فبَقيَ الذين كانوا يَعبدون على عبادتهم، وقد أسلم النفر من الجنِّ. وفي روايةٍ قال: نزلت في نفرٍ من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجنِّ، فأسلم الجِنِّيون، والإنسُ الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون، فنزلت: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

وعنه أيضاً أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائلُ من العرب. ذكره الماوردي[٧]. وقال ابن عباس ومجاهد: هم عُزيرٌ وعيسى[٨]. و«يبتغون»: يطلبون من الله الزُّلفةَ

---

(١) مجمع البيان ١٥/ ٦٢ .

(٢) زاد المسير ٥/ ٤٩ .

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٣ ونسبه إلى ابن عباس.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٨ ، والبيان ٢/ ٩٢ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٥ ، وهي قراءة شاذة.

(٦) (٣٠٣٠): (٢٨) و(٣٠).

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٢٥١ .

(٨) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٣٠ - ٦٣١ عنهما.

والقربة، ويتضرَّعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة[١] أعلمهم اللهُ تعالى أنَّ المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم، والهاء والميم في «ربهم» تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعاً، وأما «يدعون» فعلى العابدين، «ويبتغون» على المعبودين[٢]. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ابتداء وخبر، ويجوز أن يكون «أيُّهم أقرب» بدلاً من الضمير في «يبتغون»، والمعنى يبتغي أيهم أقرب الوسيلة إلى الله[٣]. ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: مَخُوفاً لا أمانَ لأحدٍ منه، فينبغي أن يُحذر منه ويُخاف[٤]. وقال سهل بن عبد الله: الرجاء والخوف مِيزانان[٥] على الإنسان، فإذا استوَيا استقامت أحواله، وإن رجح أحدُهما بطل الآخر[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي: مُخربوها[٧]. ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال مقاتل: أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب[٨]. وقال ابن مسعود: إذا ظهر الزنى والربا في قريةٍ أذِنَ اللهُ في هلاكهم[٩]. فقيل: المعنى: وإن من قريةٍ ظالمة، يقوِّي ذلك قولُه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٥ - ٤٦٦ بمعناه.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٨ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٣٢ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٣ .

(٥) في جميع النسخ: زمانان، والتصويب من النكت والعيون.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٥٢ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٢٠ .

(٨) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٣ .

(٩) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٣٤ ، وهو في الوسيط ٣/ ١١٣ .

﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]. أي: فليتَّقِ المشركون، فإنَّه ما من قريةٍ كافرةٍ إلا سيحِلُّ بها العذاب. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللَّوح. ﴿مَسْطُورًا﴾ أي: مكتوباً[١]. والسَّطْرُ: الخط والكتابة، وهو في الأصل مصدر. والسَّطَرُ ـ بالتحريك ـ مثلُه. قال جرير:

مَنْ شاءَ بايعتُه مالي وخُلْعَتَهُ ما تُكْمِلُ التَّيْمُ في ديوانهم سَطَرا

الخُلْعة بضمِّ الخاء: خيار المال. والسَّطَر جمع أسطار، مثل سبب وأسباب، ثم يُجمع على أساطير، وجَمْعُ السطرِ أسطُرٌ وسُطور، مثل أفلُسٌ وفلوس[٢]. والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: وما منعنا أن نُرسِلَ بالآيات التي اقترحوها إلا أن يُكذِّبوا بها فيهلكوا كما فُعِلَ بمن كان قبلهم[٤]. قال معناه قَتادة وابن جُريج وغيرُهما[٥]. فأخَّرَ الله تعالى العذابَ عن كفار قريش؛ لعلمه أنَّ فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً[٦]. وقد تقدَّم في «الأنعام»[٧] وغيرها أنهم طلبوا أن يُحوِّلَ اللهُ لهم الصَّفا ذهباً وتتنحَّى الجبالُ عنهم، فنزل جبريل وقال: إن شئتَ كان ما سألَ قومُكَ، ولكنهم إن لم يؤمنوا

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨٣ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٧ .

(٢) الصحاح (سطر) و(خلع)، والبيت في إصلاح المنطق ص١٠٩ .

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٦٣٤ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٧ .

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٤/ ٦٣٦ - ٦٣٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٠ .

(٧) ٨/ ٤٩٤ .

لم يُمْهَلوا، وإن شئتَ استأنيتُ بهم. فقال: «لا، بل استَأْنِ بهم»[١]. و«أن» الأولى في محلِّ نصب بوقوع المنع عليهم، و«أن» الثانية في محل رفع[٢]. والباء في «بالآيات» زائدة. ومجاز الكلام: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأوّلين[٣]، والله تعالى لا يكون ممنوعاً عن شيء، فالمعنى المبالغة في أنه لا يفعل، فكأنه قد منع عنه.

ثم بيَّن ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمِنْ بها فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: آيةً دالَّةً مضيئةً نَيِّرةً على صدق صالح، وعلى قدرة الله تعالى[٤]. وقد تقدَّم ذلك[٥]. ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: ظلموا بتكذيبها[٦]. وقيل: جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله، فاستأصلهم الله بالعذاب[٧].

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فيه خمسة أقوال: الأوّل ـ العِبَر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذِّبين. الثاني ـ أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي. الثالث ـ أنها تقلُّبُ الأحوال من صغرٍ إلى شبابٍ، ثم إلى تكهُّلٍ، ثم إلى مشيبٍ؛ لتعتبِرَ بتقلُّبِ أحوالك فتخاف عاقبة أمرك. وهذا قول أحمد بن حنبل ﷺ. الرابع ـ القرآن. الخامس ـ الموت الذَّريع. قاله الحسن[٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قال ابن عباس: الناس هنا أهل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٩ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٣٧ .

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٦٣٧ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٧ .

(٥) ٩/ ٢٦٦ - ٢٦٧ و ١١/ ١٥٤ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٧ .

(٧) تأويل مشكل القرآن ص٣٥٩ .

(٨) زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٥٢ ، وذكر الماوردي ٣/ ٢٥٢ الأقوال الثلاثة الأولى، وأخرج أحمد في الزهد ص٣٢٨ ، والطبري ١٤/ ٦٣٩ قول الحسن. ومعنى الذريع: السريع. الصحاح (ذرع).

مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم، أي: أنَّ الله سيهلكهم. وذكره بلفظ الماضي؛ لتحقق كونه. وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح.

وقيل: معنى «أحاط بالناس» أي: أحاطت قدرته بهم، فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته. قاله مجاهد وابن أبي نَجيح. وقال الكلبيّ: المعنى: أحاط علمُه بالناس. وقيل: المرادُ عصمتُه من الناس أن يقتلوه حتى يبلِّغ رسالة ربه[١]، أي: وما أرسلناك عليهم حفيظاً، بل عليك التبليغ، فبلِّغ بجِدِّك فإنا نعصِمُكَ منهم ونحفظك، فلا تَهَبْهم، وامْضِ لما آمُركَ به من تبليغ الرسالة، فقدرتُنا محيطةٌ بالكل. قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ لمَّا بيَّن أنَّ إنزال آياتِ القرآن تتضمَّنُ التخويف ضَمَّ إليه ذِكْرَ آية الإسراء، وهي المذكورة في صدر السورة. وفي البخاريِّ والترمذيِّ عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عَيْن، أُريها النبيُّ ﷺ ليلةَ أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس. قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾: هي شجرة الزَّقُّوم. قال أبو عيسى الترمذيّ: هذا حديثٌ صحيح[٣]. وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقَتادة وسعيد بن جُبير والضحاك وابن أبي نَجيح وابن زيد. وكانت الفتنة ارتدادَ قومٍ كانوا أسلموا حين أخبرهم النبيّ ﷺ أنه أُسْرِيَ به[٤]. وقيل: كانت رؤيا نوم. وهذه الآية تقضي بفساده؛ وذلك أنَّ رؤيا المنام لا فتنةَ فيها، وما كان أحدٌ لِيُنكِرها. وعن ابن عباس قال: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة في سنة الحُدَيْبِيَة، فَرُدَّ، فافتتنَ المسلمون لذلك، فنزلت الآية[٥]، فلما كان العام المقبل

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٥٣ ، وذكر أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٧٤ قول الكلبي.

(٢) وأخرجه عنهم الطبري ١٤/ ٦٣٨ - ٦٣٩ .

(٣) صحيح البخاري (٣٨٨٨)، وسنن الترمذي (٣١٣٤).

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٥٣ دون ذكر عائشة ومعاوية.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨ . وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٤/ ٦٤٦ .

دخلها، وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]. وفي هذا التأويل ضعف؛ لأنَّ السورة مكيةٌ وتلك الرؤيا كانت بالمدينة[١]. وقال في رواية ثالثة: إنه عليه السلام رأى في المنام بني مروان يَنْزُونَ على منبره نَزْوَ القِرَدة، فساءه ذلك، فقيل: إنما هي الدنيا أُعطوها، فسُرِّيَ عنه[٢]. وما كان له بمكة منبرٌ ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة[٣]. وهذا التأويل الثالث قاله أيضاً سهل بن سعد ﷺ. قال سهل: إنما هذه الرؤيا هي أنَّ رسول الله ﷺ كان يرى بني أمية ينزون على منبره نَزْوَ القِرَدة، فاغتمَّ لذلك، وما استجمع ضاحكاً من يومئذٍ حتى مات ﷺ. فنزلتِ الآيةُ مخبرةً أنَّ ذلك من ملكهم[٤] وصعودهم يجعلها الله فتنةً للناس وامتحاناً. وقرأ الحسن ابن عليّ في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]. قال ابن عطية: وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه تقديم وتأخير، أي: ما جعلنا الرؤيا التي أريناكَ والشجرةَ الملعونةَ في القرآن إلا فتنةً للناس[٦]، وفتنتُها أنهم لمَّا خُوِّفوا بها قال أبو جهلٍ استهزاءً: هذا محمد يتوعَّدكم بنارٍ تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنارُ تأكل الشجر، وما نعرف الزَّقُّوم إلا التمر والزُّبْد، ثم أمر أبو جهلٍ جاريةً

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٣٦ بمعناه.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٦ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٥٤ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٣٦ .

(٤) في (م): تملكهم.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨ ، وخبر سهل بن سعد أخرجه الطبري ١٤/ ٦٤٦ عن محمد بن الحسن بن زبالة، عن عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد، عن أبيه، عن جده سهل بن سعد، فذكر الخبر. وقد نقله ابن كثير في تفسيره عن الطبري بإسناده ومتنه ثم قال: وهذا السند ضعيف جداً؛ فإن محمد بن زبالة متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٤ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٣٦ .

فأحضرت تمراً وزُبداً وقال لأصحابه: تزقَّموا[١]. وقد قيل: إنَّ القائل: ما نعلمُ الزَّقُّومَ إلا التمرَ والزُّبدَ ابنُ الزِّبَعْرَى[٢]، حيث قال: كثَّر الله من الزَّقُّوم في داركم؛ فإنه التمرُ بالزُّبدِ بِلُغة اليمن[٣]. وجائزٌ أن يقول كلاهما ذلك. فافتتن أيضاً لهذه المقالة بعضُ الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزَّقُّوم فتنةً واختباراً ليَكْفر مَنْ سبق عليه الكفرُ ويُصدِّقَ من سبقَ له الإيمان، كما رُويَ أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ قيل له صبيحة الإسراء: إنَّ صاحبكَ يزعم أنه جاء البارحةَ من بيت المقدس! فقال: إن كان قال ذلك فلقد صَدَقَ. فقيل له: أتُصدِّقُه قبل أن تسمعَ منه؟ فقال: أين عقولُكم؟ أنا أُصدِّقه بخبر السماء، فكيف لا أُصدّقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعَدُ منها بكثير[٤].

قلت: ذكر هذا الخبر ابنُ إسحاق، ونصُّه: قال: كان من الحديث فيما بلغني عن مَسراه ﷺ عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخُدْرِيِّ وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزُّهْرِيِّ وقتادة وغيرِهم من أهل العلم وأمِّ هانئ بنت أبي طالب، ما اجتمع في هذا الحديث، كُلٌّ يُحدِّث عنه بعضَ ما ذكر من أمره حين أُسري به ﷺ، وكان في مسراه وما ذُكِرَ عنه بلاءٌ وتمحيصٌ وأمرٌ من أمر الله عزَّ وجلَّ في قدرته وسلطانه فيه عبرةٌ لأولي الألباب، وهدًى ورحمةٌ وثباتٌ لمن آمن وصدَّقَ وكان من أمر الله تعالى على يقين، فأسرى به ﷺ كيف شاء وكما شاء؛ ليُرِيَه

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨ . وأخرج أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا جهلٍ قال: يخوِّفنا محمد بشجرة الزقوم! هاتوا تمراً وزبداً فتزقَّموا.

(٢) كما في الوسيط ٣/ ١١٤ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٣٦ .

(٣) لم نقف عليه هكذا، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٥٤ أن ابن الزِّبعرى قال: إن الزقوم بلسان البربر التمر والزبد. وذكر الخطابي في غريب الحديث ١/ ٤٨٧ ، والزمخشري في الفائق ٢/ ١١٧ أن ذلك بلغة إفريقيا.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨ ، والخبر أخرجه الحاكم ٣/ ٦٢ ، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٣٦٠ - ٣٦١ عن عائشة رضي الله عنها.

من آياته ما أراد، حتى عاينَ ما عاينَ من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد. وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول: أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بالبراق - وهي الدابة التي كانت تُحمَلُ عليها الأنبياء قبله تضع حافرها في منتهى طرفها - فحُمِلَ عليها، ثم خرج به صاحبُه يُرى الآياتِ فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياء قد جُمِعوا له، فصلَّى بهم، ثم أُتِيَ بثلاثة آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء. قال: فقال رسول الله ﷺ: «فسمعتُ قائلاً يقول حين عُرِضتْ عليَّ: إن أخذ الماء فغَرِقَ وغَرِقَتْ أمَّتُه، وإن أخذ الخمر فغَوِيَ وغَوَتْ أمته، وإن أخذ اللبن فهُدِيَ وهُدِيَتْ أمَّتُه. قال: فأخذتُ إناءَ اللبن فشربتُ، فقال لي جبريل: هُدِيتَ وهُدِيتْ أمتُك يا محمد».

قال ابن إسحاق: وحُدِّثتُ عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائمٌ في الحِجْر جاءني جبريل عليه السلام فهمزني بقدمه، فجلستُ فلم أرَ شيئاً، ثم عُدْتُ لمضجَعي، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه، فجلست فلم أرَ شيئاً، فعُدْتُ لمضجَعِي، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلستُ، فأخذ بعَضُدي، فقمتُ معه، فخرج إلى باب المسجد، فإذا دابةٌ أبيضُ، بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يَحْفِز بهما[1] رجليه، يضع حافرَه في منتهى طَرْفِه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتُني ولا أفوتُه».

قال ابن إسحاق: وحُدِّثتُ عن قتادة أنه قال: حُدِّثت أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لمَّا دنوتُ منه لأركبَه شَمَسَ[2]، فوضع جبريلُ يدَه على مَعْرَفَتِه[3]، ثم قال: ألا تستحي يا بُراقُ مما تصنع، فواللهِ ما ركبكَ عبدٌ للهِ قبلَ محمدٍ أكرمُ عليه منه. قال: فاستحيا

(١) أي: يدفع بهما. الصحاح (حفز).

(٢) يقال: شمست الدابة: إذا شردت وجمحت ومنعت ظهرها. اللسان (شمس).

(٣) المعرَفة: الموضع الذي ينبت عليه العُرف. الصحاح (عرف).

حتى ارفَضَّ عَرَقاً[١]، ثم قَرَّ حتى ركبتُه».

قال الحسن في حديثه: فمضى رسولُ الله ﷺ ومضى معه جبريل حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياء، فأمَّهم رسولُ الله ﷺ فصلَّى بهم، ثم أُتِيَ بإناءين: في أحدهما خمرٌ، وفي الآخر لبن، قال: فأخذَ رسولُ الله ﷺ إناءَ اللبن فشرب منه وتركَ إناءَ الخمر. قال: فقال له جبريل: هُدِيتَ الفِطْرةَ وهُدِيَتْ أمَّتُك، وحُرِّمتْ عليكم الخمر. ثم انصرفَ رسول الله ﷺ إلى مكة، فلمَّا أصبح غَدا على قريشٍ فأخبرهم الخبر، فقال أكثر الناس: هذا واللهِ الإمرُ[٢] البَيِّنُ! واللهِ إنّ العِيرَ لتُطْرَدُ شهراً من مكة إلى الشام، مُدْبِرةً شهراً ومُقبِلةً شهراً، فيذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة! قال: فارتدَّ كثيرٌ ممَّن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكرٍ فقالوا: هل لكَ يا أبا بكرٍ في صاحبك؟! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيتَ المقدس، وصلَّى فيه، ورجع إلى مكة. قال: فقال أبو بكر الصديق ﷺ: إنَّكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى، هاهو ذا في المسجد يُحدِّث به الناس. فقال أبو بكر: واللهِ لئِنْ كان قاله لقد صدق، فما يُعَجِّبكم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني أنَّ الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ فأُصدِّقُه، فهذا أبعَدُ مما تعجبون منه. ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، أحدَّثتَ هؤلاء أنك جئتَ بيتَ المقدس هذه الليلة؟ قال «نعم» قال: يا نبيَّ الله، فصِفْه لي فإني قد جئتُه؟ فقال الحسن: فقال رسول الله ﷺ: «رُفِعَ لي حتى نظرتُ إليه» فجعلَ رسولُ الله ﷺ يصِفُه لأبي بكرٍ ويقول أبو بكر ﷺ: صدقْتَ، أشهدُ أنَّكَ رسولُ الله. كلَّما وصف له منه شيئاً قال: صدقْتَ، أشهدُ أنَّكَ رسولُ الله. قال: حتى إذا انتهى قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ ﷺ: «وأنتَ يا أبا بكر الصِّدِّيق» فيومئذ سمَّاه الصِّدِّيق. قال الحسن: وأنزل الله تعالى فيمن ارتدَّ عن الإسلام لذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا

(١) أي: جرى عرقه وسال. النهاية (رفض).

(٢) أي: العجب. النهاية (أمر).

﴿ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ .فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله ﷺ وما دخل فيه من حديث قتادة[١]. وذِكْرُ باقي الإسراء عمن تقدَّم في السيرة.

وقال ابن عباس: هذه الشجرة بنو أميَّة، وأنَّ النبيَّ ﷺ نفى الحَكَم[٢]. وهذا قول ضعيفٌ مُحدَث[٣]، والسورة مكية، فيبعُد هذا التأويل، إلا أن تكون هذه الآية مدنية، ولم يثبت ذلك. وقد قالت عائشة لمروان: لعنَ اللهُ أباكَ وأنت في صلبه، فأنتَ قطعةٌ[٤] من لعنةِ الله[٥]. ثم قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ ولم يجْرِ في القرآن لَعْنُ هذه الشجرة، ولكنَّ الله لعن الكفار وهم آكلوها. والمعنى: والشجرة الملعونة في القرآن آكلوها، ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكلِّ طعامٍ مكروهٍ ضارٍّ: ملعون[٦]. وقال ابن عباس: الشجرة الملعونة: هي هذه الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتلُه، يعني الكَشُوث[٧]. ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: بالزَّقوم ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف إلا الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ تقدّم ذِكْرُ كَوْنِ الشيطان عدوَّ

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٦ - ٣٩٩ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٣٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨ .

(٤) في (م): «بعض»، وفي (د) و(ز): «قطط»، والمثبت من (ظ)، فقد وقعت في رواية النسائي والخطابي «فضض»: وهي القطعة. النهاية (فضض)، وتصحفت في مطبوع الحاكم إلى «قصص».

(٥) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٣٧ ، وقول عائشة أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٢٧)، والخطابي في غريب الحديث ٢/ ٥١٧ ، والحاكم ٤/ ٤٨١ من طريق محمد بن زياد، عن عائشة. وصححه الحاكم! لكن تعقبه الذهبي بقوله: فيه انقطاع، محمد لم يسمع من عائشة.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٨ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٥٤ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٦٥٢ .

الإنسان، فانجرَّ الكلام إلى ذكر آدم. والمعنى: اذكر بتمادي هؤلاء المشركين وعتوِّهم على ربهم قصةَ إبليس حين عصى ربَّه وأبى السجود، وقال ما قال، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ أي: من طين[١]. وهذا استفهام إنكار[٢]. وقد تقدَّم القول في خلق آدم في البقرة والأنعام[٣] مستوفًى. ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ﴾ أي: قال إبليس[٤]. والكاف لتوكيد المخاطبة. ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ أي: فضَّلته عليَّ[٥]. ورأى جوهر النار خيراً من جوهر الطين ولم يعلم أنَّ الجواهر متماثلة. وقد تقدَّم هذا في الأعراف[٦]. و«هذا» نُصِبَ بأرأيت، «الذي» نعتُه[٧]. والإكرام: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحمد[٨]. وفي الكلام حذفٌ تقديره: أخبِرْني عن هذا الذي فضَّلْتَه عليَّ، لِمَ فضَّلْتَه وقد خلقتني من نارٍ وخلقته من طين؟ فحُذِف لعلم السامع[٩]. وقيل: لا حاجة إلى تقدير الحذف، أي: أترى هذا الذي كرَّمته عليَّ لأفعلنَّ به كذا وكذا. ومعنى ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾ في قول ابن عباس: لأستولِيَنَّ عليهم[١٠]. وقاله الفراء[١١]. مجاهد: لأحتوِيَنَّهم[١٢]. ابن زيد: لأُضِلَّنَّهم[١٣]. والمعنى متقارب،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٦٥٣ .

(٢) مجمع البيان ١٥/ ٧٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٣ .

(٣) ١/ ٤١٧ - ٤١٨ و ٨/ ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٢٢ ، وفي النسخ سوى (ظ): توكيد للمخاطبة.

(٦) ٩/ ١٦٥ .

(٧) إملاء ما منَّ به الرحمن على هامش الفتوحات الإلهية ٣/ ٤٨٨ ، وإعراب «هذا» ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩ .

(٨) في اللسان (كرم): الكريم: اسمٌ جامع لكل ما يحمد.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧١ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٢ .

(١١) في معاني القرآن له ٢/ ١٢٧ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٦٥٥ .

(١٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٥٤ - ٦٥٥ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٦٥ .

(١٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٥٥ .

أي: لأستأصلنَّ ذريتَه بالإغواء والإضلال، ولأجتاحنَّهم[١]. ورُوي عن العرب: اِحْتَنَكَ الجرادُ الزرعَ إذا ذهب به كلِّه. وقيل: معناه: لأسوقنَّهم حيث شئتُ وأقودَنَّهم حيث أردتُ[٢]. من قولهم: حَنَكْتُ الفرسَ أحنِكه وأحنُكه حنكاً إذا جعلتُ في فيه الرَّسن. وكذلك احتنكه[٣]. والقول الأوّل قريبٌ من هذا؛ لأنه إنما يأتي على الزرع بالحَنَك. وقال الشاعر:

أشكو إليك سَنَةً قد أجحفَتْ جَهْداً إلى جَهْدٍ بنا وأضعفَتْ
واحتنكَتْ أموالَنا واجتلفَتْ[٤]

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني المعصومين، وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[٥] [الحجر: ٤٢] وإنما قال إبليس ذلك ظنًّا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠] أو علم من طبع البشر تركُّبَ الشهوة فيهم[٦]، أو بنى على قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[٧] [البقرة: ٣٠]. وقال الحسن: ظنَّ ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عَزْماً[٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ﴾ هذا أمر إهانة، أي: اجهَدْ جَهْدَكَ فقد أنظرناك. ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾ أي: أطاعك من ذرية آدم[٩]. ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ أي: وافراً.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ .
(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧١ .
(٣) الصحاح (حنك) وعنده: إذا جعلت فيه الرسن.
(٤) الرجز في مجاز القرآن ١/ ٣٨٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٧٠ من غير نسبة.
(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٢ .
(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٤ .
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٢ .
(٨) مجمع البيان ١٥/ ٧٠ .
(٩) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ ، وزاد المسير ٥/ ٥٧ .

عن مجاهد وغيره. وهو نصبٌ على المصدر، يقال: وفَرتُه أفِرُه وَفْراً، ووَفَر المالُ بنفسه يَفِرُ وُفوراً فهو وافر، فهو لازمٌ ومُتَعدٍّ[١]

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي: استزِلَّ واستخِفَّ[٢]، وأصله القطع، ومنه تفزَّزَ الثوب إذا انقطع[٣]. والمعنى استزِلَّه بقَطْعِكَ إيَّاه عن الحق. واستفَزَّه الخوفُ أي: استَخَفَّه. وقعد مُسْتَوْفِزاً أي: غير مطمئن[٤]. «واسْتَفْزِز» أمر تعجيز، أي: أنت لا تقدر على إضلال أحد، وليس لك على أحدٍ سلطان فافعل ما شئت.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ وصوتُه كلُّ داع يدعو إلى معصية الله تعالى. عن ابن عباس. مجاهد: الغِناء والمزامير واللهو. الضحاك: صوت المزمار[٥]. وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبل، وأولاد قابيل أسفله، وفيهم بناتٌ حِسان، فزَمَر اللعين فلم يتمالكوا أن انحدروا فزَنَوْا. ذكره الغزنويّ. وقيل: «بصوتك»: بوسوستك[٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبةٍ

---

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٥٥ ، وزاد المسير ٥/ ٥٨ .

(٣) هذا المعنى لم نجده في معاجم اللغة في «تفزز» بزايين، وإنما وجدناه في «تفزر» بزاي بعدها راء. ينظر الصحاح (تفزر).

(٤) الصحاح (فزز)، وفي مطبوعه: «مستفزاً» بدل «مستوفزاً»، وهو خطأ، ينظر الصحاح (وفز).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٥٥ ، وأخرج الطبري ١٤/ ٦٥٧ قولي ابن عباس ومجاهد.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٥ .

من السائق[١]؛ يقال: أجلبَ إجلاباً.

والجَلَب والجَلَبة: الأصوات، تقول منه: جلَّبوا بالتشديد. وجَلَبَ الشيء يجلِبُه ويجلُبُه جلَباً وجَلْباً. وجلبتُ الشي إلى نفسي واجتلبته بمعنًى[٢]. وأجلب على العدوّ إجلاباً، أي: جمَّع عليهم[٣]. فالمعنى: أجمِعْ عليهم كلَّ ما تقدر عليه من مكايدك[٤]. وقال أكثر المفسرين: يريد كلَّ راكبٍ وماشٍ في معصية الله تعالى. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: إنَّ له خيلاً ورَجْلاً من الجنِّ والإنس، فما كان من راكبٍ وماشٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجَّالته[٥]. وروى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال: كلُّ خيلٍ سارت في معصية الله، وكلُّ رجلٍ مَشَتْ في معصية الله، وكلُّ مالٍ أُصيب من حرام، وكلُّ ولد بَغِيَّةٍ فهو للشيطان[٦]. والرَّجْل جمع راجل، مثلُ صَحْبٍ وصاحب[٧]. وقرأ حفص: «ورَجِلِكَ» بكسر الجيم وهما لغتان[٨]، يقال: رَجْلٌ ورَجِلٌ بمعنى راجل[٩]. وقرأ عكرمة وقتادة: «ورجالك» على الجمع[١٠].

الرابعة: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي: اجعل لنفسك شركةً في ذلك. فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله. قاله الحسن. وقيل: هي التي أصابوها من غير حِلِّها. قاله مجاهد. ابن عباس: ما كانوا يحرِّمونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٥٥ .

(٢) الصحاح (جلب).

(٣) تفسير الرازي عن الزجاج ٢١/ ٦ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٠ .

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٥ ، وأخرجه عنهم الطبري ١٤/ ٦٥٨ - ٦٥٩ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٣ .

(٧) مجاز القرآن ٣/ ٣٨٤ ، وغريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥٨ ، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٥ .

(٨) تفسير البغوي ٣/ ١٢٤ ، وينظر السبعة ص٣٨٣ ، والتيسير ص١٤٠ .

(٩) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٦ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٣/ ١١٦ .

(١٠) المحتسب ٢/ ٢٢ ، والقراءات الشاذة ص٧٧ .

والحام. وقاله قتادة. الضحاك: ما كانوا يذبحونه لآلهتهم. والأولاد قيل: هم أولاد الزنى. قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس. وعنه أيضاً: هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم. وعنه أيضاً: هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العُزَّى وعبد اللّات وعبد الشمس ونحوه.وقيل: هو صِبغة أولادهم في الكفر حتى هوَّدوهم ونصَّروهم، كصُنع النصارى بأولادهم بالغمس في الماء الذي لهم. قاله قتادة[١].

وقول خامس - رُويَ عن مجاهد قال: إذا جامع الرجلُ ولم يُسَمِّ انطوى الجانُّ على إحْلِيله فجامَعَ معه[٢]، فذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦و٧٤] وسيأتي. ورُويَ من حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «إن فيكم مُغَرِّبين» قلت: يا رسول الله، وما المغرِّبون؟ قال: «الذين يشترك فيهم الجِنُّ». رواه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»[٣]. قال الهَرَويُّ: سُمُّوا مغرِّبين لأنه دخل فيهم عِرْقٌ غريب[٤]. قال الترمذي الحكيم: فللجِنِّ مساماةٌ[٥] بابن آدم في الأمور والاختلاط؛ فمنهم من يتزوَّج فيهم، وكانت بِلْقِيسُ ملكة سَبَأ أحدُ أبويها من الجِنّ. وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى[٦].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: مَنِّهم الأمانيَّ الكاذبة، وأنه لا قيامة ولا حساب، وأنه إن كان حسابٌ وجنةٌ ونارٌ فأنتم أوْلى بالجنة من غيركم. يقوِّيه قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢] أي: باطلاً[٧].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٢ ، وزاد المسير ٥/ ٥٨ - ٥٩ ، وأخرج هذه الأقوال كلَّها الطبري ١٤/ ٦٦٠ - ٦٦٥ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٢٣ بمعناه عن جعفر بن محمد.

(٣) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول، وقد ذكره البغوي ٣/ ١٢٣ .

(٤) قاله الأزهري في تهذيب اللغة ٨/ ١١٩ .

(٥) أي: مفاخرة. اللسان (سما).

(٦) عند تفسير الآية (٢٢) من سورة النمل، في المسألة التاسعة.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٦ .

وقيل: «وَعِدْهُمْ» أي: عِدْهم النُّصرة على من أرادهم بسوء[١]. وهذا الأمر للشيطان تهدُّدٌ ووعيدٌ له[٢]. وقيل: استخفافٌ به وبمن اتبعه.

السادسة: في الآية ما يدلُّ على تحريم المزامير والغناء واللَّهو؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ على قول مجاهد. وما كان من صوت الشيطان أو فِعْلِه وما يستحسنه فواجبٌ التنزُّه عنه. وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوتَ زَمَّارةٍ فوضع أصبعيه في أُذنيه، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول: يا نافع، أتسمع؟ فأقول: نعم. فمضى حتى قلتُ له: لا. فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ سمعَ صوتَ زَمَّارة راعٍ فصنع مثلَ هذا[٣]. قال علماؤنا: إذا كان هذا فِعْلُهم في حقِّ صوتٍ لا يخرج عن الاعتدال، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزَمْرِهم. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة لقمان إن شاء الله تعالى[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قال ابن عباس: هم المؤمنون. وقد تقدَّم الكلام فيه[٥]. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي: عاصماً من القبول من إبليس، وحافظاً من كيده وسوء مكره[٦].

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ الإزجاء: السَّوق[٧]،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٦٦٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥١.

(٣) أخرجه أحمد (٤٥٣٥)، وأبو داود (٤٩٢٤).

(٤) عند تفسير الآية (٦).

(٥) ١٢/ ٢١٣.

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥١، والوسيط للواحدي ٣/ ١١٦، وتفسير الرازي ٢١/ ٩.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]. وقال الشاعر:

يا أيها الراكبُ المُزْجِي مَطِيَّتَهُ سائِلْ بني أسَدٍ ما هذه الصَّوْتُ[١]

وإزجاء الفلك: سوقه بالريح اللينة[٢]. والفلك هنا جمع، وقد تقدَّم[٣]. والبحر: الماء الكثير عذباً كان أو مالحاً، وقد غلب هذا الاسم على المشهور. وهذه الآية توقيفٌ على آلاء الله وفضله عند عباده[٤]، أي: ربكم الذي أنعمَ عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئاً.

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي: في التجارات[٥]. وقد تقدَّم[٦]. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ «الضُّرُّ» لفظٌ يعمُّ خوفَ الغرقِ والإمساكِ عن الجَرْي، وأهوَلُ[٧] حالاته: اضطرابُه وتموُّجُه. ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ «ضلَّ» معناه تَلِفَ وفُقد، وهي عبارةُ تحقيرٍ لمن يُدعى إلهاً من دون الله. والمعنى في هذه الآية: أنَّ الكفارَ إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأنَّ لها فضلاً، وكلُّ واحدٍ منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أنَّ الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فوقَّفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحِيل[٨].

---

(١) البيت قائله رويشد بن كثير الطائي، وقد سلف ٣/ ٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧١ .

(٣) ٢/ ٤٩٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧١ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٧ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٦٠ .

(٦) ٢/ ٣٣١ .

(٧) في (ظ): أحوال، وفي بقية النسخ: أهوال، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧١ .

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: عن الإخلاص. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ الإنسان هنا الكافر[١]. وقيل: وطبع الإنسان كفوراً للنِّعم إلا مَنْ عَصَمه الله، فالإنسان لفظ الجنس.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ بيَّن أنه قادرٌ على هلاكهم في البرِّ وإنْ سَلِموا من البحر[٢]. والخَسْفُ: أن تنهار الأرض بالشيء؛ يقال: بئرٌ خسِيفٌ إذا انهدم أصلها[٣]. وعينٌ خاسِفٌ أي: غارت حدَقَتُها في الرأس. وعَيْنٌ من الماء خاسفةٌ أي: غار ماؤها. وخَسَفتِ الشمسُ أي: غابت عن الأرض[٤]. وقال أبو عمرو: والخَسِيفُ: البئر التي تُحفَرُ في الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرةً، والجمع خُسُف[٥]. وجانب البر: ناحية الأرض، وسمَّاه جانباً لأنه يصير بعد الخسف جانباً، وأيضاً فإن البحرَ جانبٌ والبَرَّ جانب. وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر، فحذَّرهم ما أمنوه من البرِّ كما حذَّرهم ما خافوه من البحر[٦]. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يعني: ريحاً شديدة، وهي التي تَرْمِي بالحصباء، وهي الحصى الصغار. قاله أبو عبيدة والقُتَبِيّ[٧]. وقال قتادة: يعني: حجارة من السماء تَحصِبهم، كما فُعل بقوم لوط[٨]. ويقال للسحابة التي ترمي

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٧ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٦٠ .

(٢) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٨٤ .

(٣) ينظر جمهرة اللغة (خسف).

(٤) تفسير الرازي ٢١/ ١١ .

(٥) الصحاح (خسف).

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ ، ومجمع البيان ١٥/ ٧٣ .

(٧) مجاز القرآن ١/ ٣٨٥ ، وغريب القرآن ص٢٥٩ .

(٨) النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٦٦٩ .

بالبَرَد: حاصب، وللريح التي تحمل التراب والحصباء: حاصِبٌ وحَصِبةٌ أيضاً[١].

قال لَبيد:

جرَّتْ عليها أن خَوَتْ من أهلِها ... أذيالَها كلُّ عَصُوفٍ حَصِبهْ[٢]

وقال الفَرزدق:

مستقبلينَ شَمالَ الشامِ يضربُنا ... بحاصبٍ كنَدِيف القطنِ منثورِ[٣]

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله[٤].

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يعني: في البحر[٥]. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ القاصف: الريح الشديدة التي تَكْسر بشدة؛ من قَصَف الشيءَ يَقْصِفه، أي: كسره بشدة[٦]. والقصف: الكسر؛ يقال: قصَفتِ الريحُ السفينة. وريحٌ قاصِفٌ: شديدة. ورعدٌ قاصف: شديد الصَّوت. يقال: قَصَف الرعدُ وغيرُه قصِيفاً. والقَصِيف: هشيمُ الشَّجر. والتقصُّفُ التكسُّر. والقصفُ أيضاً: اللَّهو واللعب، يقال: إنها مُوَلَّدة[٧].

﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بكفركم.

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٢) ديوان لبيد (دار صادر) ص٣٩ . خَوَتْ: أمحلت. العَصوف: الريح الشديدة. الصحاح (خوى) و(عصف).

(٣) ديوان الفرزدق (دار صادر) ١/ ٢١٣ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٧ بمعناه.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٦ .

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ١١ .

(٧) الصحاح (قصف).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «نَخْسِفَ بِكم» «أو نُرْسِل عليكم» «أن نُعِيدكم» «فنُرْسِل عليكم» «فنُغرقكم» بالنون في الخمسة على التعظيم؛ ولقوله: «علينا». الباقون بالياء؛ لقوله في الآية قبل: «إياه»[١]. وقرأ أبو جعفر وشيبة ورُوَيْس ومجاهد: «فتُغْرِقكم» بالتاء نعتاً للريح[٢]. وعن الحسن وقتادة: «فيغرِّقكم» بالياء مع التشديد في الراء[٣]. وقرأ أبو جعفر: «الرياح» هنا وفي كل القرآن.

وقيل: إن القاصف المهلكةُ في البر، والعاصفَ المغرقةُ في البحر. حكاه الماورديّ[٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ قال مجاهد: ثائراً. النحاس: وهو من الثأر. وكذلك يُقال لكلِّ من طلب بثأرٍ أو غيرِه: تبيعٌ وتابع؛ ومنه ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي: مطالبة[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل[٦]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية. لمَّا ذكر من الترهيب ما ذكر بيَّنَ النعمةَ عليهم أيضاً. «كرَّمنا» تضعيف كرَمَ، أي: جعلنا لهم كرماً، أي: شرفاً وفضلاً. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال[٧]. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقُهُم

(١) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ١١١ ، وينظر السبعة ص٣٨٣ ، والتيسير ص١٤٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٢ ، والنشر ٢/ ٣٠٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٢ عن الحسن وأبي رجاء، وهي قراءة شاذة.

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٥ - ١٧٦ وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٤/ ٦٧٢ ، وهو في تفسيره ١/ ٣٦٦ .

(٦) هكذا في جميع النسخ، والمسائل التي سيذكرها المصنف أربع.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٢ .

على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة[١]، وحملُهم في البرِّ والبحر مما لا يصلح لحيوانٍ سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره، وتخصيصُهم بما خصَّهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتَّسع فيه حيوانٌ اتساعَ بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصَّةً دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركَّبات من الأطعمة. وغايةُ كلِّ حيوانٍ يأكل لحماً نِيئاً أو طعاماً غيرَ مركَّب. وحكى الطبريُّ عن جماعةٍ أنَّ التفضيل هو أن يأكل بيده، وسائرُ الحيوان بالفم[٢]. ورُويَ عن ابن عباس: ذكره المَهدويُّ والنحاس[٣]، وهو قول الكلبيِّ ومقاتل. ذكره الماورديُّ[٤]. وقال الضحَّاك: كرَّمهم بالنطق والتمييز. عطاء: كرَّمهم بتعديل القامة وامتدادها. يمان: بحسن الصورة. محمد بن كعب: بأن جعل محمداً ﷺ منهم. وقيل: أكرمَ الرجالَ باللِّحى والنساء بالذوائب. وقال محمد بن جرير الطبريّ: بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم[٥].و قيل: بالكلام والخط[٦]. وقيل: بالفهم والتمييز[٧]. والصحيح الذي يُعوَّل عليه أنَّ التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرَفُ اللهُ ويُفهَمُ كلامُه، ويوصل إلى نعيمه[٨] وتصديق رسله، إلا أنَّه لمَّا لم ينهض بكل المراد من العبد بُعِثَتِ الرسلُ وأُنزلتِ الكتب، فمثالُ الشرعِ الشمسُ، ومثالُ العقلِ العينُ، فإذا فُتحت وكانت سليمةً رأتِ الشمسَ[٩]، وأدركت

(١) تفسير الرازي ٢١/ ١٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣ ، وكلام الطبري في تفسيره ٥/ ١٥ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ١٧٦ .

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ .

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٦٣ ، وقول الطبري في تفسيره ١٥/ ٥ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٦ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣ .

(٩) تلبيس إبليس ص٥ .

تفاصيل الأشياء. وما تقدَّم من الأقوال بعضُه أقوى من بعض. وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالاً يَفْضُلُ بها ابنَ آدم أيضاً، كَجري الفرس وسمعِه وإبصارِه، وقوَّةِ الفيل، وشجاعةِ الأسد، وكرم الديك. وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيَّناه[١]. والله أعلم.

الثانية: قالت فرقة: هذه الآية تقتضي تفضيلَ الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستثنون في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]. وهذا غيرُ لازمٍ من الآية، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن؛ فإن هذه الآية إنما عدَّد الله فيها على بني آدم ما خصَّهم به من سائر الحيوان، والجِنُّ هو الكثير المفضول، والملائكةُ هم الخارجون عن الكثير المفضول، ولم تتعرَّضِ الآيةُ لذكرهم، بل يَحتمِلُ أنَّ الملائكةَ أفضل، ويَحتمِلُ العكس، ويَحتمِلُ التساوي[٢]. وعلى الجملة فالكلام لا ينتهي في هذه المسألة إلى القطع، وقد تحاشى قومٌ من الكلام في هذا كما تحاشَوا من الكلام في تفضيل بعض الأنبياء على بعض؛ إذ في الخبر «لا تُخايروا بين الأنبياء ولا تُفضِّلُوني على يونس بن مَتَّى»[٣]. وهذا ليس بشيء؛ لوجود النصِّ في القرآن في التفضيل بين الأنبياء، وقد بيَّناه في «البقرة»[٤] ومضى فيها الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمن[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: لذيذ المطاعم والمشارب؛ قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحَلْوَى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها[٦]. ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي:

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) سلف ٤/ ٢٥٣ و ٢٥٤.
(٤) ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٨.
(٥) ١/ ٤٣٠ - ٤٣٢.
(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٢٥.

على البهائم والدواب والوحش والطير[١]، بالغلبة والاستيلاء، والثواب والجزاء، والحفظ والتمييز، وإصابة الفِراسة[٢].

الرابعة: هذه الآية تردُّ ما رُويَ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «اِحْرِمُوا أنفُسَكم طَيِّبَ الطعام، فإنما قوي الشيطان أن يجري في العروق منها»[٣]. وبه يستدِلُّ كثيرٌ من الصُّوفية في ترك أكل الطيبات، ولا أصل له؛ لأنَّ القرآن يردُّه، والسنة الثابتة بخلافه، على ما تقرَّر في غير موضع.

وقد حكى أبو حامد الطُّوسِيُّ قال: كان سهلٌ يقتاتُ ورق النَّبِق[٤] مدةً، وأكل دُقاقَ ورق التين ثلاث سنين. وذكر إبراهيم بن البنا قال: صحبتُ ذا النُّون من إخميم[٥] إلى الإسكندرية، فلما كان وقتُ إفطاره أخرجتُ قرصاً ومِلْحاً كان معي، وقلت: هَلُمَّ. فقال لي: ملحُكَ مدقوق؟ قلت: نعم. قال: لستَ تُفلح! فنظرتُ إلى مِزْوَده[٦] وإذا فيه قليل سَوِيقِ شعير يَسَفُّ منه. وقال أبو يزيد: ما أكلتُ شيئاً مما يأكله بنو آدم أربعين سنة. قال علماؤنا: وهذا مما لا يجوز حملُ النفسِ عليه؛ لأن الله تعالى أكرم الآدميَّ بالحنطة، وجعل قشورها لبهائمهم، فلا يصِحُّ مزاحمةُ الدوابِّ في أكل التبن، وأما سَويق الشعير فإنه يورث القُولَنْج[٧]، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجَريش[٨] فإنه ينحرف مِزاجه؛ لأن خبز الشعير باردٌ مجفِّف، والملح

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٥٨ .

(٣) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص٢٠٤ . قال ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/ ٢٤٠ : رواه ابن الجوزي، وفيه بزيع أبو الخليل البصري، وهو المتهم به.

(٤) النَّبِق: ثمر السدر. اللسان (نبق).

(٥) بلد بالصعيد في مصر. معجم البلدان ١/ ١٢٩ .

(٦) المِزْود: وعاء يُحمل فيه الزاد. تهذيب اللغة ٣/ ٢٣٦ .

(٧) هو مرض معوي مؤلم، يعسر معه خروج الثُّفْل والريح. القاموس المحيط (القولنج).

(٨) أي: المجروش، كأنه حَكَّ بعضه بعضاً فتفتَّت. تهذيب اللغة ١٠/ ٥٢٧ .

يابسٌ قابضٌ يضرُّ الدِّماغ والبصر، وإذا مالتِ النفسُ إلى ما يصلحها فمُنعت فقد قووِمت حكمة البارئ سبحانه بردِّها، ثم يؤثِّر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفاً للشرع والعقل. ومعلومٌ أنَّ البدنَ مَطيَّةُ الآدميِّ، ومتى لم يرْفَقْ بالمطيَّة لم تُبَلِّغ. ورُوي عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبداً وعسلاً وخُبزَ حُوَّارَى، فقيل له: هذا كله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدِمنا صَبَرنا صبر الرجال. وكان الثوريُّ يأكل اللحم والعنب والفالوذج ثم يقوم إلى الصلاة[١]. ومثل هذا عن السلف كثير. وقد تقدم منه ما يكفي في المائدة[٢] والأعراف[٣] وغيرهما. والأول غُلُوٌّ في الدِّين إن صحَّ عنهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ روى الترمذيُّ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال: «يُدعى أحدُهم فيُعطى كتابَه بيمينه، ويُمَدُّ له في جسمه ستون ذراعاً، ويُبيَّضُ وجهُه، ويُجعَلُ على رأسه تاجٌ من لؤلؤٍ يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرَوْنه من بعيد، فيقولون: اللهمَّ ائتِنا بهذا، وبارِكْ لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا، لكلٍّ منكم مثلُ هذا» قال: «وأما الكافر فيُسَوَّد وجهُه ويُمَدُّ له في جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم، ويلبَسُ تاجاً فيراه أصحابُه فيقولون: نعوذُ بالله من شرِّ هذا، اللهمَّ لا تأتِنا بهذا» قال: «فيأتيهم فيقولون: اللَّهُمَّ أخْزِه. فيقول: أبعَدَكمُ اللهُ، فإن لكل رجلٍ منكم مثلَ هذا». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب[٤]. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا

(١) تلبيس إبليس ص٢٠١ و ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢١٠.

(٢) ٨/١١٦.

(٣) ٩/٢٠٢.

(٤) سنن الترمذي (٣١٣٦).

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]. والكتاب يسمى إماماً؛ لأنه يُرجَعُ إليه في تعرُّف أعمالهم. وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: «بإمامهم» أي: بكتابهم[١]، أي: بكتاب كلِّ إنسانٍ منهم الذي فيه عمله، دليله ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[٢]. وقال ابن زيد: بالكتاب المنزَّل عليهم[٣]. أي: يُدعَى كلُّ إنسانٍ بكتابه الذي كان يتلوه؛ فيُدعى أهلُ التوراة بالتوراة، وأهلُ القرآن بالقرآن، فيقال: يا أهل القرآن، ماذا عملتم؟ هل امتثلتُم أوامره؟ هل اجتنبتم نواهيه؟ وهكذا[٤]. وقال مجاهد: «بإمامهم»: بنبيِّهم[٥]، والإمام من يؤتَمُّ به. فيقال: هاتوا متَّبِعِي إبراهيم عليه السلام، هاتوا متَّبعي موسى عليه السلام، هاتوا متَّبعي الشيطان، هاتوا متَّبعي الأصنام. فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم[٦]. وقاله قتادة[٧]. وقال عليٌّ ﷺ: بإمام عصرهم[٨]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ فقال: «كلٌّ يدعى بإمام زمانهم، وكتابِ ربِّهم، وسنَّةِ نبيِّهم، فيقول: هاتوا متَّبعي إبراهيم، هاتوا متَّبعي موسى، هاتوا متَّبعي عيسى، هاتوا متَّبعي محمداً ـ عليهم أفضل الصلوات والسلام ـ فيقوم أهل الحقِّ فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقول: هاتوا متَّبعي الشيطان، هاتوا متَّبعي رؤساء الضلالة إمامَ هدًى وإمامَ ضلالة»[٩]. وقال الحسن وأبو العالية: «بِإمامِهِم» أي: بأعمالهم[١٠]. وقاله ابن عباس.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٧ عن الحسن والضحاك.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٧ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٦ .

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٨ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٨ بمعناه.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٦ .

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٨ بمعناه.

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ٧ بلفظ مجاهد.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٩٦ عن علي، وذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٢٦ عن ابن عباس.

(٩) أورده السيوطي في الدر المنثور ٩/ ٤٠٤ مختصراً ونسبه لابن مردويه عن علي ﷺ.

(١٠) أخرجه الطبري ١٥/ ٧ - ٨ عنهما.

فيُقال: أين الراضون بالمقدور؟ أين الصابرون عن المحذور؟. وقيل: بمذاهبهم، فيُدْعَوْن بمن كانوا يأتمُّون به في الدنيا: يا حنفيُّ، يا شافعيُّ، يا معتزليُّ، يا قدَرِيُّ، ونحوه، فيتبعونه في خيرٍ أو شرٍّ، أو على حقٍّ أو باطل، وهذا معنى قول أبي عبيدة[١]. وقد تقدّم[٢]. وقال أبو هريرة: يُدعى أهل الصدقة من باب الصدقة، وأهلُ الجهاد من باب الجهاد...، الحديث بطوله[٣]. أبو سهل: يقال: أين فلانٌ المصلِّي والصوَّام، وعكسه الزَّفَّاف[٤] والنمَّام. وقال محمد بن كعب: «بإمامِهم» بأُمَّهاتهم، وإمام جمع آمّ. قالت الحكماء: وفي ذلك ثلاثة أوجُهٍ من الحكمة؛ أحدها ـ لأجل عيسى. والثاني ـ إظهارٌ لشرف الحسن والحسين. والثالث ـ لئلا يفتضح أولاد الزنى[٥].

قلت: وفي هذا القول نظر؛ فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمعَ اللهُ الأوّلين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادرٍ لواءٌ فيقال: هذه غَدْرةُ فلانِ بنِ فلان» خرَّجه مسلم والبخاري[٦]. فقوله: «هذه غَدْرة فلان ابن فلان» دليلٌ على أن الناس يُدْعَوْن في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يردُّ على من قال: إنما يُدْعَوْن بأسماء أمَّهاتهم؛ لأن في ذلك سَتْراً على آبائهم[٧]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ هذا يقوّي قول من قال: «بإمامِهم» بكتابهم. ويقوّيه أيضاً قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) في مجاز القرآن ١/ ٣٨٦ ، ولفظه: أي بالذي اقتدوا به وجعلوه إماماً.

(٢) ٢/ ٣٦٧ .

(٣) أخرجه أحمد (٧٦٣٣)، والبخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧) مرفوعاً.

(٤) هكذا في النسخ، ولعلها الدفَّاف: وهو الذي يضرب بالدف.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٢٦ ، والكشاف ٢/ ٤٥٩ .

(٦) صحيح مسلم (١٧٣٥) واللفظ له، وصحيح البخاري (٦١٧٧)، وأخرجه أحمد (٤٨٣٩).

(٧) تفسير الرازي ٢١/ ١٧ .

يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الفتيل: الذي في شقِّ النواة[١]. وقد مضى في «النساء»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ أي: في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق. ﴿فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في أمر الآخرة ﴿أَعْمَىٰ﴾[٣]. وقال عكرمة: جاء نفرٌ من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية، فقال: اقرؤوا ما قبلها: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ إلى ﴿تَفْضِيلًا﴾. قال ابن عباس: مَنْ كان في هذه النِّعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يُعاين أعمى وأضلُّ سبيلاً[٤]. وقيل: المعنى: مَنْ عمي عن النِّعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى[٥]. وقيل: المعنى: من كان في الدنيا التي أُمْهِلَ فيها وفُسِّحَ له ووُعِدَ بقبول التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبةَ فيها أعمى[٦]. وقال الحسن: مَنْ كان في هذه الدنيا كافراً ضالًّا فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً[٧]. وقيل: مَنْ كان في الدنيا أعمى عن حُجج الله يبعثه الله يوم القيامة أعمى[٨]، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] الآيات. وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾[٩] [الإسراء: ٩٧]. وقيل: المعنى في قوله: ﴿فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ في

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٧ ، وإعراب القرآن له ٢/ ٤٣٤ .

(٢) ٦/ ٤١٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٥٩ بنحوه.

(٤) تفسير الرازي ٢١/ ١٨ - ١٩ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٨ عن مقاتل.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٣ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨ .

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٦ .

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٨ عن مجاهد.

(٩) تفسير الرازي ٢١/ ١٩ .

جميع الأقوال: أشدُّ عَمًى[١]؛ لأنه من عَمَى القلب، ولا يُقال مثلُه في عَمَى العين. قال الخليل وسيبويه: لأنه خِلقةٌ بمنزلة اليد والرِّجْل، فلم يقل: ما أعماه، كما لا يُقال: ما أيداه. الأخفش: لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعمى[٢]. وقد أجاز بعض النَّحويين ما أعماه وما أعشاه؛ لأنَّ فعله عَمِيَ وعَشِيَ. وقال الفراء: حدثني بالشام شيخٌ بصريٌّ أنه سمع العرب تقول: ما أسوَدَ شعره[٣]. قال الشاعر:

ما في المعالي لكم ظِلٌّ ولا ثمرُ ... وفي المخازي لكم أشباحُ أشياخِ
أما الملوكُ فأنتَ اليوم ألأَمُهُمْ ... لؤماً وأبيضُهم سِرْبالَ طبَّاخِ[٤]

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائي وخَلفَ الحرفين «أعمى» و«أعمى»، وفتَحَ الباقون، وأمالَ أبو عمرو الأوّل وفتحَ الثاني[٥]. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني أنه لا يجد طريقاً إلى الهداية[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾

قال سعيد بن جبير: كان النبيُّ ﷺ يستلم الحجرَ الأسودَ في طوافه، فمنعته قريشٌ وقالوا: لا ندَعُكَ تستلم حتى تُلِمَّ بآلهتنا. فحدَّث نفسه وقال: «ما عليَّ أن أُلِمَّ بها بعدَ أن يَدَعُوني أستلمُ الحجرَ، واللهُ يعلم أني لها كاره» فأبى اللهُ تعالى ذلك، وأنزل عليه هذه الآية. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت في وفد ثَقيف،

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٣ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٤ - ٤٣٥ . وينظر كتاب سيبويه ٤/ ٩٧ - ٩٨ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٨ .

(٤) قائلهما طرفة بن العبد، والبيت الأول في ديوانه ص١٨ . والبيت الثاني في اللسان (بيض).

(٥) السبعة ص٣٨٣ ، وتحبير التيسير ص١٣٦ .

(٦) مجمع البيان ١٥/ ٧٩ .

أتوا النبيَّ ﷺ فسألوه شَططاً، وقالوا: متِّعنا بآلهتنا سنةً حتى نأخذ ما يُهْدَى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحَرِّمْ وادينا كما حرَّمت مكة، حتى تعرِفَ العربُ فضلنا عليهم. فهَمَّ رسولُ الله ﷺ أن يُعطيَهم ذلك، فنزلت هذه الآية[١]. وقيل: هو قول أكابر قريشٍ للنبيِّ ﷺ: اطرُدْ عنَّا هؤلاء السُّقَّاط والموالي حتى نجلسَ معك ونسمعَ منك. فهمَّ بذلك حتى نُهِيَ عنه[٢]. وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ قريشاً خلَوْا برسول الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ إلى الصبح يُكلِّمونه ويُفخِّمونه، ويُسوِّدونه ويُقاربونه، فقالوا: إنك تأتي بشيءٍ لا يأتي به أحدٌ من الناس، وأنتَ سيِّدُنا يا سيِّدَنا، وما زالوا به حتى كاد يُقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية[٣]. ومعنى ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ أي: يزيلونك. يُقال: فتنتُ الرجل عن رأيه إذا أزلتُه عما كان عليه. قاله الهَروي[٤]. وقيل: يصرفونك، والمعنى واحد. ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: حكم القرآن؛ لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفةٌ لحكم القرآن. ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ أي: لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك[٥]، وهو قول ثقيف: وحَرِّم وادِينا كما حرَّمتَ مكة، شجرَها وطيرَها ووحشَها، فإن سألتكَ العربُ لِمَ خصَّصتهم، فقل: اللهُ أمرني بذلك، حتى يكون عذراً لك. ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: لو فعلتَ ما أرادوا لاتخذوك خليلاً[٦]، أي: والَوكَ وصافَوك[٧]، مأخوذٌ من الخلة ـ بالضم ـ وهي الصداقة

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٥٩ - ٢٦٠ ، وزاد المسير ٥/ ٦٧ ، وتعقب ابن الجوزي هذين القولين بقوله: وهذا باطل لا يجوز أن يُظنَّ برسول الله ﷺ، وكلُّ ذلك مُحالٌ في حقه وفي حقِّ الصحابة أنهم رووا عنه. قلنا: والقول الأول أخرجه الطبري ١٥/ ١٣ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٤ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٨ ، وزاد المسير ٥/ ٦٨ . وأخرجه الطبري ١٥/ ١٣ - ١٤ .

(٤) وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ٢١ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٤ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٢٧ ، وزاد المسير ٥/ ٦٨ .

لممايلته لهم. وقيل: ﴿لَٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: فقيراً. مأخوذاً من الخَلَّة ـ بفتح الخاء ـ وهي الفقر؛ لحاجته إليهم[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ أي: على الحقّ وعصمناك من موافقتهم. ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تميل. ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أي: ركوناً قليلاً[٢]. قال قتادة: لمَّا نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ لا تَكِلْني إلى نفسي طرفةَ عين»[٣]. وقيل: ظاهرُ الخطاب للنبيِّ ﷺ، وباطنُه إخبارٌ عن ثقيف. والمعنى: وإن كادوا ليركنونك، أي: كادوا يخبرون عنك بأنك مِلتَ إلى قولهم، فنسب فِعْلَهم إليه مجازاً واتساعاً، كما تقول لرجل: كِدْتَ تقتلُ نفسك، أي: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت. ذكره المهدَويّ. و قيل: ما كان منه همٌّ بالركون إليهم، بل المعنى: ولولا فضلُ الله عليكَ لكان منك مَيلٌ إلى موافقتهم، ولكن تمَّ فضلُ الله عليك فلم تفعل. ذكره القشيري.

وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريفٌ للأمة؛ لئلا يركن أحدٌ منهم إلى المشركين في شيءٍ من أحكام الله تعالى وشرائعه[٤].

وقوله: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: لو ركنتَ لأذقناك مِثْلَي عذاب الحياة في الدنيا ومثلَي عذاب الممات في الآخرة. قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وهذا غاية الوعيد، وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم. قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[٥] [الأحزاب: ٣٠] وضِعْفُ الشيء مثله مرتين، وقد يكون الضِّعف

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٦٠ .

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٢١ .

(٣) تفسير الرازي ٢١/ ٢١ . إسناده منقطع.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠ ، وزاد المسير ٥/ ٦٩ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٤ . وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٦٠ .

النصيب، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: نصيب. وقد تقدَّم في الأعراف[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾

هذه الآية قيل: إنها مدنية، حسبما تقدَّم في أوّل السورة. قال ابن عباس: حَسدتِ اليهود مقامَ النبيِّ ﷺ بالمدينة، فقالوا: إنَّ الأنبياء إنما بُعثوا بالشام، فإن كنتَ نبيًّا فألحَقْ بها، فإنك إنْ خرجتَ إليها صدَّقناك وآمنَّا بك. فوقع ذلك في قلبه؛ لِما يُحِبُّ من إسلامهم، فرحَل من المدينة على مرحلةٍ، فأنزل الله هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن غَنْم: غزا رسول الله ﷺ غزوة تُبوك لا يريد إلا الشام، فلما نزل تبوك نزل ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بعد ما ختمت السورة، وأمر بالرجوع[٢]. وقيل: إنها مكية. قال مجاهد وقتادة: نزلت في هَمِّ أهلِ مكة بإخراجه، ولو أخرجوه لما أُمهِلوا ولكنَّ الله أمره بالهجرة فخرج[٣]. وهذا أصح؛ لأنَّ السورة مكية، ولأن ما قبلها خبرٌ عن أهل مكة، ولم يجْرِ لليهود ذكر[٤]. وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يريد أرض مكة. كقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ [يوسف: ٨٠] أي: أرض مصر؛ دليله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] يعني مكة. معناه: همَّ أهلُها بإخراجه؛ فلهذا أضاف إليها[٥] وقال: «أخرجتك»[٦]. وقيل: همَّ الكفار كلُّهم أن يستخِفُّوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه، فمنعه الله، ولو أخرجوه من أرض العرب لم يُمْهَلُوا، وهو معنى قوله: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٧].

---

(١) ٩/ ٢١٧.

(٢) زاد المسير ٥/ ٦٩، وحديث عبد الرحمن بن غنم أخرجه البيهقي في الدلائل ٥/ ٢٥٤.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠، وتفسير الرازي ٢١/ ٢٣. وقول مجاهد أخرجه عنه الطبري ١٥/ ١٩-٢٠. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٨٣ - ٣٨٤، والطبري ١٥/ ١٩.

(٤) تفسير الطبري١٥/ ٢٠، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٧.

(٥) في النسخ: إليهم.

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٢٣.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٢٧.

وقرأ عطاء بن أبي رَباح: «لا يُلَبَّثون» الباء مشددة[١]. «خلفك» نافع وابن كَثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه: بعدك. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: ﴿خِلَٰفَكَ﴾[٢] واختاره أبو حاتم؛ اعتباراً بقوله: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١] ومعناه أيضاً: بعدك؛ قال الشاعر:

عَفَتِ الدِّيارُ خلافَهم فكأنَّما ... بسطَ الشَّواطِبُ بينهنَّ حَصيرا[٣]

«بسط البواسط» في الماوردي[٤]. يقال: شَطَبتِ المرأةُ الجريد إذا شقَّتْه لتعملَ منه الحصر. قال أبو عبيد: ثم تُلقيه الشاطبة إلى المُنَقِّية[٥]. وقيل: «خلفك» بمعنى بعدك. «وخلافك» بمعنى مخالفتك. ذكره ابن الأنباري. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه وجهان: أحدهما أنَّ المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر. وهذا قول من ذَكر أنهم قريش. الثاني: ما بين ذلك وقَتْلِ بني قُريظة وجلاءِ بني النضير. وهذا قول من ذَكر أنهم اليهود[٦].

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي: يُعذَّبون كسُنَّةِ مَنْ قد أرسلنا؛ فهو نصبٌ بإضمارِ يعذبون، فلما سقط الخافض عمِلَ الفعل. قاله الفرّاء[٧]. وقيل: انتصب على معنى سننَّا سنةَ مَنْ قد أرسلنا[٨]. وقيل: هو منصوبٌ على تقدير

(١) القراءات الشاذة ص٧٧ .

(٢) السبعة ص٣٨٤ ، والتيسير ص١٤١ .

(٣) قائله الحارث بن خالد المخزومي كما في العين واللسان (خلف). ومن قوله: وقرأ عطاء إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٦ .

(٤) في مطبوع النكت والعيون ٣/ ٢٦١ للماوردي بمثل رواية المصنف: بسط الشواطب.

(٥) الصحاح (شطب).

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ١٢٩ .

(٨) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٣٤ .

حذف الكاف[١]؛ التقدير: لا يلبثون خلفك إلا قليلاً كسنةِ مَنْ قد أرسلنا، فلا يوقف على هذا التقدير على قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ويوقف على الأول والثاني. ﴿قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ وقفٌ حسن. ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: لا خُلْفَ في وعدها[٢].

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لمَّا ذكر مكايد المشركين أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء. ومثله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[٣] [الحجر: ٩٧-٩٨]. وتقدَّم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة[٤]. وهذه الآية بإجماعٍ من المفسرين إشارةٌ إلى الصلوات المفروضة[٥]. واختلف العلماء في الدُّلوك على قولين: أحدهما: أنه زوال الشمس عن كبِد السماء قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفةٌ سواهم من علماء التابعين وغيرهم. الثاني: أنَّ الدلوك هو الغروب. قاله عليٌّ وابن مسعود وأُبَيُّ بن كعب، ورُوي عن ابن عباس[٦]. قال الماوردي: من جعل الدُّلوك اسماً لغروبها فلأنَّ الإنسان يدلُك عينيه براحته لتبيِّنها حالة المغيب، ومن جعله اسماً لزوالها فلأنَّه يدلكُ عينيه لشدة شعاعها[٧]. وقال أبو

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٢٨.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠.

(٣) تفسير الرازي ٢١/ ٢٥.

(٤) ١/ ٢٥٣ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٧.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٧.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٦٣.

عبيد: دلوكها غروبها. ودلكَتْ برَاحِ يعني الشمس، أي: غابت[١]. وأنشد قُطْرب:

هـذا مُـقـامُ قَـدَمَـيْ رَبـاحِ ذَبَّـبَ حـتـى دَلـكـتْ بَـراحِ

بَراح - بفتح الباء - على وزن حَزام وقَطام ورَقَاش، اسمٌ من أسماء الشمس. ورواه الفرَّاء - بكسر الباء - وهو جمع راحة وهي الكف[٢]، أي: غابت وهو ينظر إليها، وقد جعل كفَّه على حاجبه. ومنه قول العَجَّاج:

والـشـمـسُ قـد كـادَتْ تـكـون دَنَـفـا أدفـعُـهـا بـالـراحِ كـي تَـزَحْـلَـفـا[٣]

قال ابن الأعرابيّ: الزُّحلوفة مكانٌ منحدرٌ أملس؛ لأنهم يتزحلفون فيه. قال: والزَّحْلفةُ كالدَّحرجة والدفع؛ يقال: زحلفتُه فَتَزَحْلَف[٤]. ويقال: دلكتِ الشمسُ إذا غابت[٥]. قال ذو الرُّمَّة[٦]:

مصابيحُ ليست باللَّواتي تقُودها نـجـومٌ ولا بـالآفـلاتِ الـدَّوالـكِ

قال ابن عطية: الدلوك هو الميل - في اللغة - فأوّل الدلوك هو الزوال، وآخره هو الغروب. ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكاً؛ لأنها في حالة مَيل. فذكر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وعنده، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلةً في غَسَق الليل[٧]. وقد ذهب قومٌ إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب؛ لأن الله سبحانه علَّق وجوبها على الدلوك، وهذا دلوكٌ كله قاله الأوزاعيُّ وأبو حنيفة في تفصيل. وأشار إليه مالك

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٧٠ - ٣٧١.

(٢) الصحاح (دلك)، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٢٩. رباح: اسم ساق. وذبَّبَ النهار: إذا لم يبق منه إلا بقية: اللسان (ربح) و(ذبب).

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٧١.

(٤) الصحاح (زحلف).

(٥) الفائق ١/ ٤٣٦.

(٦) في ديوانه ٤/ ١٧٣٤.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٧.

والشافعيُّ في حالة الضرورة[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال: دلوك الشمس: ميلُها، وغسقُ الليل: اجتماعُ الليل وظلمته[٢]. وقال أبو عبيدة: الغسق: سواد الليل. قال ابن قَيْس الرُّقَيَّات[٣]:

إنَّ هـذا الـلـيـل قـد غَـسَـقـا ... واشـتـكـيْـتُ الـهَـمَّ والأَرَقـا[٤]

وقد قيل: غسق الليل: مغيب الشفق[٥]. وقيل: إقبال ظُلمته. قال زهير:

ظـلَّـتْ تـجـودُ يـداهـا وهـي لاهـيـةٌ ... حـتـى إذا جـنـحَ الإظـلامُ والـغَـسَـقُ[٦]

يقال: غسقَ الليلُ غَسوقا[٧]. والغَسَق اسمٌ بفتح السين. وأصل الكلمة من السيلان؛ يقال: غَسَقتِ العين إذا سالت، تَغْسِق[٨]. وغَسَق الجرح غَسَقاناً، أي: سال منه ماءٌ أصفر. وأغسق المؤذِّن، أي: أخَّرَ المغرب إلى غَسَق الليل[٩]. وحكى الفراء: غَسَقَ الليل وأغسق، وظَلِمَ وأظلم، ودجا وأدجى، وغَبَس وأغبس، وغَبِش وأغبش[١٠]. وكان الربيع بن خُثيم يقول لمؤذنه في يومٍ غَيْم: أغسِقْ أغسِقْ. يقول: أخِّر المغرب حتى يَغسِقَ الليل، وهو إظلامه[١١].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٩ .

(٢) أحكام لابن العربي ٣/ ١٢٠٧ ، وهو في الموطأ ١/ ١١ .

(٣) في ديوانه ص١٨١ .

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٨٨ .

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٦ عن ابن مسعود.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٦٢ .

(٧) اللسان (غسق).

(٨) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٦٨ .

(٩) الصحاح (غسق).

(١٠) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٦٨ .

(١١) تهذيب اللغة ١٦/ ١٢٧ .

الثالثة: اختلف العلماء في آخر وقت المغرب، فقيل: وقتُها وقتٌ واحدٌ لا وقتَ لها إلا حين تحجب الشمس، وذلك بيِّنٌ في إمامة جبريل؛ فإنه صلَّاها باليومين لوقتٍ واحد وذلك غروب الشمس، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه. وهو أحد قولي الشافعيِّ في المشهور عنه أيضاً، وبه قال الثوري. وقال مالك في «الموطأ»[١]: فإذا غاب الشفقُ فقد خرجْتَ من وقت المغرب ودخلَ وقت العشاء. وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن حَيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثَور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفقِ غسقٌ كلُّه، ولحديث أبي موسى، وفيه: أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى بالسائلِ المغربَ في اليوم الثاني، فأخَّر حتى كان عند سقوط الشفق. خرَّجه مسلم[٢]. قالوا: وهذا أولى أخبار إمامة جبريل؛ لأنه متأخرٌ بالمدينة، وإمامةُ جبريلَ بمكة، والمتأخر أولى من فعله وأمره؛ لأنه ناسخٌ لما قبله[٣]. وزعم ابن العربي[٤] أنَّ هذا القول هو المشهور من مذهب مالك، وقوله في «موطَّئه» الذي أقرأه طولَ عمره وأملاه في حياته.

والنكتةُ في هذا أنَّ الأحكام المتعلِّقةَ بالأسماء هل تتعلَّق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها؟ والأقوى في النظر أنْ يرتبط الحكم بأوائلها؛ لئلا يكون ذكرُها لغواً، فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظرُ في تعلقه بالكلِّ إلى الآخر.

قلت: القول بالتَّوسعةِ أرجح، وقد خرَّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ من مكةَ قريباً من غروب الشمس، فلم يُصَلِّ المغربَ حتى أتى سَرِفَ، وذلك تسعة أميال[٥]. وأما القول بالنسخ فليس بالبيِّن، وإن كان التاريخ معلوماً؛ فإن

---

(١) ١/ ١٣ .

(٢) في صحيحه (٦١٤). وأخرجه أحمد (١٩٧٣٣).

(٣) من بداية المسألة إلى هذا الموضع في الاستذكار ١/ ١٩٧ - ٢٠٠ ، والتمهيد ٨/ ٧٩ و ٨١ و ٨٣ و ٨٤ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٠٧ .

(٥) وأخرجه أحمد (١٤٢٧٤) من طريق الأجلح، به.

الجمع ممكن. قال علماؤنا: تُحمل أحاديثُ جبريل على الأفضلية في وقت المغرب، ولذلك اتفقتِ الأمةُ فيها على تعجيلها والمبادرة إليها في حين غروب الشمس[١]. قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: ولا نعلم أحداً من المسلمين تأخَّر بإقامة المغرب في مسجدِ جماعةٍ عن وقت غروب الشمس[٢]. وأحاديث التَّوسعة تُبيِّن وقت الجواز، فيرتفع التعارضُ ويصحُّ الجمع، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين؛ لأنَّ فيه إعمالَ كلِّ واحدٍ من الدليلين، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاطُ أحدهما. والله أعلم[٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ انتصب «قرآن» من وجهين: أحدهما أن يكون معطوفاً على الصلاة، المعنى: وأقم قرآن الفجر أي: صلاة الصبح. قاله الفراء. وقال أهل البصرة: انتصب على الإغراء، أي: فعليك بقرآن الفجر[٤]. قاله الزجَّاج[٥]. وعبَّر عنها بالقرآن خاصةً دون غيرها من الصلوات؛ لأنَّ القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلةٌ مجهورٌ بها حسبما هو مشهورٌ مسطور. عن الزَّجَّاج أيضاً[٦].

قلت: وقد استقرَّ عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قَدْراً لا يضرُّ بمن خلفه ـ يقرأ فيها بطوال المفصَّل، ويليها في ذلك الظهر والجمعة ـ وتخفيف القراءة في المغرب وتوسُّطها في العصر والعشاء. وقد قيل في العصر: إنها تخفَّف كالمغرب. وأما ما ورد في «صحيح مسلم» وغيره من الإطالة فيما استقرَّ فيه التقصير،

---

(١) المفهم ٢/ ٢٣٧ بمعناه.

(٢) الاستذكار ١/ ٢٠١ ، والتمهيد ٨/ ٨٤ .

(٣) المفهم ٢/ ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٢٨ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٢٩ .

(٥) لم نقف على نسبة هذا القول إلى الزجاج في أيّ من المصادر.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ولفظ كلامه: في هذا الموضع فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة؛ لأن قوله: «أقم الصلاة، أقم قرآن الفجر» قد أمر أن نقيم الصلاة، حتى سميت الصلاة قرآناً، فلا تكون صلاةٌ إلا بقراءة.

أو من التقصير فيما استقرَّتْ فيه الإطالة، كقراءته في الفجر بالمعوِّذتين كما رواه النَّسائيّ[١]، وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب[٢]، فمتروكٌ بالعمل، ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمَّ قومَه في العشاء فافتتَحَ سورة البقرة. خرَّجه الصحيح[٣]. وبأمره الأئمةَ بالتخفيف فقال: «أيها الناس، إنَّ منكم مُنفِّرين، فأيُّكم أمَّ الناسَ فليُخفِّفْ فإنَّ فيهم الصغيرَ والكبيرَ والمريضَ والسقيمَ والضعيفَ وذا الحاجة»[٤]، وقال: «فإذا صلَّى أحدُكم وحدَه فليطوِّلْ ما شاء»[٥]. كلُّه مسطورٌ في صحيح الحديث.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ دليلٌ على أنه لا صلاةَ إلا بقراءة؛ لأنه سَمَّى الصلاة قرآناً[٦].

وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة، فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفَذِّ في كلِّ ركعة، وهو مشهورُ قولِ مالك. وعنه أيضاً أنها واجبةٌ في جُلِّ الصلاة. وهو قول إسحاق. وعنه أيضاً تجب في ركعةٍ واحدة. قاله المُغِيرة وسُحْنُون. وعنه أنَّ القراءة لا تجب في شيء من الصلاة. وهو أشذُّ الروايات عنه. وحُكي عن مالك أيضاً أنها تجب في نصف الصلاة وإليه ذهب الأوزاعيُّ. وعن الأوزاعيِّ أيضاً وأيوب أنها تجب على الإمام والفَذِّ والمأموم على كلِّ حال. وهو أحد

---

(١) سنن النسائي ٢/ ١٥٨ من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

(٢) حديث قراءته بالأعراف أخرجه أحمد (٢١٦٤٦) من حديث زيد بن ثابت ﷺ. وحديث قراءته بالمرسلات أخرجه أحمد (٢٦٨٦٨)، والبخاري (٤٤٢٩)، ومسلم (٤٦٢) من حديث أم الفضل رضي الله عنها. وحديث قراءته بالطور أخرجه أحمد (١٦٧٣٥)، والبخاري (٧٦٥)، ومسلم (٤٦٣) من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

(٣) صحيح البخاري (٧٠٥)، وصحيح مسلم (٤٦٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤١٩٠).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٠٦٥)، والبخاري (٩٠)، ومسلم (٤٦٦) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

(٥) أخرجه أحمد (١٠٣٠٦)، والبخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦.

قولي الشافعي[١]. وقد مضى في الفاتحة مستوفًى[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ روى الترمذيُّ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهدُه ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار» هذا حديث حسن صحيح[٣]. ورواه عليّ بن مُسْهِر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبيّ ﷺ[٤]. وروى البخاريُّ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «فَضْلُ صلاة الجميع على صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجة، وتجتمع ملائكةُ الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح». يقول أبو هريرة: اِقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٥]. ولهذا المعنى يُبَكِّر بهذه الصلاة، فمن لم يُبكِّرْ لم تشهَدْ صلاتَه إلا إحدى الفئتين من الملائكة[٦]. ولهذا المعنى أيضاً قال مالك والشافعيُّ: التغليس بالصبح أفضل. وقال أبو حنيفة: الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار، فإن فاتَه ذلك فالإسفار أوْلَى من التغليس. وهذا مخالفٌ لما كان عليه الصلاة والسلام يفعله من المداومة على التغليس[٧]. وأيضاً فإن فيه تفويتَ شهود ملائكة الليل[٨]. والله أعلم.

السابعة: استدلَّ بعض العلماء بقوله ﷺ: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار[٩].

---

(١) المفهم ٢/ ٢٤ - ٢٥ .

(٢) ١/ ١٨٠ - ١٩٣ .

(٣) سنن الترمذي (٣١٣٥) من طريق أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، به. وأخرجه من هذه الطريق أحمد (١٠١٣٣).

(٤) أخرجه الترمذي بإثر الحديث (٣١٣٥) من طريق علي بن مسهر، به.

(٥) صحيح البخاري (٦٤٨). وأخرجه أحمد (٧١٨٥)، ومسلم (٦٤٩): (٢٤٦).

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٢٨ .

(٧) المفهم ٢/ ٢٤٠ .

(٨) تفسير الرازي ٢١/ ٢٨ .

(٩) النكت والعيون ٣/ ٢٦٤ .

قلت: وعلى هذا فلا تكون صلاةُ العصر أيضاً لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار؛ فإن في الصحيح عن النبيِّ الفصيح عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر» الحديث[١]. ومعلومٌ أنَّ صلاة العصر من النهار، فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل، وليس كذلك، وإنما هي من النهار كالعصر، بدليل الصيام والأيمان، وهذا واضح.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ «من» للتبعيض[٢]. والفاء في قوله: «فتهجَّد» ناسقةٌ على مضمر، أي: قم فتهجد. ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن. والتَّهَجُّد من الهجود وهو من الأضداد. يقال: هجد نام، وهجد سهر؛ على الضِّدِّ. قال الشاعر:

ألا زارَتْ وأهـلُ مِنًـى هُجـودُ ولَيْتَ خَيالَها بمنًى يعودُ[٣]

آخر:

ألَا طرقَتْنا والرِّفاق هُجودُ فباتَتْ بِعُلَّات النوالِ تجودُ[٤]

يعني نِياماً[٥]. وهجد وتهجَّد بمعنًى. وهجَّدته أي: أنمتُه، وهجَّدته أي: أيقظتُه[٦]. والتهجُّد التيقُّظُ بعد رَقْدة، فصار اسماً للصلاة؛ لأنه يُتَنَبَّهُ لها. فالتهجد

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٥)، وصحيح مسلم (٦٣٢). وأخرجه أحمد (١٠٣٠٩).

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨ .

(٣) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣١٨ .

(٤) قائله خارجة بن فليح كما في أمالي أبي علي القالي ١/ ١٤ . وقوله: «بُعلَّات» من التَّعِلَّة والعُلالة: وهو ما يُتعلَّلُ به. اللسان (علل).

(٥) من قوله: والفاء في قوله إلى هذا الموضع في النكت والعيون ٣/ ٢٦٤ بمعناه.

(٦) تهذيب اللغة ٦/ ٣٦ .

القيام إلى الصلاة من النوم. قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم[١]. وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث الحجاج بن عمر صاحب النبيِّ ﷺ أنه قال: «أيحسب أحدُكم إذا قامَ من الليل كلِّه أنه قد تهجَّد؟! إنما التهجُّدُ الصلاةُ بعد رَقْدةٍ، ثم الصلاةُ بعد رَقْدةٍ، ثم الصلاة بعد رقدة» كذلك كانت صلاة رسول الله ﷺ[٢]. وقيل: الهُجود: النوم. يقال: تهجَّد الرجل إذا سَهِر[٣]، وألقى الهجود وهو النوم. ويُسمَّى من قام إلى الصلاة متهجداً؛ لأنَّ المتهجِّدَ هو الذي يُلقي الهجود الذي هو النوم عن نفسه[٤]. وهذا الفعل جارٍ مجرى تحوَّب وتحرَّج وتأثَّم وتحنَّث وتقذَّر وتنجَّس؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه، ومثله قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥] معناه: تندَّمون، أي: تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، وهي انبساط النفوس وسرورها؛ يقال: رجلٌ فَكِهٌ إذا كان كثيرَ السرور والضحك. والمعنى في الآية: ووقتاً من الليل اسْهَرْ به في صلاةٍ وقراءة[٥].

الثانية: قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: كرامةً لك. قاله مقاتل.

واختلف العلماء في تخصيص النبيِّ ﷺ بالذِّكر دون أمته، فقيل: كانت صلاةُ الليل فريضةً عليه؛ لقوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: فريضةً زائدةً على الفريضة الموظفة على الأمة[٦].

قلت: وفي هذا التأويل بُعْدٌ لوجهين: أحدهما ـ تسمية الفرض بالنفل، وذلك مَجازٌ لا حقيقة. الثاني ـ قوله ﷺ: «خمس صلواتٍ فرضهنَّ اللهُ على العباد»[٧]، وقوله

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٦٤ ، والآثار عن هؤلاء أخرجها الطبري ١٥/ ٣٩ .

(٢) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ١/ ١٩٤ - ١٩٥ ، والطبراني في الكبير (٣٢١٦)، وفي الأوسط (٨٦٦٥).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٤ .

(٤) تهذيب اللغة ٦/ ٣٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٣٠ .

(٧) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٣) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

تعالى: «هنَّ خمسٌ وهُنَّ خمسون، لا يُبَدَّلُ القولُ لَدَيَّ»[١] وهذا نص. فكيف يُقال: افترض عليه صلاةً زائدة على الخمس؟! هذا ما لا يصح، وإن كان قد رُوي عنه عليه الصلاة والسلام: «ثلاثٌ عليَّ فريضةٌ ولأمتي تطوُّعٌ: قيام الليل، والوتر، والسِّواك»[٢]. وقيل: كانت صلاة الليل تطوعاً منه، وكانت في الابتداء واجبةً على الكل، ثم نُسِخَ الوجوبُ، فصار قيامُ الليل تطوعاً بعد فريضة[٣]، كما قالت عائشة، على ما يأتي مبيَّناً في سورة «المُزَّمِّل»[٤] إن شاء الله تعالى. وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبيِّ ﷺ[٥]؛ لأنه مغفورٌ له، فهو إذا تطوَّع بما ليس بواجبٍ عليه كان ذلك زيادةً في الدرجات، وغيره من الأمة تطوُّعهم كفاراتٌ وتداركٌ لخللٍ يقع في الفرض. قال معناه مجاهد وغيره[٦].

وقيل: عطية؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاءً أفضلَ من التوفيق في العبادة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ اختُلِفَ في المقام المحمود على أربعة أقوال:

الأوّل ـ وهو أصحها ـ الشفاعةُ للناس يوم القيامة. قاله حُذيفة بن اليمان[٧]. وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر قال: إنَّ الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً كلُّ أمةٍ تتبع نبيَّها تقول: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيِّ ﷺ، فذلك يومَ يبعثه الله

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ﷺ. وأخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (٢١٢٨٨) من حديث أبي بن كعب ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢٩٠)؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٤ : فيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، وهو كذاب.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٢٩ .

(٤) عند المسألة السادسة من تفسير الآيات (١-٤) منها.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٣٠ بمعناه.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٦٥ .

المقامَ المحمود[١]. وفي «صحيح مسلم» عن أنسٍ قال: حدَّثنا محمدٌ ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامة ماجَ الناسُ بعضُهم إلى بعض، فيأتون آدمَ فيقولون له: اشفَعْ لذرِّيتِكَ. فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليلُ الله، فيأتون إبراهيمَ فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله. فيُؤتى موسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمتُه. فيؤتى عيسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بمحمدٍ ﷺ. فأُوتَى فأقول: أنا لها» وذكر الحديث[٢]. وروى الترمِذيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ سئل عنها قال: «هي الشفاعة» قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٣].

الرابعة: إذا ثبت أنَّ المقام المحمود هو أمرُ الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهي الأمر إلى نبيِّنا محمدٍ ﷺ، فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف، ليعجِّل حسابهم ويُراحوا من هول موقفهم، وهي الخاصة به ﷺ، ولأجل ذلك قال: «أنا سيدُ ولد آدم ولا فخر». قال النقاش: لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعةٌ في السبق إلى الجنة، وشفاعةٌ في أهل الكبائر. ابن عطية: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء[٤].

وقال القاضي أبو الفضل عِياض: شفاعات نبيِّنا ﷺ يوم القيامة خمسُ شفاعات: العامة. والثانية في إدخال قومٍ الجنةَ دون حساب. الثالثة في قومٍ من موحِّدي أمته استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع فيهم نبيُّنا ﷺ ومَن شاء اللهُ أن يشفع، ويدخلون الجنة ـ وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم

---

(١) صحيح البخاري (٤٧١٨).

(٢) صحيح مسلم (١٩٣). وأخرجه البخاري (٧٥١٠).

(٣) سنن الترمذي (٣١٣٧). وأخرجه أحمد (٩٧٣٥).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨ - ٤٧٩ . وحديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» سلف ٤/ ٢٥٤ و ٥/ ١٢٩ .

الفاسدة، وهي الاستحقاق العقليُّ المبنيُّ على التحسين والتقبيح ـ الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين، فيخرجون بشفاعة نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين. الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأوّل.

الخامسة: قال القاضي عياض: وعُرِفَ بالنقل المستفيض سؤالُ السلف الصالح لشفاعة النبيِّ ﷺ ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يُلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل اللهَ أن يرزقك شفاعة النبيِّ ﷺ؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدَّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كلُّ عاقلٍ معترفٌ بالتقصير محتاجٌ إلى العفو، غيرُ معتدٍّ بعمله، مشفقٌ أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضاً، وهذا كلُّه خلاف ما عُرِفَ من دعاء السلف والخلف[١].

روى البخاريُّ عن جابر بن عبد الله، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداءَ: اللهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمداً ـ ﷺ ـ الوسيلةَ والفضيلة، وابعَثْه مقاماً محموداً الذي وعدْتَه، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة»[٢].

القول الثاني ـ أنَّ المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة[٣].

قلت: وهذا القول لا تنافُرَ بينه وبين الأوّل؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع. روى الترمذيُّ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامة ولا فخر، وبيدي لواءُ الحمدِ ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذٍ آدمَ فمن سواه إلا تحت لوائي» الحديث[٤].

---

(١) إكمال المعلم ١/ ٥٦٦ .

(٢) صحيح البخاري (٦١٤). وأخرجه أحمد (١٤٨١٧).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٦٦ .

(٤) سنن الترمذي (٣١٤٨).

القول الثالث ـ ما حكاه الطبريُّ عن فرقة ـ منها مجاهد ـ أنها قالت: المقام المحمود هو أن يُجلِسَ اللهُ تعالى محمداً ﷺ معه على كرسيه. وروَتْ في ذلك حديثاً[١]. وعَضَدَ الطبريُّ جوازَ ذلك بشططٍ من القول، وهو لا يخرج إلا على تلطُّفٍ في المعنى، وفيه بُعْدٌ. ولا يُنْكَر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوَّله. وذكر النقَّاش عن أبي داود السِّجِسْتَانيّ أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا مُتَّهَم، ما زال أهل العلم يتحدَّثون بهذا، من أنكر جوازه على تأويله[٢]. قال أبو عمر: ومجاهدٌ وإن كان أحدَ الأئمة بتأوُّلِ القرآن، فإنَّ له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا، والثاني في تأويل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] قال: تنتظر الثواب؛ ليس من النظر[٣].

قلت: ذكر هذا في باب: ابنُ شهاب في حديث التنزيل. ورُوي عن مجاهدٍ أيضاً في هذه الآية قال: يُجلِسه على العرش[٤]. وهذا تأويلٌ غير مستحيل؛ لأنَّ الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلَّها والعرشَ قائماً بذاته، ثم خلق الأشياء من غير حاجةٍ إليها، بل إظهاراً لقدرته وحكمته، وليُعرف وجودُه وتوحيدُه وكمالُ قدرته وعلمُه بكلِّ أفعاله المحكمة، وخلق لنفسه عرشاً استوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماسًّا، أو كان العرش له مكاناً. قيل: هو الآن على الصفة التي كان عليها من قبل أن يُخلَقَ المكانُ والزمان، فعلى هذا القول سواءٌ في الجواز أقعَدَ محمدٌ على العرش أو على

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٣ ، والخلال في السنة (٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٣٠٧ و ٣٠٨ و ٣٠٩) من طريق سيف السدوسي، عن عبد الله بن سلام قال: إن محمداً ﷺ يوم القيامة على كرسيِّ الرب بين يدي الربِّ تبارك وتعالى. سيف السدوسي لم نقف له على ترجمة، لكن البخاري قال في التاريخ الكبير ٤/ ١٥٨ : لا يُعرف لسيف سماعٌ من عبد الله بن سلام.

(٢) من بداية القول إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩ . وينظر كلام الطبري في تفسيره ١٥/ ٥١ - ٥٤ .

(٣) التمهيد ٧/ ١٥٧ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٤٣٦ ، والطبري ١٥/ ٤٧ ، والخلال (٢٤١ و ٢٤٤ و ٢٤٦ و ٢٦٧ و ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٩٦ و ٢٩٨ و ٣٠١).

الأرض؛ لأنَّ استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كَيْفٍ. وليس إقعادُه محمداً على العرش موجِباً له صفةَ الربوبية أو مُخرجاً له عن صفة العبودية، بل هو رفعٌ لمحلِّه وتشريفٌ له على خلقه. وأما قوله في الإخبار: «معه» فهو بمنزلة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، و﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] ونحو ذلك. كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحُظْوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان[١].

الرابع ـ إخراجه من النار بشفاعته من يخرج. قاله جابر بن عبد الله. ذكره مسلم[٢]. وقد ذكرناه في كتاب التذكرة[٣] والله الموفق.

السادسة: اختلف العلماء في كون القيام بالليل سبباً للمقام المحمود على قولين: أحدهما ـ أنَّ البارئ تعالى يجعل ما شاء من فعله سبباً لفضله من غير معرفةٍ بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة. الثاني ـ أنَّ قيام الليل فيه الخلوة مع البارئ والمناجاة دون الناس، فأعطى الخلوَة به ومناجاته في قيامه وهو المقام المحمود، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلُّهم فيه درجةً محمدٌ ﷺ؛ فإنه يُعْطَى ما لا يُعطى أحدٌ، ويشفع ما لا يشفع أحد[٤]. و«عسى» من الله عزَّ وجلَّ واجبة. و«مَقاماً» نصب على الظرف[٥]. أي: في مقام أو إلى مقام. وذكر الطبري عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفَعُ فيه لأمتي»[٦]. فالمقام

---

(١) هذا تأويل غير صحيح، والصواب إثبات صفة العِندية لله عز وجل، واستحقاق بعضِ أشراف مخلوقاته مكاناً عنده، والله أعلم.

(٢) في صحيحه (١٩١).

(٣) ص٢٤٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١١ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩ .

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٤٧ - ٤٨ . وأخرجه أحمد (٩٦٨٤).

الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدي الملوك.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾

قيل: المعنى: أمِتْني إماتةَ صدق، وابعثني يوم القيامة مَبعثَ صدق[١]؛ ليتصل بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو ليُنْجِز له الوعد. وقيل: أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهيِّ[٢]. وقيل: علَّمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن، فأخرجه من مكة وصيَّره إلى المدينة[٣]. وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال: كان النبيُّ ﷺ بمكة ثم أُمِرَ بالهجرة، فنزلت: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح[٤]. وقال الضحَّاك: هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمناً[٥]. أبو سهل: حين رجع من تبوك وقد قال المنافقون: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] يعني: إدخال عزٍّ وإخراج نصرٍ إلى مكة.

وقيل: المعنى: أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوَّة مدخل صدقٍ، وأخرجني منه مخرج صدقٍ إذا أمَتَّني. قال معناه مجاهد[٦]. والمدخل والمخرج ـ بضمِّ الميم ـ بمعنى الإدخال والإخراج، كقوله: ﴿أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون:٢٩] أي:

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٦٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٣٢ .

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٥٤ بمعناه.

(٤) سنن الترمذي (٣١٣٩) من طريق قابوس أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس. وأخرجه كذلك أحمد (١٩٤٨)، والحاكم ٣/ ٣ وصححه، لكن الذهبي ضعَّفه بقابوس.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٦٦ ، وأخرجه الطبري ١٥/ ٥٧ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٣٢ .

إنزالاً لا أرى فيه ما أكره[١]. وهي قراءةُ العامة. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم: «مَدخل» و«مخرج» بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج[٢]؛ فالأوّل رباعي وهذا ثلاثي. وقال ابن عباس: أدخلني القبر مدخلَ صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث[٣]. وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق، أي: لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإنَّ ذا الوجهين لا يكون وجيهاً عندك[٤]. وقيل: الآية عامةٌ في كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، ويُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة. فهي دعاء، ومعناه: ربِّ أصلِحْ لي وِرْدِي في كل الأمور وصَدَرِي[٥]. وقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ قال الشَّعبيُّ وعكرمة: أي: حجةً ثابتة. وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله[٦]. قال: فوعده الله لَيَنْزِعنَّ مُلك فارس والروم وغيرها فيجعله له[٧].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: روى البخاريُّ والترمذيُّ عن ابن مسعودٍ قال: دخل النبيُّ ﷺ مكةَ عام الفتح وحول الكعبة ثلاث مئةٍ وستون نُصُباً، فجعلَ النبيُّ ﷺ يطعنها بِمِخصَرةٍ في يده ـ وربما قال: بعود ـ ويقول: «جاء الحقُّ وزهق الباطلُ، إنَّ الباطلَ كان زهوقاً، جاء

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٣٣ .

(٢) إتحاف فضلاء البشر ص٣٦٠ عن الحسن، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠ عن أبي حيوة وقتادة وحميد، وهي قراءة شاذة.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٦٧ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٦ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٣٢ . وأخرجه الطبري ١٥/ ٥٨ .

الحقُّ وما يُبدئ الباطلُ وما يعيد» لفظ الترمذيِّ. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. وكذا في حديث مسلم: «نُصُباً». وفي رواية: «صنماً»[٢]. قال علماؤنا: إنما كانت بهذا العدد؛ لأنهم كانوا يُعظِّمون في يومٍ صنماً ويخصُّون أعظمَها بيومين. وقوله: «فجعل يطعنها بعودٍ في يده» يقال: إنها كانت مثبتةً بالرَّصاص، وأنه كلما طعن منها صنماً في وجهه خرَّ لقفاه، أو في قفاه خرَّ لوجهه، وكان يقول: «جاء الحقُّ وزهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً» حكاه أبو عمر[٣] والقاضي عِياض. وقال القشيريُّ: فما بقي منها صنمٌ إلا خرَّ لوجهه، ثم أَمَر بها فكُسِرت.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على كسر نُصب المشركين وجميع الأوثان إذا غُلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسرُ آلة الباطل كلِّه، وما لا يصلح إلا لمعصية الله، كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصُّوَرُ المتَّخَذةُ من المَدَر والخشب وشبهها، وكلُّ ما يتَّخذه الناسُ ممَّا لا منفعةَ فيه إلا اللهوَ المنهيَّ عنه. ولا يجوز بيع شيءٍ منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص، إذا غُيِّرت عما هي عليه وصارت تُشرَح نُقراً[٤] أو قطعاً فيجوز بيعها والشِّراء بها. قال المهلَّب: وما كُسِرَ من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعةٌ فصاحبها أوْلَى بها مكسورة، إلا أن يرى الإمام حَرْقَها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال.

وقد تقدَّم حرق ابن عمر ﷺ[٥]. وقد همَّ النبيُّ ﷺ بتحريق دُورِ من تخلَّفَ عن صلاة الجماعة[٦]. وهذا أصلٌ في العقوبة في المال مع قوله عليه السلام في الناقة

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٧٨)، وسنن الترمذي (٣١٣٨). وأخرجه أحمد (٣٥٨٤).

(٢) صحيح مسلم (١٧٨١).

(٣) في الدرر في اختصار المغازي والسير ٢/ ٢٦٢ .

(٤) أي: مُذابةً. تهذيب اللغة ٩/ ٨٩ .

(٥) كذا في النسخ، والذي سلف ٥/ ٣٩٤ أن الذي حرق هو الوليد بن هشام.

(٦) سلف ٤/ ١٧٩ .

التي لعنَتْها صاحبتُها: «دعوها فإنَّها ملعونة»[١] فأزال ملكها عنها تأديباً لصاحبتها، وعقوبةً لها فيما دعَتْ عليه بما دعَتْ به. وقد أراق عمر بن الخطاب ﷺ لَبَناً شِيبَ بماءٍ على صاحبه[٢].

الثالثة: ما ذكرنا من تفسير الآية يُنظر إلى قوله ﷺ: «والله لينزِلنَّ عيسى بنُ مريم حكماً عادلاً، فَلَيَكْسِرَنَّ الصليبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزيرَ وَلَيَضَعنَّ الجِزْية وَلَتُتْرَكنَّ القِلاصُ فلا يُسعى عليها» الحديث. خرَّجه الصحيحان[٣]. ومن هذا الباب هَتْكُ النبيِّ ﷺ الستر الذي فيه الصور، وذلك أيضاً دليلٌ على إفساد الصور وآلات الملاهي كما ذكرنا. وهذا كلُّه يحظر المنع من اتخاذها ويوجب التغيير على صاحبها. إن أصحاب هذه الصور يُعذَّبون يوم القيامة ويُقال لهم: أحيوا ما خلقتم، وحسبك! وسيأتي هذا المعنى في «النمل»[٤] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام. وقيل: القرآن. قاله مجاهد. وقيل: الجهاد. ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قيل: الشرك. وقيل: الشيطان. قاله مجاهد. والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير: جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه[٥]. ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: بطل الباطل[٦]. ومن هذا زُهوقُ النفس وهو بطلانها. يقال: زَهَقَتْ نفسُه تَزهَق زُهوقاً، وأزهقتُها[٧]. ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: لا بقاءَ له، والحقُّ الذي يثبت[٨].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٨٧٠)، ومسلم (٢٥٩٥) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٢) سلف ٥/ ٣٩٦.

(٣) لم يخرجه البخاري، وإنما خرجه مسلم (١٥٥): (٢٤٣)، وقد سلف ٥/ ١٥٥.

(٤) ١٧/ ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠.

(٦) مجمع البيان ١٥/ ٨٩.

(٧) ينظر تهذيب اللغة ٥/ ٣٩٢.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٧.

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ قرأ الجمهور بالنون[١]. وقرأ مجاهد: «ويُنْزِل» بالياء خفيفة، ورواها المروزيُّ عن حفص[٢]. و«مِن» لابتداء الغاية، ويصحُّ أن تكون لبيان الجنس؛ كأنه قال: وننزل ما فيه شفاء من القرآن. وفي الخبر: «من لم يَسْتَشْفِ بالقرآن فلا شفاه الله»[٣]. وأنكر بعض المتأولين أن تكون «مِن» للتبعيض؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أنَّ بعضَه لا شفاء فيه. ابن عطية: وليس يلزمه هذا، بل يصِحُّ أن تكون للتبعيض بحسب أنَّ إنزاله إنما هو مُبعَّض، فكأنَّه قال: وننزل من القرآن شيئاً شفاءً، ما فيه كلُّه شفاء.

الثانية: اختلف العلماء في كونه شفاءً على قولين: أحدهما ـ أنه شفاءٌ للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرَّيب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى. الثاني ـ شفاءٌ من الأمراض الظاهر بالرُّقَى والتعوُّذ ونحوه[٤]. وقد روى الأئمة ـ واللفظ للدارقطنيِّ ـ عن أبي سعيد الخُدْريِّ قال: بعثَنا رسول الله ﷺ في سَرِيَّةٍ ثلاثين راكباً. قال: فنزلنا على قومٍ من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأبَوْا. قال: فلُدِغَ سيدُ الحيِّ، فأتونا فقالوا: فيكم أحدٌ يَرْقي من العقرب؟ ـ في رواية ابن قَتَّة: إنَّ الملِكَ يموت ـ قال: قلتُ أنا: نعم، ولكن لا أفعل

---

(١) وتشديد الزاي، وقرأ أبو عمرو ويعقوب: «ونُنْزِلُ» بالنون وتخفيف الزاي. إتحاف فضلاء البشر ص٣٦٠، والنشر ٢/ ٣٠٨.

(٢) وهي قراءة شاذة، والمشهور عن حفص بمثل قراءة الجمهور.

(٣) عزاه في كنز العمال (٢٨١٠٦) إلى الدارقطني في الأفراد، وأورده الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار ٢/ ٢٨٨ وعزاه إلى الثعلبي وساق إسناده من طريق أحمد بن الحارث الغساني، عن ساكنة بنت الجعد، عن رجاء الغنوي مرفوعاً. أحمد بن الحارث الغساني متروك، وساكنة بنت الجعد مجهولة. الميزان ١/ ٨٨ و ٢/ ٤٤. وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ص٢٣٧: رجاء الغنوي لا يصح حديثه ولا تصح له صحبة.

(٤) من بداية المسألة الأولى إلى هذا الموضع ـ دون ذكر الحديث ـ في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠.

حتى تعطونا. فقالوا: فإنا نُعطيكم ثلاثين شاةً. قال: فقرأت عليه: «الحمد لله ربِّ العالمين» سبعَ مرات، فبرَأ. ـ في رواية سليمان بن قَتَّة عن أبي سعيد: فأفاقَ وبرَأ ـ فبعث إلينا بالنُّزل، وبعث إلينا بالشاء، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي، وأبَوْا أن يأكلوا من الغنم، حتى أتينا رسول الله ﷺ فأخبرتُه الخبر، فقال: «وما يُدريكَ أنَّها رُقية» قلت: يا رسول الله، شيءٌ أُلقي في رُوعِي. قال: «كلوا وأطعمونا من الغنم» خرَّجه في كتاب السنن[١]. وخرَّج في كتاب «المُدَبَّج»[٢] من حديث السَّرِيِّ بن يحيى قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن ليث بن أبي سُليم، عن الحسن، عن أبي أُمامة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينفَعُ بإذن الله تعالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسُّلِّ والحُمَّى والنَّفْس أن تُكتبَ بزعفرانٍ أو بِمِشْقٍ ـ يعني المَغْرة ـ أعوذ بكلمات الله التامة، وأسمائه كلِّها عامةً، من شرِّ السَّامَّة والغامَّة، ومن شرِّ العين اللامَّة، ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد، ومن أبي فَروةَ وما ولد». كذا قال، ولم يقُلْ: من شرِّ أبي قِترة[٣]. العين اللامَّة: التي تصيب بسوء. تقول: أُعِيذه من كلِّ هامَّةٍ لامَّةٍ. وأما قوله: أُعيذه من حادثات اللَّمة فيقول: هو الدهر. ويقال: الشدة. والسَّامَّة: الخاصَّة. يقال: كيف السَّامَّة والعامة. والسَّامَّة: السُّمّ. ومن أبي فروة وما ولد. وقال: «ثلاثةٌ وثلاثون من الملائكة أتَوْا ربَّهم عزَّ وجلَّ فقالوا: وَصَبٌ بأرضنا. فقال: خذوا تربةً من أرضكم فامسحوا نواصيَكم ـ أو قال: بِوَصَبِكم[٤] ـ رقية محمدٍ ﷺ، لا أفلَحَ من كتمها أبداً،

---

(١) سنن الدارقطني (٣٠٣٤) و(٣٠٣٥) من طريق أبي نضرة، و(٣٠٣٦) من طريق أبي المتوكل، و(٣٠٣٧) من طريق سليمان بن قتة، ثلاثتهم عن أبي سعيد الخدري، به. وأخرجه أحمد (١١٠٧٠) من طريق أبي نضرة، و(١١٤٧٢) من طريق سليمان بن قتة، و(١٠٩٨٥)، والبخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١) من طريق أبي المتوكل.

(٢) تصحف في (م) إلى المديح. وقد سلف اسمه على الصواب ٨/ ٦١ . والحديث المدبَّج: هو أن يروي أحد القرينين عن الآخر، ولا يروي الآخر عنه. مقدمة ابن الصلاح ص٣١٠ .

(٣) وهي كنية إبليس. العين (قتر).

(٤) في (م): نوصيكم، وهو خطأ. والوصب: المرض. الصحاح (وصب).

أو أخذَ عليها صَفَداً»[١]. ثم يكتبُ فاتحةَ الكتابِ وأربعَ آياتٍ من أول البقرة، والآيةَ التي فيها تصريفُ الرياح، وآيةَ الكرسي، والآيتين اللتين بعدها، وخواتيمَ سورة البقرة من موضع ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخرها، وعشراً من أوَّل آل عمران، وعشراً من آخرها، وأوَّلَ آيةٍ من النساء، وأوَّلَ آيةٍ من المائدة، وأوَّلَ آيةٍ من الأنعام، وأوَّلَ آيةٍ من الأعراف، والآيةَ التي في الأعراف [٥٤]: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ حتى تختم الآية، والآية التي في يونس [٨١] من موضع ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، والآيةَ التي في طه [٦٩] ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، وعشراً من أوَّلِ الصافات، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوِّذتين. تُكتبُ في إناءٍ نظيفٍ، ثم تُغسَلُ ثلاثَ مراتٍ بماءٍ نظيفٍ، ثم يحثو منه الوَجِعُ ثلاثَ حَثَواتٍ، ثم يتوضَّأ منه كوضوئه للصلاة، ويتوضَّأُ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به، ثم يصُبُّ على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجي به، ثم يُصلي ركعتين، ثم يستشفي اللهَ عزَّ وجَلَّ، يفعل ذلك ثلاثة أيام، قدر ما يكتب في كلِّ يومٍ كتاباً[٢]. ـ في رواية: ومن شرِّ أبي قِتْرة وما ولد ـ وقال: «فامسحوا بِوَصَبِكم»[٣] ولم يشك[٤].

وروى البخاريُّ عن عائشة، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَنْفِثُ على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوِّذات، فلما ثَقُلَ كنتُ أنفُثُ عليه بهنَّ، وأمسَحُ بيد نفسِه لبركتها. فسألت

---

(١) أي: عطاءً. الصحاح (صفد).

(٢) في إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف. الميزان ٣/ ٤٢٠ - ٤٢١ . والحسن لم يثبت سماعه من أبي أمامة.

(٣) المثبت من (ز) ومن المصادر، وفي بقية النسخ: نواصيكم.

(٤) وقد أخرج هذه الرواية ـ بالمرفوع منها فقط ـ أبو يعلى (٢٤١٦)، والطبراني في الأوسط (٦٠٨٩)، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٨٧) من طريق معتمر، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي فزارة، عن سعيد بن جبير أو مقسم، عن ابن عباس مرفوعاً. وفي رواية أخرى لأبي يعلى (٢٤١٧): عن أبي فزارة، عن مقسم، عن سعيد، عن ابن عباس، وفي رواية لابن أبي الدنيا: عن أبي فزارة، عن مقسم، عن ابن عباس. قلنا: ومدار الإسناد على ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف كما تقدم آنفاً.

الزُّهريَّ كيف كان ينفِثُ؟ قال: كان يَنْفِثُ على يديه ثم يمسَحُ بهما وجهَه[١]. وروى مالك عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة، أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه المعوِّذتين وتَفَل أو نَفَث[٢]. قال أبو بكر بن الأنباري: قال اللغويون: تفسير «نفث» نفخ نفخاً ليس معه ريق. ومعنى «تَفَل» نفخ نفخاً معه ريق[٣]. قال الشاعر:

فإن يَبْرأْ فلم أنْفِثْ عليهِ وإن يُفْقَدْ فَحُقَّ له الفُقودُ[٤]

وقال ذو الرُّمَّة:

ومِن جَوْفِ ماءٍ عَرْمَضُ الحَولِ فوقَهُ متى يَحْسُ منه مائحُ القوم يَتْفُلِ[٥]

أراد: ينفخ بريق. وسيأتي ما للعلماء في النفث في سورة الفلق إن شاء الله تعالى.

الثالثة: روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يكره الرُّقى إلا بالمعوِّذات[٦]. قال الطبري: وهذا حديثٌ لا يجوز الاحتجاج بمثله في الدِّين؛ إذ في نقَلَتِه من لا يُعرف. ولو كان صحيحاً لكان إما غلطاً وإما منسوخاً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في الفاتحة «ما أدراك أنها رُقية». وإذا جاز الرُّقى بالمعوِّذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلَهما في الجواز؛ إذ كلُّه قرآن. وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «شفاءُ أمتي في ثلاثٍ: آيةٍ من كتاب الله، أو لعقةٍ من عسل، أو شرطةٍ من مِحجم»[٧]. وقال رجاء الغَنَوِيُّ: ومن لم يستشْفِ بالقرآن فلا شفاءَ له[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٣٥)، والسائل الذي سأل الزهري هو معمر بن راشد الراوي عنه. فتح الباري ١٠/ ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) الموطأ ٢/ ٩٤٢ - ٩٤٣. وأخرجه من طريقه أحمد (٢٤٧٢٨)، والبخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢): (٥١).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٩/ ٢٧٥.

(٤) قائله عنترة، وهو في ديوانه ص٤٢.

(٥) ديوان ذي الرمة ٣/ ١٤٨٧. وقال شارحه: الجوف: المطمئن من الأرض. والعرمَضُ: الخضرة على رأس الماء، وعرمضُ الحولِ: أتى عليه حولٌ. والمائح: الذي يغرف بيده.

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٥٧٣).

(٧) سلف ١٢/ ٣٧١.

(٨) سلف قريباً في الصفحة ١٥٦ مرفوعاً، ولا يصح.

الرابعة: واختلف العلماء في النُّشْرة، وهي أن يكتب شيئاً من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالماء، ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيِّب؛ قيل له: الرجلُ يؤخَذُ عن امرأته، أيُحَلُّ عنه ويُنْشر؟ قال: لا بأس به، وما ينفع لم يُنْهَ عنه[١]. ولم يَرَ مجاهدٌ أن تُكتبَ آياتٌ من القرآن، ثم تُغسَلَ، ثم يُسقاه صاحبُ الفزع. وكانت عائشة تقرأ بالمعوِّذتين في إناءٍ، ثم تأمر أن يُصبَّ على المريض[٢]. وقال المازَرِيُّ أبو عبد الله: النُّشرةُ أمرٌ معروفٌ عند أهل التعزيم، وسُمّيت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها، أي: تَحُلُّ. ومنعها الحسن[٣] وإبراهيم النَّخَعيُّ؛ قال النَّخَعِيُّ: أخاف أن يصيبه بلاء. وكأنه ذهب إلى أنه ما يجيء به القرآن فهو إلى أن يعقب بلاءً أقربَ منه، إلى أن يفيد شفاءً. وقال الحسن: سألتُ أَنَساً فقال: ذكروا عن النبيِّ ﷺ أنها من الشيطان[٤]. وقد روى أبو داود من حديث جابر بن عبد الله قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن النُّشْرة فقال: «من عمل الشيطان»[٥]. قال ابن عبد البر: وهذه آثارٌ لينةٌ ولها وجوهٌ مُحتمِلة[٦]، وقد قيل: إنَّ هذا محمولٌ على ما إذا كانت خارجةً عما في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وعن المداواة المعروفة. والنُّشرة من جنس الطب[٧]. فهي غُسالةُ شيءٍ له فضل، فهي كوضوء رسول الله ﷺ.

---

(١) المفهم ٥/ ٥٩٠ .

(٢) أخرجهما ابن أبي شيبة ٨/ ٢٨ .

(٣) المفهم ٥/ ٥٩٠ .

(٤) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٣٠٣٤)، والحاكم ٤/ ٤١٨ من طريق مسكين بن بكير، عن أبي رجاء، عن الحسن، به موصولاً.

وأخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٢٩ ، وأبو داود في المراسيل (٤٥٣) من طرق عن شعبة، عن أبي رجاء، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلاً.

ورجح المرسل أبو حاتم فيما نقل عنه ابنه في العلل ٢/ ٢٩٥ ، لكن يشهد له حديث جابر الآتي.

(٥) سنن أبي داود (٣٨٦٨)، وأخرجه أحمد (١٤١٣٥).

(٦) التمهيد ٥/ ٢٧٣ .

(٧) المفهم ٥/ ٥٩٠ .

وقال ﷺ: «لا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيه شرك» و«منِ استطاعَ منكم أن ينفعَ أخاه فليفعَلْ»[١].

قلتُ: قد ذكرنا النصَّ في النُّشرة مرفوعاً، وأنَّ ذلك لا يكون إلا من كتاب الله، فَلْيُعتمدْ عليه.

الخامسة: قال مالك: لا بأسَ بتعليق الكتب التي فيها أسماءُ الله عزَّ وجلَّ على أعناق المرضى على وجه التبرُّكِ بها، إذا لم يُرِدْ معلِّقُها بتعليقها مُدافعةَ العين. وهذا معناه قبل أن ينزل به شيءٌ من العين. وعلى هذا القول جماعةُ أهل العلم، لا يجوز عندهم أن يُعلَّق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيءٌ من العلائق خوفَ نزول العين، وكلُّ ما يُعلَّقُ بعد نزول البلاء من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ وكتابِه رجاءَ الفرج والبُرْء من الله تعالى، فهو كالرُّقَى المباحِ الذي وردت السُّنَّةُ بإباحتِه من العين وغيرها[٢].

وقد روى عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فَزِعَ أحدُكم في نومه فليقُلْ: أعوذُ بكلماتِ الله التامَّةِ غضبِه وسوءِ عقابه، ومن شرِّ الشياطين وأن يَحْضُرون» وكان عبدُ الله يُعلِّمها ولدَه مَنْ أدركَ منهم ومَنْ لم يُدرِكْ، كتبها وعلَّقها عليه[٣]. فإن قيل: فقد رُويَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «من علَّقَ شيئاً وُكِلَ إليه»[٤]، ورأى ابنُ مسعودٍ على أمِّ ولده تميمةً مربوطةً، فجَبذَها جَبْذاً شديداً فقطعها، وقال: إنَّ آلَ ابنِ مسعودٍ لأغنياءُ عن الشِّرك، ثم قال: إنَّ التمائم والرُّقى والتِّوَلَةَ من الشِّرك. قيل: ما التِّوَلَة؟ قال: ما تحبَّبت به لزوجها[٥]. ورُويَ عن عقبة بن عامر الجُهنيِّ قال:

---

(١) الحديث الأول أخرجه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك ﷺ، والثاني أخرجه مسلم أيضاً (٢١٩٩) عن جابر بن عبد الله ﷺ.

(٢) التمهيد ١٧/ ١٦٠ - ١٦١.

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٩٦)، وأبو داود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (١٨٧٨١)، والترمذي (٢٠٧٢) من حديث عبد الله بن عكيم.

(٥) أخرجه أحمد (٣٦١٥)، وأبو داود (٣٨٨٣) دون قوله: ما التولة...

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من علَّق تميمةً فلا أتَمَّ اللهُ له، ومن علَّقَ وَدَعةً فلا وَدَّعَ الله له»[١]. قلنا[٢]: قال الخليل بن أحمد: التميمة: قِلادةٌ فيها عُوَذٌ، والوَدَعة: خرَزٌ. وقال أبو عمر: التميمة في كلام العرب: القِلادة، ومعناه عند أهل العلم: ما عُلِّقَ في الأعناق من القلائد خشيةَ العين أو غيرها أن تنزل أو لا تنزل قبل أن تنزل. فلا أتمَّ اللهُ عليه صحَّتَه وعافيتَه، ومن تعلَّق وَدَعةً ـ وهي مثلها في المعنى ـ فلا ودَعَ الله له، أي: فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية. والله أعلم. وهذا كلُّه تحذيرٌ مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرِف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو المعافي والمبتلي، لا شريك له. فنهاهم رسول الله ﷺ عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم. وعن عائشة قالت: ما تعلَّقَ بعد نزول البلاء فليس من التمائم. وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كلِّ حالٍ قبل نزول البلاء وبعده. والقولُ الأوَّلُ أصحُّ في الأثر والنظر إن شاء الله تعالى[٣].

وما رُوِيَ عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كرِه تعليقَه غيرَ القرآن أشياءَ مأخوذةً عن العرَّافين والكُهَّان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن مُعلَّقاً وغيرَ مُعلَّقٍ لا يكون شِرْكاً، وقوله عليه الصلاة والسلام: «من علَّق شيئاً وُكِلَ إليه» فمن علَّق القرآن ينبغي أن يتولَّاه اللهُ ولا يَكِلَه إلى غيره؛ لأنه تعالى هو المرغوبُ إليه والمُتوكَّلُ عليه في الاستشفاء بالقرآن. وسُئِلَ ابنُ المسيِّب عن التعويذ: أيُعلَّق؟ قال: إذا كان في قصبةٍ أو رقعةٍ يُحرَزُ فلا بأس به. وهذا على أن المكتوب قرآن. وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأساً أن يُعلِّقَ الرجلُ الشيءَ من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط. ورخَّصَ أبو جعفر محمد بن عليّ في التعويذ يُعلَّقُ على الصبيان. وكان ابن سِيرين لا يرى بأساً

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٤). ونصَّ السندي على أن كلمة «وَدَّعَ» ضُبطت بالتشديد.

(٢) في (م): قلباً. واعتُبرت هناك على أنها من الحديث!

(٣) التمهيد ١٧/ ١٦٢ - ١٦٤.

بالشيء من القرآن يُعلِّقه الإنسان[١].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تفريج الكروب، وتطهير العيوب، وتكفير الذنوب، مع ما تفضَّل به تعالى من الثواب في تلاوته؛ كما روى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الٓمٓ حرف، بل أَلِفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ ومِيمٌ حرفٌ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[٢]. وقد تقدَّم[٣]. ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لتكذيبهم[٤]. قال قتادة: ما جالسَ أحدٌ القرآنَ إلا قام عنه بزيادةٍ أو نقصان، ثم قرأ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية[٥]. ونظير هذه الآية قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. وقيل: شفاءٌ في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي: هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خَساراً صفتُهم الإعراضُ عن تدبُّر آياتِ الله والكفران لنعمه. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. ومعنى «نأى بجانبه» أي: تكبر وتباعد. وناء مقلوبٌ منه، والمعنى: بَعُدَ عن القيام بحقوق الله عزَّ وجلَّ؛ يقال: نأى الشيءُ، أي: بَعُدَ[٧]. ونأيتُه ونأيتُ

(١) المنهاج في شعب الإيمان ٢/ ٣٩.

(٢) سنن الترمذي (٢٩١٠).

(٣) ١/ ١٢.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٦٨.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٣٣ - ١٣٤، لكن أخرجه الحاكم ٢/ ٣٦٥، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٢٣ عن أويس القرني.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٦٨.

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٤ بمعناه.

عنه بمعنًى، أي: بَعُدْتُ. وأنأيتُه فانتأى، أي: أبعدتُه فبَعُد. وتناءَوْا تباعدوا. والمُنْتأى: الموضع البعيد. قال النابغة:

فإنكَ كالليلِ الذي هو مُدْرِكي ... وإن خِلْتُ أنَّ المُنتأى عنكَ واسِعُ[١]

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان: «ناء» مثل باع، الهمزة مؤخرة، وهو على طريقة القلب من نأى، كما يقال: راء ورأى[٢]. وقيل: هو من النَّوء وهو النهوض والقيام[٣]. وقد يقال أيضاً للوقوع والجلوس: نوء، وهو من الأضداد[٤]. وقرئ «ونَئِي» بفتح النون وكسر الهمزة[٥]. والعامة: «نأى» في وزن رأى[٦]. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ أي: إذا ناله شدةٌ من فقرٍ أو سقمٍ أو بؤسٍ يئس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى[٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال ابن عباس: ناحيته. وقاله الضحاك. مجاهد: طبيعته. وعنه: حِدَته. ابن زيد: على دينه. الحسن وقتادة: نيَّته. مقاتل: جِبِلَّته. الفراء: على طريقته ومذهبه الذي جُبِل عليه[٨]. وقيل: قل كلٌّ يعمل على ما هو أشكَلُ عنده وأوْلى بالصواب في اعتقاده[٩]. وقيل: هو مأخوذٌ من الشَّكْل؛

---

(١) الصحاح (نأى)، والبيت في ديوان النابغة ـ وهو الذبياني ـ ص٨١ .

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٤ . وينظر السبعة ص٣٨٤ ، والتيسير ص١٤١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٣٤ .

(٤) اللسان (نوأ).

(٥) وهي قراءة حمزة في روايتي خلاد وأبي عمر عن سليم. السبعة ص٣٨٤ ، والتيسير ص١٤١ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٤ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٨١ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٣٤ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨ .

يقال: لستَ على شَكْلي ولا شاكلتي[١]. قال الشاعر:

كلُّ امرئٍ يُشبهه فِعْلُه ما يفعل المرءُ فهو أهلُه[٢]

فالشَّكل هو المثل والنظير والضَّرب، كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨]. والشِّكل (بكسر الشين): الهيئة؛ يُقال: جارية حسنة الشِّكل. وهذه الأقوال كلُّها متقاربة.

والمعنى: أنَّ كلَّ أحدٍ يعمل على ما يُشاكل أصلَه وأخلاقَه التي أَلِفَها[٣]، وهذا ذمٌّ للكافر ومدحٌ للمؤمن. والآية والتي قبلها نزلتا في الوليد بن المغيرة ذكره المهدوِيُّ.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كلِّ واحدٍ منهم. وقيل: ﴿أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: أسرعُ قبولاً. وقيل: أحسَنُ ديناً.

وحُكيَ أنَّ الصحابةَ رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن، فقال أبو بكر الصديق ﷺ: قرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ فيه آيةً أرجى وأحسنَ من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان، ولا يشاكل بالرب إلا الغفران. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: قرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ فيه آيةً أرجى وأحسنَ من قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ١-٣] قدَّم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا إشارةٌ للمؤمنين. وقال عثمان بن عفان ﷺ: قرأتُ جميعَ القرآن من أوله إلى آخره فلم أرَ آيةً أحسنَ وأرجى من قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]. وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: قرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ آيةً أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٠ .

(٢) التمثيل والمحاضرة ص١٧ دون نسبة.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٥٤ .

أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قلت: وقرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ آيةً أحسنَ وأرجى من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

روى البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ عن عبد الله قال: بينا أنا مع النبيِّ ﷺ في حَرْثٍ وهو متَّكئٌ على عَسِيبٍ إذ مَرَّ اليهود، فقال بعضُهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال: ما رابكم[١] إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه. فسألوه عن الروح، فأمسكَ النبيُّ ﷺ فلم يرُدَّ عليهم شيئاً، فعلمتُ أنه يوحَى إليه، فقمتُ مقامي، فلما نزل الوحيُ قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لفظ البخاري. وفي مسلم: فأسكتَ النبيُّ ﷺ. وفيه: وما أوتوا[٢].

وقد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه أيُّ الروح هو؟ فقيل: هو جبريل. قاله قتادة. قال: وكان ابن عباس يكتمه. وقيل: هو عيسى[٣]. وقيل: القرآن، على ما يأتي بيانه في آخر الشُّورى[٤]. وقال عليُّ بن أبي طالب: هو مَلَكٌ من الملائكة له سبعون ألف وجه، في كلِّ وجهٍ سبعون ألف لسان، في كلِّ لسانٍ سبعون ألف لغة، يُسبِّحُ الله تعالى بكل تلك اللغات، يخلق الله تعالى من كل تسبيحةٍ مَلَكاً يطير مع الملائكة إلى

---

(١) من الرَّيب: وهو الشك. النهاية (ريب).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٤)، وسنن الترمذي (٣١٤١). وأخرجه أحمد (٣٦٨٨).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨١ .

(٤) عند تفسير الآية (٥٢) منها.

يوم القيامة. ذكره الطبريُّ[١]. قال ابن عطية[٢]: وما أظنُّ القولَ يصِحُّ عن عليٍّ ﷺ.

قلت: أسند البيهقيُّ: أخبرنا أبو زكريا، عن أبي إسحاق، أخبرنا أبو الحسن الطرائفي، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن عليِّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ يقول: الروح مَلَك. وبإسناده عن معاوية بن صالح حدَّثني أبو هِران ـ بكسر الهاء ـ يزيد بن سمُرة، عمَّن حدَّثه عن عليِّ بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ قال: هو ملَكٌ من الملائكة، له سبعون ألف وجه... الحديث بلفظه ومعناه[٣]. وروى عطاء عن ابن عباس قال: الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه، يسبح الله إلى يوم القيامة. ذكره النحاس[٤]. وعنه: جندٌ من جنود الله لهم أيدٍ وأرجلٌ يأكلون الطعام. ذكره الغَزْنَويُّ. وقال الخطابي: وقال بعضهم: هو ملَكٌ من الملائكة بصفةٍ وضعوها من عِظَمِ الخِلْقة. وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد. وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الرُّوح ومسلكه في بدن الإنسان، وكيف امتزاجُه بالجسمِ واتصالُ الحياة به، وهذا شيءٌ لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ[٥]. وقال أبو صالح: الرُّوح خَلْقٌ كخلق بني آدم وليسوا ببني آدم، لهم أيدٍ وأرجل[٦]. والصحيح الإبهام؛ لقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[٧] أي: هو أمرٌ عظيمٌ

(١) في تفسير ١٥/ ٧١ بمثل إسناد البيهقي الآتي، وفيه رجل مبهم. وقال ابن كثير في تفسيره: هذا أثر غريب عجيب.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٢ .

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (٧٨٠) و(٧٨١)، وفي إسناد الأول علي بن أبي طلحة، وهو ضعيف، وهو لم يسمع من ابن عباس. التهذيب ٣/ ١٧١ . وفي إسناد الثاني رجل مبهم.

(٤) في معاني القرآن له ٤/ ١٨٩ .

(٥) أعلام الحديث ٣/ ١٨٧٤ .

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٨٢).

(٧) وقع بعدها في النسخ عبارة: «دليل على خلق الروح»، والظاهر أنها مقحمة؛ إذ لا معنى لها هنا، ثم إنها لم ترد في المصدر الذي نقل منه المصنف.

وشأنٌ كبيرٌ من أمر الله تعالى، مُبْهِماً له وتاركاً تفصيلَه؛ ليعرف الإنسان على القطعِ عَجْزَه عن عِلم حقيقةِ نفسِه مع العلم بوجودها، وإذا كان الإنسان في معرفة نفسِه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقةِ الحقِّ أولى[١]. وحكمةُ ذلك تعجيزُ العقل عن إدراك معرفة مخلوقٍ مجاورٍ له، دلالةً على أنه عن إدراك خالقه أعجَزُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اختُلِف فيمن خُوطب بذلك؛ فقالت فرقة: السائلون فقط. وقال قوم: المرادُ اليهود بجُملتهم. وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود: «وما أوتوا»[٢]، ورواها عن النبيِّ ﷺ. وقالت فرقة: المرادُ العَالم كلُّه. وهو الصحيح، وعليه قراءة الجمهور: «وما أوتيتم». وقد قالت اليهود للنبيِّ ﷺ: كيف لم نُؤتَ من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فعارضهم رسول الله ﷺ بعلم الله فغُلِبوا. وقد نصَّ رسولُ الله ﷺ بقوله في بعض الأحاديث: «كُلًّا» يعني أنَّ المراد بـ «ما أوتِيتم» جميع العالم. وذلك أنَّ يهودَ قالت له: نحنُ عَنيتَ أم قَومك؟ فقال: «كُلًّا». وفي هذا المعنى نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. حكى ذلك الطبريُّ رحمه الله[٣] وقد قيل: إنَّ السائلين عن الروح هم قريش، قالت لهم اليهود: سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فإن أخبركم عن اثنين وأمسكَ عن واحدةٍ فهو نبيٌّ. فأخبرهم خبرَ أصحاب الكهف وخبرَ ذي القرنين على ما يأتي. وقال في الروح: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله. ذكره المهدويُّ وغيرُه من المفسِّرين عن ابن عباس[٤].

---

(١) المفهم ٧/ ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٢) وهي قراءة شاذة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٢، وكلام الطبري في تفسيره ١٥/ ٧٢ وهو من قوله: وذلك أن يهود...إلخ.

(٤) وذكره ابن الجوزي أيضاً في زاد المسير ٥/ ٨١ عن عطاء عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن. أي: كما قَدَرنا على إنزاله نقدِرُ على إذهابه حتى ينساه الخلق. ويتَّصل هذا بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو شئتُ أن أذهبَ بذلك القليلِ لقَدَرتُ عليه. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: ناصراً يردُّه عليك.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ يعني: لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك؛ فهو استثناءٌ ليس من الأوّل[1]. وقيل: إلا أن يرحمك ربُّكَ فلا يذهَبُ به[2].

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ إذ جعلكَ سيِّدَ ولدِ آدم، وأعطاك المقامَ المحمود وهذا الكتاب العزيز[3]. وقال عبد الله بن مسعود: أوّل ما تَفْقِدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تَفْقِدون الصلاة، وأنَّ هذا القرآنَ كأنَّه قد نُزِعَ منكم، تُصبِحون يوماً وما معكم منه شيء. فقال رجل: كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن وقد ثبَّتناه في قلوبنا، وأثبتناه في مصاحفنا، نُعلِّمه أبناءَنا، ويعلِّمه أبناؤنا أبناءَهم إلى يوم القيامة؟! قال: يُسرى به في ليلةٍ فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب، فتصبح الناس كالبهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية[4]. أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال: أخبرنا أبو الأحْوص، عن عبد العزيز بن رُفَيع، عن شدَّاد بن مَعْقِلٍ قال: قال عبد الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ: إنَّ هذا القرآنَ الذي بين أظهُرِكم يوشِكُ أن يُنزَعَ منكم. قال: قلتُ: كيف يُنزَعُ منَّا وقد أثبتَه اللهُ في قلوبنا وثبَّتناه في مصاحفنا؟! قال: يُسرى عليه في ليلةٍ واحدةٍ، فيُنزَعُ ما في القلوب، ويذهب ما في

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٣٥.

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٤٣٩.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٦.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٩٨٠)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٩٨).

المصاحف، ويصبحُ الناسُ منه فقراء. ثم قرأ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[١] وهذا إسناد صحيح. وعن ابن عمر: لا تقوم الساعة حتى يرجعَ القرآنُ من حيث نزل، له دَوِيٌّ كدويِّ النحل، فيقول الله: ما بالك؟ فيقول: يا ربِّ منك خرجتُ وإليكَ أعود، أُتْلَى فلا يُعمَلُ بي، أُتْلَى ولا يُعمَلُ بي[٢].

قلت: قد جاء معنى هذا مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص[٣] وحذيفة؛ قال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «يُدرَسُ الإسلامُ كما يُدرَسُ وَشْيُ الثوبِ، حتى لا يُدْرَى ما صيامٌ ولا صلاةٌ ولا نُسكٌ ولا صدقةٌ، فيُسرى على كتاب الله تعالى في ليلةٍ فلا يبقى منه في الأرض آيةٌ، وتبقى طوائفُ من الناس الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ يقولون: أدرَكْنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها»[٤]. قال له صلة[٥]: ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا نُسكٌ ولا صدقة؟! فأعرضَ عنه حذيفة، ثم ردَّدها ثلاثاً، كلُّ ذلك يُعرِضُ عنه حذيفة، ثم أقبل عليه حذيفةُ فقال: يا صِلة، تُنجيهم من النار. ثلاثاً. خرَّجه ابن ماجه في السنن[٦]. وقال عبد الله بن عمر: خرجَ النبيُّ ﷺ وهو معصوبُ الرأس من وجعٍ، فضحك، فصعِد المنبرَ، فحمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، ما هذه الكتُبُ التي تكتبون؟ أكِتابٌ غيرُ كتاب الله؟! يوشِكُ أنْ يغضبَ اللهُ لكتابه، فلا يَدَعَ ورقاً ولا قلباً إلا أخذ منه» قالوا: يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ؟ قال: «مَنْ أرادَ اللهُ به خيراً أبقى في قلبه لا إله إلا الله» ذكره الثعلبيُّ والغَزْنَوِيُّ وغيرهما

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٣٥ ، وفيه: عن ابن عمرو.

(٣) هكذا وقع في النسخ: والحديث إنما هو عن عبد الله بن عمرو كما سيأتي.

(٤) في جميع النسخ: «وهم لا يدرون ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا نسكٌ» بدلاً من «فنحن نقولها».

(٥) وهو ابن زُفر، وهو أحد الرواة للأحاديث.

(٦) سنن ابن ماجه (٤٠٤٩). وأخرجه الحاكم ٤/ ٤٧٣ و ٥٤٥ .

في التفسير[١].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

أي: عوناً ونصيراً، مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعرٍ فيقيمونه. نزلت حين قال الكفار: لو نشاءُ لَقُلنا مثلَ هذا، فأكذبهم الله تعالى[٢]. وقد مضى القول في إعجاز القرآن في أوّل الكتاب[٣]، والحمد لله. و﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواب القسم في «لئن» وقد يُجزَمُ على إرادة الشرط؛ قال الشاعر:

لَئِنْ كانَ ما حُدِّثْتِهِ اليومَ صادقاً أُقِمْ في نهارِ القَيْظِ للشمسِ بادِيَا[٤]

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: وجَّهنا القولَ فيه بكلِّ مَثلٍ يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر، والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي، وأقاصيص الأوّلين، والجنة والنار والقيامة. ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يريد أهلَ مكة؛ بيَّن لهم الحقَّ، وفتح لهم وأمهلهم حتى تبيَّن لهم أنه الحق، فأبَوْا إلا الكفر وقتَ تَبيُّنِ الحق. قال المهدَوِيُّ: ولا حجةَ للقدريّ في قولهم: لا يُقال أبى إلا لمن أبَى فِعْلَ ما هو قادرٌ عليه؛ لأنَّ الكافرَ وإن كان غير قادرٍ على الإيمان بحُكم الله عليه بالإعراض عنه وطبْعِه على قلبه، فقد كان قادراً وقتَ الفُسحةِ

---

(١) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٥١٠)، والدعاء (١٤٨٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٥٠: في إسناده عيسى بن ميمون الواسطي، وهو متروك، وقد وثقه حماد بن سلمة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٣٥.

(٣) ١/ ٣٥١ - ٣٥٢.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٠ - ١٣١ بمعناه. والبيت قائلته امرأةٌ من بني عقيل، وهو في خزانة الأدب ١١/ ٣٢٨. وفيهما «أصُمْ» بدل «أقُمْ».

والمُهلة على طلب الحقِّ وتمييزه من الباطل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الآية نزلت في رؤساء قريشٍ مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي سفيان والنضر بن الحارث، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية، وأميَّة بن خلف وأبي البَخْتَريِّ، والوليد بن المغيرة وغيرهم. وذلك أنهم لمَّا عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضَوْا به معجزةً، اجتمعوا ـ فيما ذكر ابن إسحاق وغيره ـ بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمدٍ ـ ﷺ ـ فكلِّموه وخاصِموه حتى تُعْذَرُوا فيه، فبعثوا إليه: إنَّ أشرافَ قومك قد اجتمعوا لك[1] ليكلموك فأْتِهم، فجاءهم رسولُ الله ﷺ وهو يظنُّ أن قد بدا لهم فيما كلَّمهم فيه بُدُوٌّ، وكان رسول الله ﷺ حريصاً يحبُّ رشدَهم ويَعِزُّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد، إنَّا قد بعثنا إليك لنكلِّمَكَ، وإنَّا واللهِ ما نعلمُ رجلاً من العرب أدخلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعِبْتَ الدين، وشتمتَ الآلهة، وسفَّهتَ الأحلامَ، وفرَّقتَ الجماعة، فما بَقيَ أمرٌ قبيحٌ إلا وقد جئتَه فيما بيننا وبينك ـ أو كما قالوا له ـ فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلبُ به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ إنما تطلبُ به الشرفَ فينا فنحن نُسوِّدُكَ علينا، وإن كنتَ تريد به مُلكاً ملَّكناكَ علينا، وإن كان هذا الذي يأتيكَ رَئِيًّا تراه قد غَلَب عليك ـ وكانوا يُسمُّون التابعَ من الجنِّ رَئِيًّا،

---

(١) في (م): إليك.

فربما كان ذلك ـ بذلنا أموالنا في طلب الطبِّ لك حتى نُبْرِئكَ منه أو نُعذرَ فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الملكَ عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغتُكُم رسالاتِ ربي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتُكم به فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» أو كما قال ﷺ. قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غيرَ قابلٍ منَّا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلداً ولا أقلَّ ماءً ولا أشدَّ عيشاً مِنَّا، فسَلْ لنا ربَّك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسيِّرْ عنا هذه الجبال التي قد ضُيِّقتْ علينا، ولْيَبْسُطْ لنا بلادَنا، وليخْرِقْ لنا فيها أنهاراً كأنهار الشأم، وليبعث لنا مَنْ مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قُصيَّ بن كلاب؛ فإنه كان شيخَ صِدْقٍ فنسألهم عما تقول، أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدَّقوكَ وصنعتَ ما سألناكَ صدَّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: «ما بهذا بُعِثتُ إليكم، إنما جئتُكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلَّغْتُكم ما أُرسِلْتُ به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإنْ تردُّوه عليَّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فإذ لم تفعل هذا لنا فخُذْ لنفسِكَ، سَلْ ربَّكَ أن يبعثَ معك مَلَكاً يُصدِّقُكَ بما تقول، ويُراجعُنا عنك، واسأله فليجعَلْ لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهبٍ وفضةٍ يُغنيكَ بها عمَّا نراك تبتغي، فإنك تقومُ بالأسواق وتلتمِسُ المعاشَ كما نلتمِسُه، حتى نعرِفَ فضلَك ومنزلتَك من ربِّكَ إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعلٍ، وما أنا بالذي يسألُ ربَّه هذا، وما بُعِثتُ بهذا إليكم، ولكنَّ اللهَ بعثني بشيراً ونذيراً ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا مني ما جئتُكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: فأسْقِطِ السماءَ علينا كِسَفاً كما زعمتَ أنَّ ربَّكَ إن شاء فعل؛ فإنَّا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال: فقال رسول الله ﷺ: «ذلك

إلى الله عزَّ وجلَّ، إن شاء أن يفعلَه بكم فعل» قالوا: يا محمد، أفما عَلِمَ ربُّكَ أنَّا سنجلسُ معك ونسألُك عما سألناك عنه، ونطلبُ منكَ ما نطلب، فيتقدَّمَ إليك فيُعلمَكَ بما تُراجعُنا به، ويخبرَكَ ما هو صانعٌ في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به؟! إنه قد بلَغَنا أنك إنما يُعلِّمك هذا رجلٌ من اليمامة يُقال له: الرحمن، وإنَّا واللهِ لا نؤمنُ بالرحمن أبداً، فقد أعذَرْنا إليك يا محمد، وإنَّا واللهِ لا نتركُكَ وما بلغتَ منا حَتى نُهلِكَك أو تُهلِكَنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمِنَ لكَ حتى تأتي بالله والملائكة قَبِيلاً. فلمَّا قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكةَ بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد، عرضَ عليكَ قومُكَ ما عرضوا فلم تقبَلْه منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويُصدِّقوك ويتَّبعوك فلم تفعل! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلَكَ عليهم ومنزلتَكَ من الله فلم تفعل! ثم سألوك أن تُعجِّلَ لهم بعضَ ما تُخوِّفُهم به من العذاب فلم تفعل! ـ أو كما قال له ـ فواللهِ لا أُومِنُ بكَ أبداً حتى تتَّخِذَ إلى السماء سُلَّماً، ثم تَرْقَى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصَكٍّ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وَايْمُ اللهِ لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أني أُصَدِّقُكَ! ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسِفاً لِما فاتَه مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوه، ولِما رأى من مباعدتهم إياه. كلُّه لفظ ابن إسحاق[١].

وذكر الواحديُّ عن عكرمة، عن ابن عباس: فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[٢]. ﴿يَنۢبُوعًا﴾ يعني العيون عن مجاهد[٣]. وهي يَفعول، من نَبَع يَنْبَع[٤]. وقرأ عاصم وحمزة والكسائيُّ: «تَفْجُرَ لنا» مخفَّفة، واختاره

(١) كما في سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥ - ٢٩٨. وأخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٨٧ - ٩٠.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٩٣. وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٧٨، وهو في تفسيره ١/ ٣٧٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٩، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ١٦٥.

أبو حاتم؛ لأنَّ اليَنبوع واحد. ولم يختلفوا في «تُفجِّرَ الأنهار» أنه مُشدَّد. قال أبو عبيد: والأُولى مثلها. قال أبو حاتم. ليست مثلها؛ لأنَّ الأُولى بعدها يَنبوعٌ وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع، والتَّشديد يدلُّ على التكثير[١]. أُجيبَ بأنَّ «يَنبوعا» وإن كان واحداً فالمراد به الجمع، كما قال مجاهد. اليَنبوع: عين الماء، والجمع الينابيع[٢]. وقرأ قتادة: «أو يكونَ لكَ جنة»[٣]. ﴿خِلَلَهَا﴾ أي: وسطها[٤].

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ قراءة العامة. وقرأ مجاهد: «أو تَسْقُطَ السماءُ» على إسناد الفعل إلى السماء[٥]. ﴿كِسَفًا﴾ قِطَعاً. عن ابن عباس وغيره[٦]. والكِسَف ـ بفتح السين ـ جمع كِسْفة، وهي قراءة نافع وابن عامر وعاصم. الباقون: «كِسْفاً» بإسكان السين[٧]. قال الأخفش: من قرأ كسْفاً من السماء جعله واحداً، ومن قرأ كِسَفاً جعله جمعاً[٨]. قال المهدَويُّ: ومن أسكن السين جاز أن يكون جمع كِسْفة، وجاز أن يكون مصدراً؛ مِنْ كسفتَ الشيء إذا غطَّيتَه. فكأنهم قالوا: أسقطها طبقاً علينا[٩]. وقال الجوهريّ[١٠]: الكِسْفة: القطعة من الشيء؛ يُقال: أعطني كِسْفةً من ثوبك، والجمع كِسْف وكِسَف. ويقال: الكِسْفُ والكِسْفةُ واحد. ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٥٧ بمعناه. وينظر السبعة ص٣٨٥ ، والتيسير ص١٤١ .

(٢) تهذيب اللغة ٣/ ٨ .

(٣) لم نقف على من ذكرها سوى المصنف، وهي قراءة شاذة.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٣ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٨٧ .

(٥) القراءات الشاذة ص٧٧ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٧٣ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٣٧ . وينظر السبعة ص٣٨٥ ، والتيسير ص١٤١ .

(٨) نقله عنه الجوهري في الصحاح (كسف).

(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٥ بمعناه.

(١٠) في الصحاح (كسف).

﴿قَبِيلًا﴾ أي: معاينة. عن قَتادة وابن جُريج[١]. وقال الضحاك وابن عباس: كفيلاً[٢]. قال مقاتل: شهيداً. مجاهد: هو جمع القبيلة؛ أي: بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلةً[٣]. وقيل: ضمناء يضمنون لنا إتيانك به.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب. عن ابن عباس وغيره. وأصله الزينة[٤]. والمُزَخْرَف: المُزَيَّن. وزخارف الماء: طرائقه[٥]. وقال مجاهد: كنت لا أدري ما الزُّخْرُف حتى رأيتُه في قراءة ابن مسعود: «بيتٌ مِن ذَهَبٍ»[٦] أي: نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذي نرى.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: تصعَد[٧]؛ يقال: رَقِيتُ في السُّلَّم أرْقَى رَقْياً ورُقِيًّا إذا صعِدتُ، وارتقيتُ مثله[٨]. ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: من أجل رُقيِّك[٩]، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضي مُضِيًّا، وهوى يهوي هُوِيًّا، كذلك رقى يرقى رُقِيًّا.

﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ أي: كتاباً من الله تعالى إلى كلِّ رجلٍ منا؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[١٠] [المدثر: ٥٢]. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وقرأ أهل مكة والشام: «قال سُبحانَ ربي» يعني النبيَّ ﷺ[١١]؛ أي: قال ذلك

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٧٣ ، وزاد المسير ٥/ ٨٧ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٣٧ عن ابن عباس.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الصحاح (زخرف).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٩٥ . وأخرجه الطبري ١٥/ ٨٥ ، وهي قراءة شاذة.

(٧) زاد المسير ٥/ ٨٨ .

(٨) الصحاح (رقي).

(٩) مجمع البيان ١٥/ ٩٩ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٥٨ .

(١٠) مجمع البيان ١٥/ ٩٩ .

(١١) تفسير البغوي ٣/ ١٣٧ . وينظر السبعة ص٣٨٥ ، والتيسير ص١٤١ .

تنزيهاً لِله عزَّ وجلَّ عن أن يعجِزَ عن شيءٍ وعن أن يُعترَضَ عليه في فعل. وقيل: هذا كلُّه تعجُّبٌ عن فرط كفرهم واقتراحاتهم. الباقون «قل» على الأمر؛ أي: قل لهم يا محمد ﴿هَلْ كُنتُ﴾ أي: ما أنا ﴿إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1] أتَّبع ما يوحَى إليَّ من ربِّي، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحداً من البشر أتى بهذه الآيات؟! وقال بعض الملحدين: ليس هذا جواباً مُقنِعاً، وغَلِطوا؛ لأنه أجابهم فقال: إنما أنا بشرٌ لا أقدر على شيءٍ مما سألتموني، وليس لي أن أتخيَّر على ربي، ولم تكن الرسل قَبْلي يأتون أممَهم بكلِّ ما يريدونه ويبغونه، وسبيلي سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالَّة على صحة نبوَّتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكلِّ ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكلِّ إنسانٍ أن يقول: لا أُومِنُ حتى أُوتىَ بآيةٍ خلاف ما طلب غيري. وهذا يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس. وإنما التدبير إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يعني الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه. ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ جهلاً منهم[2]: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: الله أجَلُّ من أن يكون رسولُه من البشر[3]. فبيَّن الله تعالى فَرْطَ عنادهم؛ لأنهم قالوا: أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد، وغفلوا عن المعجزة. فـ«أَنْ» الأُولى في محلِّ نصبٍ بإسقاط حرف الخفض. و«أنْ» الثانية في محلِّ رفع بـ«منع» أي: وما منع الناسَ من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم: أبعَثَ اللهُ بشراً رسولاً[4].

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٩١.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٩.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦١.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

أعلمَ اللهُ تعالى أنَّ المَلَك إنما يُرسَلُ إلى الملائكة؛ لأنه لو أرسل ملكاً إلى الآدميِّين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التي خُلِقَ عليها، وإنما أقدَرَ الأنبياءَ على ذلك وخَلقَ فيهم ما يقدرون به؛ ليكون ذلك آيةً لهم ومعجزة[١]. وقد تقدَّم في «الأنعام» نظيرُ هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ وقد تقدَّم الكلام فيه[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

يُروى أنَّ كفار قريشٍ قالوا حين سمعوا قولَه: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾: فمن يشهد لكَ أنك رسولُ الله؟ فنزل: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ﴾ أي: لو هداهم الله لاهتدَوا. ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ أي: لا يهديهم أحد.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ أنَّ ذلك عبارةٌ عن الإسراع بهم إلى جهنم؛ من قول العرب: قَدِم القوم على وجوههم إذا أسرعوا. الثاني ـ

---

(١) قاله الطبرسي في مجمع البيان ١٥/ ١٠١ بمعناه.

(٢) ٨/ ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٤، وفيه أن ذلك بعد أن سمعوا قوله: «لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً».

أنهم يُسحَبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يُفعل في الدنيا بمن يُبالَغ في هَوانه وتعذيبه[١]. وهذا هو الصحيح؛ لحديث أنسٍ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، الذين يُحشرون على وجوههم، أيُحشَرُ الكافرُ على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليسَ الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يُمْشِيَه على وجهه يوم القيامة؟». قال قتادة حين بلغه: بَلَى وعِزَّةِ رَبِّنا. أخرجه البخاريُّ ومسلم[٢]. وحسبُكَ.

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قال ابن عباس والحسن: أي: عُمْيٌ عمَّا يسُرُّهم، بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صُمٌّ عما ينفعهم. وعلى هذا القول حواسُّهم باقيةٌ على ما كانت عليه. وقيل: إنهم يُحشرون على الصفة التي وصفَهم الله بها؛ ليكون ذلك زيادةً في عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم في النار، فأبصروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣] وتكلموا؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:١٣]، وسمعوا؛ لقوله تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢]. وقال مقاتل بن سليمان: إذا قيل لهم: «اِخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» [المؤمنون:١٠٨] صاروا عُمْياً لا يبصرون، صُمًّا لا يسمعون، بُكْماً لا يفقهون[٣]. وقيل: عموا حين دخلوا النار لشدّة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم: اخسؤوا فيها ولا تكلّمون. وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئاً.

﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مستقرُّهم ومقامهم. ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي: سكنت، عن الضحاك. وغيره. مجاهد: طَفِئت[٤]: يقال: خبَتِ النارُ تخبو خبواً، أي: طَفِئت، وأخبيتُها أنا[٥]. ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً تتلهَّب[٦]. وسكونُ التهابِها من غير نقصانٍ

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢) صحيح البخاري (٤٧٦٠)، وصحيح مسلم (٢٨٠٦).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥ . وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٥/ ٩٦ ، وأخرجه أيضاً ١٥/ ٩٥ عن ابن عباس ومجاهد.

(٥) الصحاح (خبا).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٩٨ ، وزاد المسير ٥/ ٩١ .

في آلامهم ولا تخفيفٍ عنهم من عذابهم[١]. وقيل: إذا أرادت أن تَخْبُو. كقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الآية ٤٥ من هذه السورة].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ذلك العذاب جزاءُ كفرهم. ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي: تراباً[٢]. ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ قيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: أو لم يروا أنَّ الله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل لهم أجلاً لا ريبَ فيه قادرٌ على أن يخلق مثلهم. والأجل: مدَّة قيامهم في الدنيا ثم موتهم، وذلك ما لا شكَّ فيه إذ هو مشاهد. وقيل: هو جواب قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾. وقيل: هو يوم القيامة.

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي المشركون إلا جحوداً بذلك الأجل وبآيات الله. وقيل: ذلك الأجل هو وقت البعث[٣]، ولا ينبغي أن يُشَكَّ فيه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ أي: خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النِّعم، وهذا أعمُّ[٤]. ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ من البخل، وهو جواب

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٥ بمعناه.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣٠ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٦ .

قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[١] حتى نتوسَّع في المعيشة. أي: لو توسَّعتم لبخِلتم أيضاً. وقيل: المعنى: لو ملَكَ أحدُ المخلوقين خزائنَ اللهِ لما جادَ بها كجود الله تعالى؛ لأمرين: أحدهما ـ أنه لابُدَّ أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته. الثاني ـ أنه يخاف الفقر ويخشى العدم، واللهُ تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين[٢]. والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر؛ قاله ابن عباس وقتادة[٣]. وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قلّ ماله.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي: بخيلاً مُضيِّقاً[٤]. يقال: قَتَر على عياله يَقْتِرُ ويَقْتُرُ قَتْراً وقُتوراً إذا ضيَّقَ عليهم في النفقة، وكذلك التقتير والإقتار، ثلاث لغات[٥]. واختُلِفَ في هذه الآية على قولين: أحدهما ـ أنها نزلت في المشركين خاصَّةً. قاله الحسن. والثاني ـ أنها عامة. وهو قول الجمهور، وذكره الماوردي[٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ اختُلِفَ في هذه الآيات، فقيل: هي بمعنى آيات الكتاب، كما روى الترمذيُّ والنسائيُّ عن صَفوان بن عَسَّال المُراديّ أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اِذْهَبْ بنا إلى هذا النبيِّ نسأله. فقال: لا تقُلْ له: نبيٌّ، فإنه إن سمِعَنا كان له أربعةُ أعيُنٍ. فأتيا النبيَّ ﷺ، فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦١ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٧٦ .

(٣) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٩٨ .

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥١ .

(٥) الصحاح (قتر).

(٦) في النكت والعيون ٣/ ٢٧٦ .

تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، ولا تَسْرِقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببريء إلى سلطانٍ فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنةً، ولا تَفِرُّوا من الزحف ـ شك شعبة ـ وعليكم يا معشر[١] اليهود خاصّةً ألا تعدوا في السبت» فقبَّلا يدَيه ورجلَيه وقالا: نشهدُ أنَّكَ نبيٌّ. قال: «فما يمنعُكُما أن تُسلِما؟» قالا: إن داودَ دعا اللهَ ألَّا يزال في ذُرِّيته نبيٌّ، وإنَّا نخاف إن أسلمنا أن تقتُلَنا اليهود. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٢]. وقد مضى في البقرة[٣]. وقيل: الآيات بمعنى المعجزات والدلالات. قال ابن عباس والضحاك: الآيات التسع: العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم؛ آياتٌ مفصَّلات. وقال الحسن والشعبيُّ: الخمس المذكورة في «الأعراف»[٤]، يعنيان الطوفانَ وما عُطِفَ عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات. ورُويَ نحوُه عن الحسن، إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة: تلقُّفُ العصا ما يأفكون. وعن مالك كذلك، إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات: البحر والجبل. وقال محمد بن كعب: هي الخمس التي في «الأعراف» والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم[٥]. وقد تقدَّم شرح هذه الآيات مستوفًى والحمد لله. ﴿فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ أي: سَلْهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات، حسبما تقدَّم بيانه في يونس[٦]. وهذا سؤال استفهامٍ؛ ليعرف اليهودُ صحةَ ما يقول محمدٌ ﷺ. ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ

(١) قوله: «يا معشر» ليس في النسخ، وقد أثبت من سنن الترمذي.

(٢) سنن الترمذي (٢٧٣٣)، والمجتبى ٧/ ١١١، وسنن النسائي الكبرى (٣٥٢٧).

(٣) ٢/ ١٦٨ - ١٦٩.

(٤) عند تفسير الآية (١٣٣).

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٨، وتفسير البغوي ٣/ ١٣٩ - ١٤٠، وزاد المسير ٥/ ٩٢. وقول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٩٠، والطبري ١٥/ ١٠١ - ١٠٢. وقول الشعبي أخرجه الطبري ١٥/ ١٠١، وقول الحسن الثاني أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٩١، والطبري ١٥/ ١٠٢.

(٦) ١١/ ٥٢.

﴿يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورًا﴾ أي: ساحراً بغرائب أفعالك. قاله الفراء وأبو عبيدة. فوضع المفعول موضِعَ الفاعل، كما تقول: هذا مشؤوم وميمون، أي: شائم ويامن[١]. وقيل: مخدوعاً[٢]. وقيل: مغلوباً. قاله مقاتل. وقيل غير هذا؛ وقد تقدَّم. وعن ابن عباسٍ وأبي نَهِيك أنهما قرأا: «فَسألَ بني إسرائيل» على الخبر، أي: سأل موسى فرعونَ أن يُخلِّي بني إسرائيل ويُطلِقَ سبيلَهم ويرسلَهم معه[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الآيات التسع. و«أنزل» بمعنى أوجد. ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ أي: دلالاتٍ يُستدَلُّ بها على قدرته ووحدانيته. وقراءة العامة: «علِمتَ» بفتح التاء، خطاباً لفرعون. وقرأ الكسائيُّ بضَمِّ التاء، وهي قراءة عليٍّ ﷺ، وقال: واللهِ ما علِمَ عدوُّ الله ولكنَّ موسى هو الذي عَلِمَ، فبلغَتِ ابنَ عباس فقال: إنها «لقد عَلِمْتَ»، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل: ١٤] ونَسبَ فرعونَ إلى العناد[٤]. وقال أبو عبيد: والمأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصحُّ للمعنى الذي احتجَّ به ابن عباس؛ ولأن موسى لا يَحتَجُّ بقوله: علمتُ أنا، وهو الرسول الداعي، ولو كان مع هذا كلِّه تصِحُّ به القراءة عن عليٍّ لكانت حجة، ولكن لا تثبت عنه، إنما هي عن كُلثوم المرادِيِّ وهو مجهولٌ لا يُعْرَف، ولا نعلم أحداً قرأ بها غير الكسائي[٥]. وقيل: إنما أضاف موسى

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣١ ، وزاد المسير ٥/ ٩٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٤٠ ، وزاد المسير ٥/ ٩٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٩ بنحوه. وهذه القراءة في القراءات الشاذة ص٧٧ عن ابن عباس وحده.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣١ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٤٠ ، وزاد المسير ٥/ ٩٤ . وينظر السبعة ص٣٨٥-٣٨٦ ، والتيسير ص١٤١ .

(٥) قاله النحاس في معاني القرآن ٤/ ٢٠١ - ٢٠٢ بمعناه. وقد ذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٣٢ إسناد القراءة عن عليٍّ، وفيه الرجل المجهول الذي ذكره المصنف.

إلى فرعون العلم بهذه المعجزات؛ لأنَّ فرعون قد علم مقدار ما يتهيَّأ للسحرة فِعْلُه، وأنَّ مثل ما فعل موسى لا يتهيَّأ لساحر، وأنه لا يقدِرُ على فعلِه إلا من يفعل الأجسام ويملك السماوات والأرض. وقال مجاهد: دخل موسى على فرعون في يوم شاتٍ وعليه قطيفة له، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان، فرأى فرعون جانبي البيت بين فُقْمَيْها[١]، ففزع وأحدث في قطيفته.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الظنُّ هنا بمعنى التحقيق. والثبور: الهلاك والخسران أيضاً. قال الكُمَيْت:

ورأتْ قُضاعةُ في الأيا ... مِنِ رأيَ مَثْبُورٍ وثابرِ

أي: مخسورٍ وخاسرٍ، يعني في انتسابها إلى اليمن[٢]. وقيل: ملعوناً. رواه المِنْهال عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس[٣]. وقاله أبان بن تَغْلِب، وأنشد:

يا قومَنا لا تَرُومُوا حَرْبَنا سَفَهاً ... إنّ السَّفاه وإن البَغْيَ مثبورُ

أي: ملعون[٤]. وقال ميمون بن مِهْران عن ابن عباس: «مثبوراً»: ناقص العقل[٥]. ونظر المأمون رجلاً فقال له: يا مثبور، فسُئِلَ عنه، قال فقال الرشيد: قال المنصور لرجل: مثبور؛ فسألتُه فقال: حدثني ميمون بن مِهران... فذكره. وقال قتادة: هالكاً[٦]. وعنه أيضاً والحسن ومجاهد: مُهلَكاً[٧]. والثُّبُور: الهلاك؛ يقال: ثَبَر اللهُ

(١) الفُقْمُ، بالضمِّ والفتح: اللَّحى. النهاية (فقم).

(٢) الصحاح (ثبر).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٣ ، وأخرجه الطبري ١٥/ ١٠٨ - ١٠٩ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٨ .

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٩٤ - ٩٥ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٧٨ .

(٧) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٢٠٣ عن قتادة، وأبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٨٦ عن قتادة والحسن، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٧١ .

العدوَّ ثُبوراً أهلكه[١]. وقيل: ممنوعاً من الخير. حكى أهل اللغة: ما ثبرَكَ عن كذا، أي: ما منعكَ منه[٢]. وثبرَهُ اللهُ يَثْبُره ثَبْراً[٣]. قال ابنُ الزِّبَعْرَى[٤]:

إذ أُجارِي الشيطانَ في سَنَنِ الغَـ ـيِّ ومن مالَ مَيْلَهُ مثبورُ

الضحاك: «مثبوراً»: مسحوراً. ردَّ عليه مثلَ ما قال له باختلاف اللفظ. وقال ابن زيد: «مثبوراً»: مخبولاً لا عقلَ له[٥].

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أراد فرعون أن يُخرِجَ موسى وبني إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد، فأهلكه الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد إغراقه ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الشام ومصر. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: من قبوركم مختلطين من كلِّ موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر، لا يتعارفون، ولا ينحاز أحدٌ منكم إلى قبيلته وحَيِّه[٦]. وقال ابن عباس وقتادة: جئنا بكم جميعاً من جهاتٍ شتَّى[٧]. والمعنى واحد. قال الجوهريُّ: واللَّفيفُ: ما اجتمعَ من الناس من قبائل شتَّى؛ يقال: جاء القوم بلَفِّهم ولَفِيفهم، أي: وأخلاطهم. وقوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: مجتمعين مُختَلِطين. وطعامٌ لَفِيفٌ: إذا كان مخلوطاً من جنسين فصاعداً. وفلانٌ لفيفُ

(١) تاج العروس (ثبر).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٢ .

(٣) الصحاح (ثبر).

(٤) في ديوانه ص٣٦ .

(٥) مجمع البيان ١٥/ ١٠٧ .

(٦) المصدر السابق، لكن بمعناه

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٧٨ .

فلانٍ، أي: صديقه[١]. قال الأصمعيُّ: اللفيف: جمعٌ وليس له واحد، وهو مثل الجميع[٢]. والمعنى: أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر، مختلطين لا يتعارفون. وقال الكلبي: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء[٣].

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلٌ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلٌ﴾ هذا متصلٌ بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن. والكناية ترجع إلى القرآن[٤]. ووجه التكرير في قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلٌ﴾ يجوز أن يكون معنى الأوّل: أوجبنا إنزاله بالحق. ومعنى الثاني: ونزل وفيه الحق، كقوله: خرج بثيابه، أي: وعليه ثيابه.

وقيل: الباء في «وبالحق» الأوّل بمعنى مع، أي: مع الحق؛ كقولك: ركبَ الأميرُ بسيفه، أي: مع سيفه. ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: بمحمدٍ ﷺ، أي: نزل عليه؛ كما تقول: نزلتُ بزيد[٥]. وقيل: يجوز أن يكون المعنى: وبالحقِّ قدَّرنا أن ينزل، وكذلك نزل.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ مذهب سيبويه أنَّ «قرآناً» منصوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ يُفسِّره الظاهر. وقرأ جمهور الناس: «فَرَقناه» بتخفيف الراء، ومعناه: بيَّنَّاه وأوضحناه[٦]، وفرقنا فيه بين الحق والباطل. قاله الحسن[٧]. وقال ابن

---

(١) الصحاح (لفف).

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٤ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٤١ .

(٤) زاد المسير ٥/ ٩٦ .

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ٦٨ بمعناه.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٠ .

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ١١٥ .

عباس: فصَّلناه[١].

وقرأ ابن عباس وعليٌّ وابن مسعود وأُبَيُّ بن كعب وقَتادة وأبو رجاء والشَّعْبيُّ: «فرَّقناه» بالتشديد[٢] أي: أنزلناه شيئاً بعد شيءٍ لا جملةً واحدة، إلا أنَّ في قراءة ابن مسعود وأُبَيٍّ: «فَرَّقناه عليك»[٣].

واختُلِفَ في كم نزل القرآن من المدَّة، فقيل: في خمسٍ وعشرين سنة. ابن عباس: في ثلاث وعشرين. أنس: في عشرين. وهذا بحسب الخلاف في سِنِّ رسولِ الله ﷺ[٤]، ولا خلافَ أنه نزل إلى السماء الدنيا جملةً واحدة، وقد مضى هذا في «البقرة»[٥].

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: تطاوُلٍ في المدَّة شيئاً بعد شيء، ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود[٦]، أي: أنزلناه آيةً آيةً، وسورةً سورة[٧]. وأمَّا على القول الأوّل فيكون «عَلَى مُكْثٍ» أي: على ترسُّلٍ في التلاوة وترتيل. قاله مجاهد وابن عباس وابن جُريج[٨]. فيُعطي القارئ القراءةَ حقَّها من ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحينٍ ولا تطريبٍ مُؤدٍّ إلى تغيير لفظ القرآن بزيادةٍ أو نقصانٍ، فإن ذلك حرامٌ على ما تقدَّم أوَّل الكتاب. وأجمع القُرَّاء على ضَمِّ الميم من «مُكْثٍ»[٩] إلا ابن مُحَيْصِن فإنه قرأ: «مَكْثٍ» بفتح الميم[١٠]. ويقال. مَكْثٍ ومُكْثٍ ومِكْثٍ؛ ثلاث

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ١١٤ .

(٢) وهذه القراءة في الشاذة ص٧٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ ، لكن وقع في مطبوعه وفي الوسيط ٣/ ١٣٢ : «قتادة» بدلاً من «أنس».

(٥) ٣/ ١٦١ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ .

(٧) مجمع البيان ١٥/ ١٠٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ .

(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ .

(١٠) زاد المسير ٥/ ٩٧ عن ابن محيصن وغيره، وهي قراءة شاذة.

لغات[١]. قال مالك: «على مُكْث»: على تثبُّتٍ وترسُّلٍ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ مبالغةٌ وتأكيدٌ بالمصدر للمعنى المتقدم[٣]، أي: أنزلناه نَجْماً بعد نجم[٤]؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقتٍ واحدٍ لنفروا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ يعني القرآن. وهذا من الله عزَّ وجلَّ على وجه التبكيت لهم والتهديد، لا على وجه التخيير[٥]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من قبل نزول القرآن وخروج النبيِّ ﷺ، وهم مؤمنو أهل الكتاب[٦]. في قول ابن جُريجٍ وغيره. قال ابن جُريج: معنى «إذا يُتلى عليهم» كتابهم[٧]. وقيل: القرآن[٨]. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾. وقيل: هم قومٌ من ولد إسماعيل تمسَّكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبيَّ عليه الصلاة والسلام، منهم: زيد بن عمرو بن نُفيل وورقة بن نَوْفل. وعلى هذا ليس يريد: أوتوا الكتاب، بل يريد: أوتوا عِلْمَ الدِّين[٩]. وقال الحسن: الذين أوتوا العلم أمةُ محمدٍ ﷺ. وقال مجاهد: إنهم ناس من اليهود. وهو أظهر؛ لقوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾. ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني القرآن في قول مجاهد. كانوا إذا سمعوا

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٧٩ لكن نسبه إلى مجاهد.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣٢.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٨٠.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٤١.

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ١٢١.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ١٤٢.

(٩) قال الواحدي في الوسيط ٣/ ١٣٢: يعني طلاب الدين مثل: أبي ذر وسلمان وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو. وعلى هذا فإن هؤلاء ليس كلُّهم من ولد إسماعيل.

ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا: «سبحان ربِّنا إن كان وعد ربِّنا لمفعولا»[١]. وقيل: كانوا إذا تلَوْا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبَّحوا، وقالوا: هذا هو المذكور في التوراة، وهذه صفته، ووعدُ الله به واقعٌ لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام، فنزلت الآية فيهم. وقالت فرقةٌ: المراد بالذين أوتوا العلم من قبله محمدٌ ﷺ، والضمير في «قَبْله» عائدٌ على القرآن حسب الضمير في قوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾. وقيل: الضميران لمحمدٍ ﷺ، واستأنف ذكر القرآن في قوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾

دليلٌ على جواز التسبيح في السجود. وفي «صحيح مسلم» وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسولُ ﷺ يُكثِرُ أن يقول في سجوده وركوعه: «سبحانكَ اللَّهُمَّ وبحمدِكَ اللَّهُمَّ اغفِرْ لي»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ هذه مبالغةٌ في صفتهم ومدحٌ لهم. وحقٌّ لكلِّ من توسَّم بالعلم وحصَّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة[٤]، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويَذِلَّ. وفي «مسند الدّارمي أبي محمد» عن التَّيْمِيِّ قال: من أوتيَ من العلم ما لم يُبكِّهِ لَخليقٌ ألا يكون أوتي علماً؛ لأنَّ الله تعالى نَعَتَ العلماء، ثم تلا هذه الآية. ذكره الطبري أيضاً[٥]. والأذقان: جمع ذقن،

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٨٠ . وأخرجه بنحوه الطبري ١٥/ ١٢١ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ .

(٣) صحيح مسلم (٧٨٤). وأخرجه البخاري ـ أيضاً ـ (٨١٧)، وهو في مسند أحمد (٢٤١٦٣).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ .

(٥) سنن الدارمي (٢٩١)، وتفسير الطبري ١٥/ ١٢٢ .

وهو مجتمع اللِّحْيين[١]. وقال الحسن: الأذقان عبارة عن اللِّحَى[٢]، أي: يضعونها على الأرض في حال السجود، وهو غاية التواضع.

واللام بمعنى على[٣]؛ تقول: سقط لِفِيه، أي: على فيه. وقال ابن عباس: ﴿ويخرون للأذقان سُجْداً﴾ أي: للوجوه[٤]، وإنما خصَّ الأذقان بالذِّكر؛ لأنَّ الذَّقنَ أقربُ شيءٍ من وجه الإنسان[٥]. قال ابن خُوَيْزمَنداد: ولا يجوز السجود على الذقن؛ لأنَّ الذقن هاهنا عبارةٌ عن الوجه، وقد يُعبَّر بالشيء عما جاوره وببعضه عن جميعه، فيقال: خرَّ لوجهه ساجداً وإن كان لم يسجُدْ على خدِّه ولا عينه. ألا ترى إلى قوله:

فخرَّ صَريعاً لليدينِ ولِلفَمِ[٦]

فإنما أراد: خرَّ صريعاً على وجهه ويديه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَبْكُونَ﴾ دليلٌ على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى، أو على مصيبةٍ[٧] في دين الله، وأنَّ ذلك لا يقطعُها ولا يضرُّها. ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة، عن ثابت البُنانيِّ، عن مُطَرِّف بن عبد اللهِ بن الشِّخِّير، عن أبيه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يُصلِّي ولِجَوْفِه أزِيزٌ كأزيزِ المِرْجَلِ من البكاء. وفي كتاب أبي داود: و في صدره أزيزٌ كأزيز الرَّحى من البكاء[٨].

الثالثة: واختلف الفقهاء في الأنين، فقال مالك: الأنين لا يقطَعُ الصلاةَ للمريض، وأكرهُه للصحيح. وبه قال الثوري. وروى ابن الحكم عن مالك: التنحنحُ

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٨٠ .

(٣) زاد المسير ٥/ ٩٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٨٠ ، وزاد المسير ٥/ ٩٧ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٤ .

(٦) سلف ١٣/ ٢٤ .

(٧) في (د) و(م) و(ز): معصيته.

(٨) الزهد لابن المبارك (١٠٩)، وسنن أبي داود (٩٠٤). وهو في مسند أحمد (١٦٣١٢).

والأنين والنفخ لا يقطع الصلاة. وقال ابن القاسم: يقطع. وقال الشافعيُّ: إن كان له حروفٌ تُسمَعُ وتُفهَمُ يقطَعُ الصلاة. وقال أبو حنيفة: إن كان من خوف الله لم يقطَعْ، وإن كان من وجَعٍ قَطَعَ. ورُويَ عن أبي يوسف أنَّ صلاتَه في ذلك كلِّه تامةٌ؛ لأنه لا يخلو مريضٌ ولا ضعيفٌ من أنين[١].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ تقدَّم القول في الخشوع في «البقرة»[٢] ويأتي.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ سبب نزول هذه الآية أنَّ المشركين سمعوا رسولَ الله ﷺ يدعو: «يا اللهُ يا رحمن» فقالوا: كان محمدٌ يأمرنا بدعاءِ إلهٍ واحدٍ وهو يدعو إلهين. قاله ابن عباس. وقال مكحول: تهجَّد رسولُ الله ﷺ ليلةً فقال في دعائه: «يا رحمنُ يا رحيم» فسمعه رجلٌ من المشركين، وكان باليمامة رجلٌ يُسمَّى الرحمن، فقال ذلك السامع: ما بالُ محمدٍ يدعو رحمان اليمامة. فنزلتِ الآيةُ مبيّنةً أنهما اسمان لمسمًّى واحد، فإن دعوتُموه بالله فهو ذاك، وإن دعوتُموه بالرحمن فهو ذاك[٣]. وقيل: كانوا يكتبون في صدر الكتب: باسمك اللهمَّ، فنزلت: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] فكتبَ رسولُ الله ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم»[٤]، فقال المشركون: هذا الرحيم نعرِفُه، فما الرحمن؟ فنزلت الآية. وقيل: إن اليهود قالت: ما لنا لا نسمَعُ في القرآن اسماً هو في التوراة كثيرٌ ـ يعنون الرحمن ـ فنزلت الآية[٥]. وقرأ طلحة بن

(١) هاتان المسألتان الثانية والثالثة في التمهيد ٢٢/ ١٣٤ .

(٢) ٢/ ٧٠ - ٧٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ . وأخرجه عنهما الطبري ١٥/ ١٢٣ - ١٢٤ .

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٩٩ عن ميمون بن مهران.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٨٠ عن الكلبي.

مُصَرِّف: «أيًّا مَنْ تدعو فله الأسماء الحسنى» أي: التي تقتضي أفضلَ الأوصاف وأشرفَ المعاني[١]. وحُسْنُ الأسماء إنما يتوجَّه بتحسين الشرع؛ لإطلاقها والنصِّ عليها. وانضاف إلى ذلك أنها تقتضي معانيَ حساناً شريفةً، وهي بتوقيفٍ لا يصِحُّ وضْعُ اسمٍ لله بنظرٍ إلا بتوقيفٍ من القرآن أو الحديث أو الإجماع، حسبما بيَّناه في الكتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: اختلفوا في سبب نزولها على خمسة أقوال:

الأوّل: ما روى ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلَتْ ورسولُ اللهِ ﷺ مُتَوارٍ بمكة، وكان إذا صلَّى بأصحابه رفَعَ صوتَه بالقرآن، فإذا سمعَ ذلك المشركون سَبُّوا القرآن ومَنْ أنزلَه ومن جاء به؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمعَ المشركون قراءتَكَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك، أسمِعْهُمُ القرآنَ، ولا تَجهَرْ ذلك الجهر ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: يقول بين الجهر والمخافتة. أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وغيرهم، واللفظ لمسلم[٣].

والمخافتة: خفضُ الصوتِ والسكون؛ يقال للميت إذا بَرَد: خَفَت[٤]. قال الشاعر:

لم يَبْقَ إلا نَفَسٌ خافِتُ ومُقْلَةٌ إنسانُها باهِتُ

رَثَّى لها الشامِتُ مما بها يا وَيْحَ من يَرْثِي له الشَّامِتُ

الثاني: ما رواه مسلم أيضاً عن عائشة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قالت: أُنزِلَ هذا في الدعاء[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ . وهذه قراءة شاذة.

(٢) ص٣٥ .

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٢)، وصحيح مسلم (٤٤٦)، وسنن الترمذي (٣١٤٦). وهو في مسند أحمد (١٥٥).

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ٣٠٤ - ٣٠٥ بنحوه.

(٥) صحيح مسلم (٤٤٧).

الثالث: قال ابنُ سِيرين: كان الأعراب يجهرون بتشهُّدهم، فنزلت الآية في ذلك[١]. قلت: وعلى هذا فتكون الآية متضمنةً لإخفاء التشهد، وقد قال ابن مسعود: مِنَ السُّنَّةِ أن تُخفيَ التشهدَ. ذكره ابن المنذر.

الرابع: ما رُوي عن ابن سِيرين أيضاً: أنَّ أبا بكرٍ ﷺ كان يُسِرُّ قراءته، وكان عمر يجهَرُ بها، فقيل لهما في ذلك، فقال أبو بكر: إنما أُناجي ربي، وهو يعلم حاجتي إليه. وقال عمر: أنا أطردُ الشيطانَ، وأوقِظُ الوَسْنان. فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفَعْ قليلاً. وقيل لعمر: اخفِضْ أنتَ قليلاً. ذكره الطبريُّ وغيره[٢].

الخامس: ما رُويَ عن ابن عباس أيضاً أن معناها: ولا تجهَرْ بصلاة النهار، ولا تُخافِتْ بصلاة الليل. ذكره يحيى بن سلام والزهراويّ[٣]. فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض، فأما النوافل فالمصلي مخيَّرٌ في الجهر والسرِّ في الليل والنهار، وكذلك رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه كان يفعل الأمرين جميعاً. وأما الفرائض فحُكْمُها في القراءة معلومٌ ليلاً ونهاراً.

وقولٌ سادس: قال الحسن: يقول الله: لا ترائي بصلاتك تُحسِّنُها في العلانية، ولا تُسيئُها في السِّرِّ. وقال ابن عباس: لا تُصَلِّ مرائياً للناس، ولا تَدَعْها مخافةَ الناس[٤].

الثانية: عبَّر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبَّر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۚ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما مرتبطٌ بالآخر؛ لأنَّ الصلاة تشتمل على قراءةٍ وركوعٍ وسجودٍ، فهي من جملة أجزائها؛ فعبَّر بالجزء

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ١٣٢ ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٦١٢).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٢ .

(٤) ذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٠٠ ، وأخرجهما الطبري ١٥/ ١٣٤ - ١٣٥ .

عن الجملة، وبالجملة عن الجزء، على عادة العرب في المجاز، وهو كثير[١]؛ ومنه الحديث الصحيح: «قَسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي» أي: قراءة الفاتحة على ما تقدَّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ هذه الآية رادَّةٌ على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: عزيرٌ وعيسى والملائكةُ ذريةُ الله سبحانه، تعالى الله عن أقوالهم![٣] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ لأنه واحدٌ لا شريكَ له في ملكه ولا في عبادته. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال مجاهد: المعنى: لم يُحالِفْ أحداً، ولا ابتغَى نصرَ أحدٍ[٤]، أي: لم يكن له ناصرٌ يُجيره من الذُّلِّ فيكون مدافعاً. وقال الكلبي: لم يكن له وليٌّ من اليهود والنصارى؛ لأنهم أذَلُّ الناس[٥]؛ ردًّا لقولهم: نحن أبناء الله وأحِبَّاؤه[٦]. وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يعني: لم يُذَلَّ فيحتاج إلى وَلِيٍّ، ولا ناصِرَ لعزَّته وكبريائه.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظِّمه عظَمةً تامة[٧]. ويقال: أبلَغُ لفظةٍ للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر[٨]. أي: صِفْه بأنه أكبرُ من كلِّ شيء. قال الشاعر:

رأيتُ اللهَ أكبرَ كلِّ شيءٍ ... محاولةً وأكثرهم جنودا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١٥.

(٢) ١/ ١٤٥.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٣.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ١٣٨، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٧٢.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٨٢.

(٦) مجمع البيان ١٥/ ١١٢ بمعناه.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٥.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٣.

وكان النبيُّ ﷺ إذا دخل في الصلاة قال: «الله أكبر» وقد تقدَّم أوّل الكتاب[١].

وقال عمر بن الخطاب. قول العبد: «الله أكبر» خيرٌ من الدنيا وما فيها.

وهذه الآية هي خاتمة التوراة؛ روى مُطَرِّفٌ عن عبد الله بن كعب قال: افتُتِحَتِ التوراةُ بفاتحة سورة الأنعام، وخُتِمَتْ بخاتمة هذه السورة[٢]. وفي الخبر أنها آية العِزِّ. رواه معاذ بن أنس[٣] عن النبيِّ ﷺ[٤]. وروى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أفصَحَ الغلامُ من بني عبد المطلب علَّمه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى﴾ الآية[٥]. وقال عبد الحميد بن واصل: سمعتُ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من قرأ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾» الآية، كتبَ اللهُ له من الأجر مثلَ الأرض والجبال، لأنَّ الله تعالى يقول فيمن زعم أنَّ له ولداً: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾[٦] [مريم: ٩٠]. وجاء في الخبر: أنَّ النبيَّ ﷺ أمر رجلاً شكا إليه بالدَّين بأن

---

(١) ١/ ٢٧٠ ، والبيت قائله خداش بن زهير، وقد ورد هناك بلفظ: «وأعظمه» بدل «وأكثرهم».

(٢) هكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٣ ، لكن الأثر أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٥٥ ، والدارمي (٣٤٠٢)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٧٨ من طريق عبد الله بن رباح عن كعب بلفظ: فاتحة التوراة فاتحة سورة الأنعام، وخاتمة التوراة خاتمة سورة هود. وقد سلف ٨/ ٣١١ .

وورد في روايةٍ أخرى عند أبي نعيم بأن خاتمة التوراة خاتمة الإسراء، دون ذكر فاتحتها.

(٣) وقع في جميع النسخ: معاذ بن جبل، وهو خطأ.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٦٢٤) من طريق زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه مرفوعاً. زَبَّان بن فائد ضعيف.

(٥) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٢٤) من طريق عبد الكريم أبي أمية، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ موصولاً.

وأخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٣٤٨ و ١٠/ ٥٥٦ من طريق عبد الكريم، عن عمرو، عن النبي ﷺ معضلاً.

وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٧٩٧٦) من طريق عبد الكريم، عن النبي ﷺ معضلاً دون ذكر عمرو بن شعيب.

(٦) لم نقف على من أخرجه بهذا الإسناد، وفيه إبهام الراوي الذي روى عنه عبد الحميد بن واصل. وأخرجه بنحوه الطبراني (٦٧٦) عن أبي هريرة ﷺ بإسناد مسلسلٍ بالعلل، ففيه مجهولان، وضعيف وهو محمد بن سلمة، ومدلس وهو محمد بن إسحاق، وفيه انقطاع، فقد رواه موسى بن يسار عن أبي هريرة وهو لم يدركه.

يقرأ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾... إلى آخر السورة، ثم يقول: توكَّلتُ على الحيِّ الذي لا يموت. ثلاث مرات[1].

تمَّت سورةُ الإسراء، والحمد لله وحده،
والصلاةُ والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعدَه.

(١) أورده بهذا اللفظ أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٨٧ .

وأخرجه بنحوه أبو يعلى (٦٦٧١)، وابن السني (٥٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٢ : فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف.